

دمشق ـــ اوتوستراد المزة

هاتف

٢٤٤١٢٦ ـــ ٢٤٣٩٥١ ـــ ٢١٣٨٢١

تلكس: ٤١٢٠٥٠

ص. ب: ١٦٠٣٥

العنوان البرقي

طلاسدار

TLASDAR

ريع الدار مخصص

لصالح مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي السوري

ميخائيل غورباتشوف

سيرة ذاتية مفصلة

الطبعة الأولى
١٩٩٠

ميخائيل غورباتشوف

سيرة ذاتيّة مفصّلة

أعـدّه

محررو مجلة التايم الأمريكيّة

قدّم لـه

ستروب تالبوت

ترجمة

دار طلاس

للدراسات والترجمة والنشر

المحتوى

المقدمة ٩

☐ **الفصل الأول**

نشأته ٣٩

☐ **الفصل الثاني**

السنوات الجامعية ٧٧

☐ **الفصل الثالث**

أعوام ستافروبول ١١٧

☐ **الفصل الرابع**

دعوة إلى موسكو ١٦٣

☐ **الفصل الخامس**

المصلح ١٩٩

☐ **الفصل السادس**

يوم واحد في حياة ميخائيل سيرجيفيتش ٢٥٥

☐ **الفصل السابع**

رايسا ٢٩٣

☐ **الفصل الثامن**

السيد غورباتشوف يذهب إلى واشنطن ٣٢١

☐ من أقوال غورباتشوف ٣٦٥

☐ التسلسل الزمني للأحداث ٣٧٧

اسم الكتاب باللغة الإنكليزية

Mikhail S. GORBACHEV

An Intimate Biography

By the Editors of TIME Magazine

With an Introduction by Strobe Talbott

ثبت في نهاية الكتاب — ص٣٨٥ ومابعد — لمحة عن مؤلفين هذا الكتاب

المقدمة

في ظهيرة الثامن من كانون الأول عام ١٩٨٧ ، وقف رونالد ويلسون ريغان أمام منضدة ، والنار تتأجج في موقد غرفة الطعام في البيت الأبيض ليرحب بمخائيل سيرجيفتش غورباتشوف في واشنطن. وقد نقلت عدسات التصوير التلفزيوني هذه اللحظة حية إلى جميع أنحاء أمريكا والعالم. في موسكو كان الوقت مساء وفي شارع كالين ، ذاك الشارع العريض الذي تقوم على جانبيه ناطحات السحاب ، والذي يشكل الواجهة المنيرة للعاصمة السوفييتية تجمهر الناس في حلقات في جو وصلت حرارته إلى تحت الصفر وتحت الثلج المتساقط ، وبينما هم في طريقهم إلى محطة أربات للميترو ، توقف الكثير منهم ، ونظروا إلى الأعلى ، وتسمروا ينظرون إلى صورة شخصين مألوفين تتراقص على الشاشة الخارجية الهائلة الحجم ، والتي تستعمل عادة للإعلان عن الأفلام السوفييتية . وحملت مكبرات الصوت الترجمة بينما بدأ رئيس الولايات المتحدة يتحدث قائلاً : « كتب رالف والد ايمرسون مرة يقول

بأنه لا يوجد تاريخ على الأرجح ، وإنما سيرة ذاتية فقط . لقد عنى أنه لا يكفي التحدث عن التاريخ وكأنه ببساطة قوى وعوامل » .

وللمصادفة ، وجد الذين كتبوا كلمة غورباتشوف مقطعاً آخر من كتابات ايميرسون يصلح للمناسبة ويقول فيه : « إن المكافأة لعمل أحسن فِعله هي حقيقة أنه نفذ » والاستشهاد بأحد مفكري القرن التاسع عشر الإرتقائيين من قبل الرئيسين لوضع نغمة الزيارة الرسمية ، زيارة القرن العشرين ربما الحادي والعشرين التي قام بها ماركسي إلى واشنطن، هذه الإشارة المشتركة لايميرسون كانت مفارقة أخرى من مفارقات ذلك اليوم العديدة. إنه زوج من أغرب أزواج الزمان . فالمضيف كان ممثلاً سينمائياً سبعينياً، تحوّل إلى سياسي ، معادٍ للشيوعية من الطراز القديم ، ومعروف بشجبه للاتحاد السوفييتي (كإمبراطورية شريرة) يحكمها رجال (يحتفظون لأنفسهم بحق إرتكاب أية جريمة ، بحق الكذب والغش) . ومع ذلك كان علم الاتحاد السوفييتي بالمنجل والمطرقة يرفرف إلى جانب علم النجوم والخطوط على طول شارع بنسلفانيا أفينيو . ويقف بجوار ريغان إصلاحيّ Apparatchik يشع ثقة (وقوة) شابة ، كان طفلاً في الحقبة الستالينية . (وعلى مقربة منهم في البيت الأبيض كانت رايسا غورباتشوف التي كانت كزوجة قائد سوفييتي على غير المألوف جذابة ومُطّلعة) . جاء غورباتشوف ليتحدث مع ريغان حول وقف التسلح ، ولكنه انتهى وهو يتحداه حول اللقب العالمي المفاوض الكبير . فقد اتفق الرجلان في بداية لقائهما الثالث ليس فقط على حذف فصيلتين كاملتين من الأسلحة النووية بل أن ينادي أحدهما الآخر بـ(رون) و(ميخائيل) . هذه اللمسة من الإلفة

لم تكن بالطبع المسألة الأساسية ولكنها أيضاً لم تكن خارجة عن الموضوع . فالذي حدث كان ممكناً لأنهما نفسيهما ، جعلاه يحدث .

وهكذا بعد أن استشهد ريغان بحكمة ايمرسون حول تعزيز التاريخ بالسِّير الذاتية اختار ريغان شعاراً مناسباً للقائه بغورباتشوف في ذلك اليوم ، ولكامل العلاقة بينهما منذ لقائهما الأول على أرض محايدة في جنيف قبل عامين ، إلى لقائهما الثاني في ريكيافيك ايسلندا بعد عام ، وعلى الأرجح وصولاً إلى لقائهما الأخير الذي أعلن الرجلان أنه سيكون في موسكو في ١٩٨٨ . وتصلح كلمات ايمرسون لأن تكون تصديراً للصفحات اللاحقة ، وخلافاً لريغان الذي كان موضوعاً لمئتي كتاب من التحليل النفسي والسياسي فإن غورباتشوف كان وما زال شيئاً من الأحجية . وبالرغم من شيوع الكلمة الروسية Glasnost غلاسنوست (الانفتاح) في الغرب ، بقيت حياته كتاباً مغلقاً ، ومحاولات التطفل عليها وفتحها لم تكن ناجحة تماماً . والمؤلفات الحديثة حول غورباتشوف ، بالرغم من أنها غالباً مهمة وذات رؤية ، اتجهت أكثر نحو فحص النظام السياسي والاجتماعي السوفييتي أكثر من اتجاهها نحو دراسة شاملة لحياة غورباتشوف .

السبب الرئيسي لذلك الخلل في السيرة الذاتية هو أن غورباتشوف ظهر من وضع مغمور تماماً إلى السلطة والشهرة تسبياً ، فجأة ، تاركاً القليل للذين في الكرملين ، لاقتفاء أثره . فلم يُنشَر سوى القليل في الاتحاد السوفييتي عن أصوله ، سيرته المهنية المبكرة ، وحياته الخاصة . وقد تجنب التطرق إلى الجوانب الشخصية في مقابلاته

وكتاباته. إنه يريد الابتعاد عن خلق الشخصية وعبادتها. وهو تعبير (ملطف) لتمجيد قائد، له مطلق الصلاحية.

وقد وصلت هذه الظاهرة إلى أقصى حد لها، غير مقبول في عهد جوزيف ستالين أثناء طفولة غورباتشوف. لقد اتُّهِم نيكيتا خروتشوف بالاشتطاط، بقلة الحياء (البذاءة، الوقاحة) عندما أقيل في عام ١٩٦٤ ووجهت اتهامات مماثلة إلى ليونيد بريجينيف في آخر عهده، ربما بإيحاء من غورباتشوف. ولذا ردّ غورباتشوف على الكتابة عن سيرته الذاتية الأولية بشيء من التقديس في الصحافة السوفييتية، بإخفاء حياته الخاصة. وقد حذا المرؤوسون حذو المعلم. فقد ذكر أحد كبار الموظفين لمجموعة من زملائي منذ وقت قريب بأنه يعرف الأمين العام منذ أن كان طالباً جامعياً، وعندما سئل الرجل «كيف كان غورباتشوف في تلك الأيام»، توقف الرجل متأملاً، ابتسم وقال: «لا أذكر».

إن سيرة غورباتشوف الذاتية الرسمية ليست أكثر من سرد للوظائف التي شغلها، والأوسمة التي حصل عليها، وهي تفتقد حتى المعلومات الشخصية الأولية. فمثلاً ليس معروفاً ما إذا كان لديه أقارب. يقول بعض السوفييت إن له أخاً يعمل بالزراعة، ولكن يبدو أن ما من أحد يعرف اسمه وعمره. ومسألة وجود أخت له هي أيضاً غير مؤكدة.

على أية حال استطاعت التايم أن تملأ الفراغات في قصة غورباتشوف من مصادر متعددة، إذ استطاع مراسلو المجلة في الاتحاد

السوفييتي وأماكن أخرى إجراء مقابلات مع الكثير من رفاق الأمين العام ، زملاء الدراسة ، بعض الأجانب الذين عرفهم وآخرين من الذين صادفوا صبي مزرعة ستافروبول في رحلته إلى الكرملين .

وبالرغم من أني وزملائي كنا نجمع المعلومات عن غورباتشوف على مدى سنين غير أن المشروع بدأ بشكل جدي في خريف ١٩٨٧ ، عندما بدأنا نفكر بمرشح (لرجل العام لمجلة التايم) ، إذ أنه منذ عام ١٩٢٧ وهذا الاختيار يقع على صانع الأخبار الذي يكوّن أكثر من أثر في أحداث العام سلباً أم إيجاباً . وبالنظر لإنجازات غورباتشوف الهامة على الصعيدين الداخلي والدولي في ذلك العام لم يكن الاختيار النهائي صعباً . ولكن الذي جعل غورباتشوف ، بحق ، رجل العام المميز هو أنه بالرغم من كونه قائداً لإحدى الدولتين العظيمتين لم يكن معروفاً عنه سوى القليل . لم نرتدع ، رمينا بشبكتنا الواسعة وأتينا بكمّ هائل من المعلومات التي لم تُنشر من قبل ، إلى جانب مجموعة شاملة من الصور الفوتوغرافية الرسمية والعائلية لغورباتشوف التي ظهرت للمرة الأولى في مكان واحد . وبعد ظهور عدد (رجل العام) لسنة ١٩٨٧ كنّا وما زلنا نحن وكثيرون من القراء متشوقين لنعرف أكثر عنه ، وهكذا رمينا شبكتنا في دائرة أوسع ، عدنا إلى مصادرنا ، ورجعنا بحقائق وصور أكثر . والنتيجة هي ظهور كتاب : ميخائيل غورباتشوف : سيرة ذاتية مفصلة (صحيحة ، صحيحة) والذي نعتقد بأنه أكثر الكتب التي نشرت للآن تفصيلاً حول هذا القائد السوفييتي غير العادي .

الكتاب هو الأول الذي تصدره التايم. فلأكثر من ستة عقود كان محررو المجلة، كتّابها، الباحثون والمراسلون يركزون جهودهم على إخراج العدد الاسبوعي. ولم يحدث من قبل أن تمحورت أبحاث مجلة التايم ومصادرها التقريرية والتصويرية حول كتاب. كانت التجربة بنّاءةً مرضية، ونعتقد أنها ناجحة. وبالروحية الايمبرسونية نفسها نأمل أن يُقيّم هذا الكتاب بعض التماثيل في قضية السيرة الذاتية في العلاقات بين القوى العظمى.

ورد ذكر غورباتشوف للمرة الأولى في مجلة التايم في مقال قصير في قسم العالم في عدد كانون الأول ١٩٧٩ والذي أشير فيه إلى أنه يتوفر لدى سكرتير اللجنة المركزية (الصغير والمغمور نسبياً)، والذي كان عمره ٤٨ سنة في ذلك الحين، مجموعة مقومات من حسن الحظ، البراعة السياسية والحماية من أعلى مستوى، جنّبته اللوم لمحصول تلك السنة الذي كان أشبه بالكارثة، حتى العام ١٩٨٣ عندما كان معروفاً بشكل أفضل قليلاً خارج بلده، وكانت العلاقات الأمريكية السوفييتية تتدهور بشكل عنيف على مدى عقدين من الزمن، كانت هي تلك سنة صدور كتاب جورج لوكاس من الأدب القصصي العلمي حول السياسة الخارجية الأمريكية. في آذار ١٩٨٣ ألقى ريغان خطبته (إمبراطورية الشر)، أمام حضور من المسيحيين الانجيليين في فلوريدا، وبعد أسبوعين كشف عن مبادرته الجديدة، مبادرة الدفاع الاستراتيجي (حرب النجوم).

قال الرئيس: إن مبادرة الدفاع الاستراتيجي هي لجعل السلاح

النووي (غير فعال وعتيق) ولم يكن لدى أيّ كان مِنْ شكٍّ حول سلاح مَنْ يقصد.

في أيلول نفسه تذكر العالم بأن لدى الاتحاد السوفييتي استراتيجيات دفاعية شاملة ولو أنها أقل إثارة، وأنه في حالة استنفار من الدرجة العالية جداً. لقد أنزلت مقاتلة سوخوي ١٥ نفاثة تابعة لقيادة الدفاع الجوي في الشرق الأقصى طائرة نقل ركاب كورية ضلت طريقها وعلى متنها ٢٦٩ راكباً. وفي الشهر نفسه أصدر المكتب السياسي بياناً باسم الأمين العام يوري أندروبوف يبدو أنه ينفي فيه إمكانية تعامل أقوى مع إدارة ريغان، وفي تلك الأثناء كان الحسم المرتقب لمسألة نشر الصواريخ الأمريكية المتوسطة المدى في أوروبا في تقدم. وفي أواخر تشرين الثاني وصلت الأسلحة حسب البرنامج، وخلال أيام قام الدبلوماسيون السوفييت بالانسحاب من مفاوضات وقف الأسلحة في جنيف.

ولكن في عصر التسلح النووي لم يكن بإمكانهم الالتفات وإطلاق النار، وهم ودولهم محكوم عليهم بما دعاه خروتشوف بالتعايش السلمي، وأشار إليه نيكسون وهنري كيسنجر بالانفراج.

وكان من المستحيل استمرار حالة الحرب الدائمة سياسياً تماماً، مثلما تكون الحرب الساخنة انتحاراً عسكرياً.

ولكن إحياء درجة من التآلف والارتباط البنّاء يتطلب تعاوناً من كلا الجانبين على صعيد الحكومة والدبلوماسية. ذلك العامل الحاسم

كان مفقوداً لدى الجانب السوفييتي خلال عامي ١٩٨٣ ـــ ١٩٨٤ . إذ أن قيادة الكرملين كانت فعلياً ومجازياً ، تعيش على أنظمة بقاء مصطنعة. أعلن رسمياً أن أندروبوف كان يعاني من (زكام) ومن ثم من (زكام شديد) . وكان في الحقيقة في حالة احتضار بسبب آفة في الكلية . ولكن النخبة الحاكمة في الاتحاد السوفييتي لم تكن قادرة قط على التعامل الإداري مع انتهاكات أزمات موت الرفيق. فلا حجم التخدير ولا التخطيط للطوارئ يمكن أن يجعل المحتم يبدو روتينياً عندما تكون صحة القائد الأعلى هي التي تتراجع . كان الأمر كذلك مع لينين ، وستالين وبريجينيف .

إن مسألة نقل القيادة في الاتحاد السوفييتي بالتعريف هي أزمة قيادة . والجمعيات والأنظمة السياسية الأكثر إدارة لم تستطع أبداً أن تكون قادرة على تنظيم الخلافة في السلطة ، بشكل يبتعد عن حمل الإحساس بالاضطراب للشعب السوفييتي وللعالم . والقادة الكبار لا يتقاعدون بشرف منهم أبداً ، إما يموتون وهم ما يزالون على رأس عملهم (مثل لينين وستالين ، وبريجينيف) أو يلقى بهم ، وينتهون كمتقاعدين أو غير ناس (مثل خروتشوف وسابقه جورجي مالنكوف) . والقادة السوفييت غير قادرين على الملاءمة بين ما تعنيه شيخوختهم ، مرضهم وعدم خلودهم لسبب واحد بسيط ولعين : فمنذ عام ١٩١٧ ، عام الثورة ، كان نظامهم يعتمد على الوصول إلى السلطة ، وتعزيزها . فليس لدى الدولة السوفييتية آلية داخلية تسمح بالمشاركة بالصلاحية ، ونقلها أبعد من الدائرة الداخلية .

إن الرجال المسنين الذين حكموا الاتحاد السوفييتي كانوا يحكمون بموجب نوعين من الأحكام ـــ تلك التي وضعوها بأنفسهم ولأنفسهم ، وتلك التي فرضتها الأخلاق الإنسانية . وعندما كان أندروبوف على فراش الموت في أواخر ١٩٨٣ وجد رفاقه أنفسهم ، وهم في غالبيتهم مسنون وضعفاء وجدوا أنفسهم أمام معضلة ركّزت على مفارقة شباب الاتحاد السوفييتي كدولة ، وزيف ادعائه بأنه يمثل موجة المستقبل . فالاختيار الأمين هو أن يختار الحارس المسن واحداً من درجته مراعياً بذلك حكم المسنين ، ومحافظاً على سلطتهم حتى ولو كان ذلك سيعني المرور بالمشكلة نفسها مرة أخرى ، عاجلاً أفضل من (آجلاً) . فاختيار رئيس أصغر سيحمل قدراً كبيراً من عدم الثبات وعدم القدرة على التكهن . ظاهرياً ، المحافظة على التقاليد الثورية ، فالقادة السوفييت ، كانوا بين أكثر سياسيّي العالم محافظة على الإطلاق ، وهم يكرهون عدم الاستقرار وعدم القدرة على التنبؤ . الإستسلام للجيل التالي ، بالنسبة لهم كان قد ينشط القيادة ، ولكن يمكن أن يُعجّل بالتأكيد بنهايتهم السياسية .

عندما توفي أندربوف في شباط ١٩٨٤ كان البعض في الغرب يراهنون على أن لدى غورباتشوف فرصة كبيرة ليكون التالي له . وقلة راهنت على كونستانتين تشيرنينكو وقد فازت طبعاً .

ولكن المسنين في الكرملين راهنوا على جداول (التأمين) وخسروا مرة ثانية . فتشيرنينكو ، رجل بريجينيف المهلهل الذي يقول له دائماً

نعم، مات إثر نوبة قلبية في آذار ١٩٨٥ . حكم أندريوف خمسة عشر شهراً وتشيرنينكو ثلاثة عشر فقط.

وجد المكتب السياسي نفسه في ارتباك كبير. وتحولت الساحة الحمراء إلى قاعة هائلة للجنازة. ووجد راديو موسكو أنه ليس من الممكن وضع موسيقى هادئة لتشايكوفسكي خوفاً من انطلاق الشائعات حول أن إعلاناً كئيباً آخر كان قريباً. وإذا كان الشيء الذي يكرهه حكام الاتحاد السوفييتي أكثر من عدم الاستقرار وعدم القدرة على التنبؤ، هو المعرفة بأنهم موضع سخرية وبأنهم يعتبرون ضعفاء وذاوين، فإنهم في هذه المرة لم يكن أمامهم من سبيل سوى النظر إلى الأعضاء الأصغر سناً. وبدؤوا يراهنون على غورباتشوف كشخص يمكن أن يزرع الكبرياء والحيوية في الداخل، ويمكنه أن يباري رونالد ريغان على قلوب وعقول الرأي العام العالمي.

في تسميته لغورباتشوف أمام اللجنة المركزية، قال أندريه غروميكو وزير الخارجية المعروف بصلابته، في كلمة غير عادية في مجال التزكية لغورباتشوف « لهذا الرجل ابتسامة جذابة ولكن له أسنان حديدية » . كان غورباتشوف حينذاك في الرابعة والخمسين. وأخيراً، اختار الاتحاد السوفييتي قائداً أصغر عمراً. فلو عاش غورباتشوف العمر نفسه الذي عاشه بريجينيف سيكون ما يزال على سُدّة المسؤولية في العام ٢٠٠٦، ولكن إذا ما قدر له أن تذكره الناس لابتسامته ولأسنانه ؟ .

وعند ظهور صور غورباتشوف على الصفحات الأولى من

صحف العالم في الأسبوع التالي انتشرت في موسكو دعابة تقول بأن ميخائيل سيرجيفيتش لم يكن يعلم بوجود العلامة الخلفية على جبهته حتى رأى صورته في الصحف لماذا؟.

لأن في جميع صوره التي ظهرت في الصحافة السوفييتية أزيلت جميع العيوب.

لم يضع غورباتشوف وقتاً ليبرهن نغمة أنه رجل الطوارئ. أعلن إجراءات صارمة ضد تعاطي الكحول، وكأنه يريد أن يبرز الاختلاف بينه وبين سابقيه المسنين وغالباً غير المشاهدين، سافر بشكل واسع واستبدل قبعته بأخرى قاسية ليتفقد المعامل مبرزاً زوجته الأنيقة والمتحدثة رايسا في الخارج. وتحرك بسرعة ليدعم سلطته الشخصية. منافسه الأساسي للمركز الأول معلم لينينغراد، غريغوري رومانوف عانى من إهانتين التقاعد المفاجئ وما أشيع بشكل كبير، أنه دخل مصحّاً للمعالجة من الإدمان على الكحول. وبعد ذلك بقليل بدأ الحديث عن حقبة غورباتشوف. كان الأمر غير ناضج بعد، ولكنه حمل للمواطنين السوفييت وللمراقبين بأن غورباتشوف كان أكثر من مجرد القائد الأعلى لبلد مترامي الأطراف مدجج بالسلاح. كان يمثل التغيير الدراماتيكي.

في السياسة الداخلية، قام غورباتشوف بإجراءات أولية باتجاه تبسيط البيروقراطية المنتفخة، ومحاربة الفساد. قال بعض مساعديه بأن العطالة والإحباطات التي صادفها جعلت منه ثورياً. وقد أراد أن يحول البلد من إمبراطورية متخلفة تُباهي بعضلاتها إلى دولة عصرية قادرة على الوقوف في السوق العالمية للبضائع والأفكار. قال غورباتشوف يجب أن

يصبح الاتحاد السوفييتي (قوة عظمى حقيقية). تضمنت هذه العبارة اعترافاً مثيراً للدهشة. فإذا ما رفعنا ٣ر٧ مليون عسكري و ٢٥ر٠٠٠ قطعة سلاح نووي يصبح الاتحاد السوفييتي دولة من دول العالم الثالث.

لن يكون هناك عالم ثانٍ ويمكن للمرء أن يتبين في حديثه نغمة تنبيه تبلغ درجة الخجل وقلق متزايد في الطريقة التي يتحدث بها عن المجتمع، والاقتصاد الذي يحكمه. لقد سكن أرض لينين وماركس شبح جديد، شبح الردة، المفروض من الأعلى. وبدأ غورباتشوف يتحدث ليس بالإصلاح فقط وإنما بالثورة مستشهداً بتعريف لينين للوضع الثوري على أنه وضع يكون فيه من بالأعلى غير قادرين ـــ ومن بالأدنى غير راغبين ـــ بالاستمرار بالأساليب القديمة.

كان ذلك حديثاً قاسياً باعثاً على البهجة لمن يشاطرون غورباتشوف تطلعاته ونفاذ صبره، ومخيفاً للملايين التي لها مصلحة في الإبقاء على الوضع الراهن. وعشية لقاء القمة الثانية بين غورباتشوف وريغان في ريكافيك عام ١٩٨٦، عقد عدد من الناطقين باسم اللجنة المركزية ومثقفي القصر مؤتمراً صحفياً قالوا فيه بأن إصلاحات غورباتشوف واجهت «مقاومة على جميع المستويات» بما فيها أعلى المستويات، المكتب السياسي. وقد فسر ذلك على أنه دعوة مقنّعة ولكنها مثيرة للدهشة للمؤثّرين في الرأي العام الأوروبي الحر لمساعدة غورباتشوف ومؤيديه ضد معارضة المحافظين.

في السياسة الخارجية عرف غورباتشوف بأن الاتحاد السوفييتي يحتاج إلى فترة راحة إلى Perdyshka بيريديشكا أو فترة تنفس من السباق

مع الغرب . سعى إلى إرخاء التوتر (التعريف القاموسي لكلمة انفراج) بحيث يتمكن من تكريس موارده وطاقته لإصلاحاته الداخلية . لهذا كان مصمماً على إشغال رونالد ريغان ، وهو أكثر الرؤوساء الأمريكيين عداء للاتحاد السوفييتي ، بالدبلوماسية الشخصية . وكان على غورباتشوف أن يقنع الرأي العام العالمي بأنه أحد رجال التاريخ الجيدين .

وقد فعل ذلك بشكل جزئي بالطريقة التي التفت فيها إلى الفترة الحرجة للسيطرة الأمريكية السوفييتية على السلاح النووي . وقد ركدت منذ فشل المفاوضات في أواخر عام ١٩٨٣ . ولم يكن لدى الاتحاد السوفييتي لا الوسائل الدبلوماسية ولا الوسائل العسكرية ليوازن متابعة أمريكا لنشر الصواريخ في أوروبا الغربية . وفوراً حال تسلمه السلطة طلب غورباتشوف من وزارة الدفاع الخارجية وقيادة الأركان العامة للقوات المسلحة أن تعطيه تفسيراً للمآزق . وكان ذلك الطلب انتقاداً ضمنياً لأسلافه وكثير من مرؤوسيه ، وعن طريق وقوفه إلى مستوى أعدائه الغربيين في السباق العسكري ، وجلوسه معهم على مائدة المفاوضات كان غورباتشوف مصمماً على إذكاء روح المبادهة والبراعة . فقد عرف عن الاتحاد السوفييتي أنه يقول nyet (لا) أوتوماتيكياً وبعناد . وقد اعتاد الأمريكيون على مفاوض معارض سوفييتي يبدو مرتاحاً كأكثر ما يكون وهو جالس على لوح من ثلج ، يقطب ويرفع رأسه بالرفض لمبادرات الولايات المتحدة . وبدأ غورباتشوف يجرب دبلوماسية da (نعم) .

غالباً ما قال الخبراء الأمريكيون بأن فريقهم كان يأتي إلى مائدة المفاوضات وكأن مسألة تحديد السلاح كانت لعبة بوكر فيها الولايات المتحدة اللاعب الأساسي. بينما الاتحاد السوفييتي كان يلعبها بتثاقل لاعب الشطرنج من موقع الدفاع ومن الجانب الأسود من الرقعة.

لقد غير غورباتشوف كل ذلك، وأبدى قدرة على الجمع بين تكتيك اللعبتين بطريقة تدل على المهارة أحياناً، وتثير الجنون أحياناً، وأحياناً أخرى تثير الاثنين معاً. وبدأ الكرملين بتقديم اقتراحات تحديد السلاح، واقتراحات دبلوماسية بشكل أسرع من أن يتسنى لإدارة ريغان رفضها. فبلغة البوكر أعاد غورباتشوف خلط الأوراق، وزع أوراقاً جديدة، رَفَع قيمة الرهان، ناور وطلب من اللاعبين كشف الأوراق. وبلغة الشطرنج، لعب بالأبيض، وفعل ذلك بحدس ومبادهة بطل الشطرنج السوفييتي الجديد غاري كاسباروف.

ففي مجال القوات النووية المتوسطة المدى (INF)* شق غورباتشوف طريقه باتجاه القبول النهائي بما يسمى خيار الصفر ــ إزالة نوع كامل من الصواريخ السوفييتية مقابل انسحاب وتدمير الصواريخ الأمريكية المنتشرة في أوروبا منذ عام ١٩٨٣. كان ريغان قد اقترح هو نفسه خيار الصفر في عام ١٩٨١ وهنأ نفسه عندما كان ذلك الخيار محور قمة واشنطن في كانون أول عام ١٩٨٧.

ويمكن لغورباتشوف أن يدّعي الانتقام أيضاً، فقد كان منع حلف شمال الأطلسي NATO من إقامة صواريخ باليستية ذات قواعد

* Intermediate Nuclear Forces

أرضية في المنطقة المحيطة بالاتحاد السوفييتي ، إحدى ضرورات السياسة الخارجية والدفاعية السوفييتية لأمد طويل . لقد سمح أسلاف غورباتشوف بوصول الصواريخ الأمريكية إلى أوروبا ، وهو قد أخرجها .

كما أظهر مهارة مشابهة ومثابرة في الحدّ من الأسلحة الاستراتيجية . كان هدف السوفييت اللجوء إلى الإقلال من الأسلحة الهجومية كإغراء للولايات المتحدة كي تقبل بقيود حول مبادرة الدفاع الاستراتيجي (SDI)** . وعندما تسلم غورباتشوف مهامه الرئاسية ، كان لديه طلب ينص على أن تلغي الولايات المتحدة مشروع حرب النجوم بكليته ، بما فيه البحث . الوضع كان غير معقول وغير قابل للمناقشة . مثال نموذجي للتفكير والطرق القديمة . وكان كثير من العلماء والخبراء العسكريين الأمريكيين مرتابين من الإمكانية التقنية لتحقيق حلم الرئيس بإقامة درع فضائي شامل ، لا يُخترق ، ضد الصواريخ القاذفة . ومع ذلك شعر معظمهم بأن على الولايات المتحدة أن تمضي بإقامة التجارب بالتقنيات الدفاعية في حال المضي في مبادرة الدفاع الاستراتيجي ، وفي حال وجود قوة (أو معجزة) يمكن إطلاقها من الآلة ليخفف ، إن لم نقل ليمنع الاعتماد على التدمير المشترك المؤكد كقاعدة للردع . وقد استغل غورباتشوف مناسبة مقابلة آب ١٩٨٥ مع مجلة التايم ليشير إلى تحول هام في موقف السوفييت من حرب النجوم . قال : «إن البحث علم أساسي ... والبحث في علوم الفضاء ماضٍ على قدم وساق وسيستمر » . كان ذلك إقراراً ضمنياً بأن حواراً حول الحدّ من الأسلحة الاستراتيجية يجب أن يسمح ببعض الأبحاث ،

** Strategic Defence Initiative

وتطوير مبادرة الدفاع الاستراتيجي ــ كما كان إقراراً ضمنياً أيضاً بوجود برنامج مماثل لدى الجانب السوفييتي.

لقد أدهش حضور الأمين العام الساحر المحررين والمراسلين الذين أجروا ذلك اللقاء الذي استمر ساعتين.

لقد أدهشتهم قدرته على إيصال الحزم والمودة، والسلطة واليقظة، كما أدهشهم ميله لاستعمال التعابير الدينية. مثال ذلك قوله: «بالتأكيد إن الله في الأعالي لم يضنّ علينا بالحكمة لإيجاد سبل في تطوير علاقاتنا»، كانت تلك الإشارة مثيرة للإستغراب حتى المحررين السوفييت أنفسهم. وعند إعادة طبع المقابلة أعادوا صياغة الجملة بشكل علماني واستبدلوا كلمة الله بالتاريخ. وبعد أقل من سنة في تموز ١٩٨٦ كان أداء غورباتشوف يتميز بالمهارة والثقة، أمام زائر أمريكي آخر هو الرئيس السابق، ريتشارد نيكسون. فقد كتب نيكسون في مذكرة سرية إلى ريغان، يعرض انطباعاته عن غورباتشوف قائلاً: «بخلاف خروتشوف، ليس لديه عقدة الدُونية، إنه واثق من نفسه بدرجة لا متناهية، متحكم متين. إنه بصلابة بريجنيف ولكنه أفضل ثقافة. وأكثر حذقاً وأكثر مرونة... كان بريجنيف يستعمل ساطور اللحام في مفاوضاته، بينما غورباتشوف يستعمل مشرط التطريز. ولكن تحت القفازات المخملية، هناك دائماً القبضة الفولاذية».

وقد ظهرت هذه المزايا جميعاً بعد ثلاثة أشهر، في تشرين الأول ١٩٨٦ عندما التقى القائد السوفييتي الرئيس ريغان في ريكيافيك. فقد أظهر حذقاً وجرأة مدهشتين، مذهلتين حتى

بمقاييسه هو نفسه. أدهش غورباتشوف الوفد الأمريكي بتقديمه مقترحات حول ما يسمى بالتسوية الكبيرة في الحد من الأسلحة ـــ خيار الصفر في الصواريخ النووية متوسطة المدى، التخفيض الشديد في الصواريخ الاستراتيجية الهجومية، واقتصار حرب النجوم على البحث المخبري. وخلال نهاية أسبوع عاصفة من المناقشات تحقق تقدم ملحوظ في مسألة الأسلحة الهجومية، ولكن سقط الإتفاق النهائي أمام قول ريغان بأن محاولة غورباتشوف كانت تهدف إلى الاجهاز على مبادرة الدفاع الاستراتيجي. وبعد ذلك مباشرة بدأ غورباتشوف بتركيز وضعه بصورة أشد على مبادرة الدفاع الاستراتيجي. وقد نصح بأنه يمكن للجانب السوفييتي أن يلين مطالبه دون تعريض أهدافه ومصالحه للخطر. وقد جاءته النصيحة من العلماء السوفييت، وهم الذين قربهم غورباتشوف إليه، وجعلهم ضمن دائرته الداخلية أكثر من أيٍّ من سابقيه ومن الخبراء السياسيين المهرة من أمثال أناتولي دوبرينين، سفير الاتحاد السوفييتي إلى الولايات المتحدة لوقت طويل، وقد عينه غورباتشوف مسؤول السياسة الخارجية في اللجنة المركزية. وقد لاحظ هؤلاء بأنه يمكن للكونغرس الأمريكي المتشكك أن يفرض قيوداً على مبادرة الدفاع الاستراتيجي إرضاءً للمتطلبات السوفييتية.

في تلك الأثناء أثبت غورباتشوف أنه سيد من يقوم بأكبر خطوات الحسم وبأقل مخاطرة، خطوات تعتبر في المجتمعات الأخرى عادية وحضارية. فقد سمح لعالم الفيزياء الحائز على جائزة نوبل أندريه زاخاروف بالعودة إلى موسكو من منفاه الداخلي، ففاز بذلك بدعم

حذر من رجال الفكر المنشقين بما فيهم زاخاروف نفسه. وتحدث غورباتشوف عن أخطار التسابق السياسي والنووي، عن الحاجة إلى «الكفاية» أكثر من التفوق، وعن أهمية «التعاون» و «الأمن المشترك».

وقد لاقت العبارة الأخيرة استحساناً كبيراً في مسامع الغرب. فقد كان الاتحاد السوفييتي يحدد أمنه، بشكل تقليدي، على حساب أمن الأمم الأخرى. وكان القادة السوفييت يحرصون، بالفعل وبالقول، على إظهار أنه لا يمكن لهم أن يشعروا بالأمن تماماً ما لم يشعر كل الآخرين في العالم بعدم الأمن.

فإذا كان رجال الكرملين توسعيين أو عصابيين، وإذا كان تصرفهم الدولي نابعاً من الخوف أو من خطة كبيرة لغزو العالم ــ هذا موضوع آخر، ولكن النتيجة واحدة. فلم يكن من شيء أكثر هجومية من الدب الروسي في حالة دفاعية. وجاء غورباتشوف يتحدث عن لعبة أخرى. ومع تأكيده على وجوب بعث الحياة في السياسة السوفييتية بـ «تفكير جديد» وضع أول ما وضع تعريف بلده التقليدي للأمن. وقال: إنه لا يمكن للاتحاد السوفييتي أن يكون بحالة أمن حقيقية ما لم تكن بقية الأمم وأولها الولايات المتحدة بحالة أمن. وأوضح أنه في زمن التدمير النووي عندما يعتمد السلام على توازن ثابت للرعب، من الهام جداً أن تتجنب كل من الدول العظمى نشر الأسلحة الذي يبدو وكأنه قصد منه جعل ردع العدو عرضة للضربة الوقائية الأولى.

هذه الكلمات المنمقة المطمئنة كانت ــ كما يقول المشككون

بشكل يثير الارتياب ـــ مماثلة لما قبله الليبراليون الاستراتيجيون الغربيون كحكمة تقليدية على مدى عقود. لهذا السبب غدا «تفكير غورباتشوف الجديد»، جزئياً، موضوع علاقات عامة ناجحاً جداً. ووجدت بعض استطلاعات الرأي الأوروبية في ربيع وصيف ١٩٨٧ أن رجل الكرملين أكثر شعبية من رجل البيت الأبيض.

وقد استطاع غورباتشوف أن يشق طريقه إلى حملة الإنتخابات الرئاسية الأمريكية لعام ١٩٨٨ ـــ ليس كسيد امبراطورية الشر، ولكن كشخصية شيوعية تشبه كندي، شخصية من الأفضل للأمريكيين أن يضاهوها. وقد حاول المعارضون الديمقراطيون بدرجات مختلفة أن يدرجوا تحديات غورباتشوف في حملاتهم.

فقد حرص عضو مجلس الشيوخ ألبرت غور، أثناء جولاته في الجنوب، حيث كان يأمل أن يبرز كابن بارٍ مفضل لولاية تينيسي على القول «نحن بحاجة لجيل جديد قوي من القادة في هذا البلد لنتعامل مع القائد الجديد القوي في الكرملين. أنا الوحيد الذي يمكنه التعامل مع غورباتشوف ـــ الذي يمكن أن يواجهه إذا ما احتاج الأمر، والذي يمكن أن يجلس معه إذا ما كان ذلك ممكناً، والذي يمكن له أن يختبر صدق نواياه عندما تلائم مصالحنا».

حتى أن ظاهرة غورباتشوف امتدت إلى أغرب تطور في السياسة الأمريكية، ذلك العام: مفاجأة غاري هارت التي جاء قبل عيد الميلاد، والتي أعلن فيها أنه ترك فيها عمل القردة، وأنه سيدخ سباق الرئاسة. كان هارت ما يزال يفكر بمحاورة تلفزيونيـــ

في ١ كانون أول من بين المرشحين الآخرين، عندما جاء غورباتشوف إلى واشنطن بعد أسبوع واحد. ونقلاً عن أحد مساعديه قال هارت بأن المرشحين الآخرين ليسوا بمستوى المسؤولية، وأضاف «يمكنني أن أقود هذا البلد. يمكنني التعامل مع هذا الرجل، عليّ أن أحاول».

خلال صيف ١٩٨٧ وخريفه غدا غورباتشوف موضوع قلق وغموض، فالمقاومة التي كثيراً ما أشار إليها هو وأنصاره غدت نشطة. ففي آب ولأسباب لم توضح تماماً أجّل سفره إلى جنوب روسيا في إجازة ومن ثم لم يعد إلى موسكو حسب البرنامج المحدد. وسرت إشاعات وتنبؤات بأن معارضيه كانوا يتحركون ضده.

وبدا الرفاق في المكتب السياسي، المعروفون بتشككهم حول إصلاحات غورباتشوف، فجأة وقد تمتعوا بالجرأة. ونشرت الصحف والمجلات المرتبطة بمنافس غورباتشوف تعليقاتهم هم حول الغلاسنوست (سياسة الانفتاح) وتذمروا بحذر وأبدوا عدم ارتياح ونقداً بدا موجهاً ضد شعارات وسياسات غورباتشوف، بما فيها سياسة الانفتاح نفسها. وتداولت موسكو ومن بعدها الغرب أقاصيص مفادها أن غورباتشوف يعاني من حركة ردّة. وتروي بعض الروايات تفاصيل عن وفود من متمني الخير الذين حثوه على السير ببطء لصالحه وصالح برنامجه.

لم تثبت هذه الأقاويل، كما أنها لم تُنفَ من جهات مسؤولة. بقي الأمين العام ٥٢ يوماً بعيداً عن موسكو. وقيل رسمياً إنه احتاج وقتاً أكثر لينهي كتابه البيريسترويكا (إعادة البناء) الذي نشرته في خريف ١٩٨٧ دار هاربر وراو. ولكن علامات الاضطراب استمرت بعد عودته إلى

موسكو. وكانت الذكرى السبعين للثورة البولشيفية تقترب في أوائل تشرين الثاني. وأعلن غورباتشوف ومؤيدوه سلفاً بأنهم سيستغلون المناسبة ليسرعوا بالإصلاحات واضعين أمامهم أهدافاً طموحة للمستقبل ومتصدين لبعض أبشع حقائق الماضي الستاليني.

ولكن من الواضح أن غورباتشوف عانى من نكسة في إجتماع اللجنة المركزية في تشرين الأول. للسخرية، كانت الحادثة المباشرة هي خطاب بوريس يلتزن مدير فرع موسكو للحزب والذي كان من أقوى حلفاء غورباتشوف، فمثلاً كان (يلتزن) هو الذي سمح للفنانين المنشقين، حتى المتدينين، أن يعرضوا ويبيعوا أعمالهم في سوق مفتوحة كل نهاية أسبوع بشكل غير رسمي، بالرغم من اعتراضات الأوصياء والرقباء على الثقافة الأكثر تشدداً.

وفي اجتماع اللجنة المركزية في تشرين الأول هاجم (يلتزن) بعنف أعداء الإصلاح بما فيهم ايفور ليكاتشوف، والذي كان يعتبر الرجل الثاني في القيادة وأكثر المشككين بمدى إصلاحات غورباتشوف.

وكان هذا الإنفجار محرجاً جداً لغورباتشوف فما كان منه إلا أن ألقى كلمة بالمناسبة، كانت أقل عنفاً في إدانتها الكاسحة للماضي، وأقل رؤية حول المستقبل مما توقعه الكثيرون. وأظهر غورباتشوف بسرعة مهارته السياسية وصلابته. فضحى بيلتزن فوراً وأدانه كمتهور خرق مقاييس السلوك الحزبي. وظهر غورباتشوف أثناء تلك الضجة كمعتدل يقاوم الضغوط من معسكرين: معسكر «المحافظين» الذين قاوموا إصلاحاته ومعسكر «المغامرين» من أمثال يلتزن الذي رغبوا

بقطع شوط بعيد وبسرعة. وبعد ذلك بفترة بسيطة أُدخل يلتسن المستشفى. خفضت درجته ولكن، وربما يكون ذلك هاماً، لم يجر التخلص منه كلياً.

في غمرة تلك الأزمة، في ٢٣ تشرين أول وصل جورج شولتز إلى موسكو ليحدد موعداً لزيارة غورباتشوف إلى واشنطن. وكان القائد السوفييتي منشغلاً بمشاكله داخل المكتب السياسي، وربما قلقاً حول التحركات التالية التي ربما كان يخطط لها رفاقه. إضافة إلى ذلك كانت الولايات المتحدة ما زالت تستعيد أنفاسها من الإثنين الأسود، من ذعر البيع الذي أصاب أسواق الأسهم في العالم قبل أربعة أيام فقط. وقد نصح مستشارو غورباتشوف للسياسة الخارجية بزيادة الرهان على القمة، واستغلال قابلية ريغان للسقوط سياسياً في بداية الانهيار. بالتأكيد، أخبر غورباتشوف شولتز بأنه يرغب بتنازلات أميريكية أكثر حول مبادرة الدفاع الإستراتيجي قبل قدومه إلى واشنطن. ولكن إدارة ريغان تشددت وتلاءم غورباتشوف مع ذلك بسرعة مرة ثانية، ووافق على القمة أخيراً.

وقد تثبت وضع غورباتشوف كبطل في وسائل الإعلام، ووجد مرموقاً شعبياً خلال قمة واشنطن. بينما كان في طريقه بين البيت الأبيض والسفارة السوفييتية أوقف موكبه على زاوية الكونيكتيكت أفينو وال ستريت.

ولم يكن أحد أكثر اندهاشاً من مرافقيه من رجال الأمن، وقد تصنعوا مهمة توطيد الأمن وحفظ النظام في محاولة لإخفاء رعبهم، بينما

هو يقفز من سيارته ويتقدم في الجموع ، فصاحوا في جمهور المشاة المأخوذة والمبتهج «دعوا أيديكم خارج جيوبكم» ، في الحقيقة لم يكن من حاجة لمثل هذا الطلب إذ أن جميع الأيدي كانت ممدودة لتلمس الأمين العام ، بينما هو يفيض بالنوايا الطيبة وقد ضمن لنفسه بضع دقائق من أفضل ما تكون لأخبار التليفزيونات المحلية والوطنية .

وقد خصصت محطة إذاعة محلية النشرة الجوية لطقس لطيف مشمس ، وقد تبعها بول سيمون ببرنامجه المبهج (الأرض السعيدة) وقد خصصها لأصدقائنا الروس صديق ابني في الصف الثاني في مدرسة ماريت في شمال غرب واشنطن جلب معه إلى البيت رسومات لطيفة العلامة الولادية وكل شيء عن الرجل القادم من موسكو . وقد نفدت مبيعات عدد كبير من المحلات التجارية في الأسواق من القمصان التي كتب عليها زيارة غورباتشوف ١٩٨٧ .

هذا وحده أكثر من عادي حيث أن المدينة محومة بشكل دائم حول فريقها المحلي وبشكل عام متخمة بزوارها الهامين . زيادة على ذلك ، كان أعضاء فريق ردْ سكينز Redskins قد ثبتوا نقطة في المباريات الإضافية لعصبة كرة القدم الوطنية في كانون الثاني . ومع ذلك ولمدة أيام وقف السكينز Skins انتصارهم لذكرى زيارة القائد الشيوعي الذي كما قال الرئيس ريغان بعد ذلك لا يعرف على الأرجح من هو جو ديماغيو أو وايد ريسيفرريكي ساندرو أو تاكل ديف بتز ، وقد وجد غورباتشوف سريعاً من يكون جو ديماغيو عندما أدرج اسمه في لائحة مدعوي البيت الأبيض إلى العشاء . ووافق مغتبطاً على توقيع كرة بيزبول

للذكرى لنجم الكرة الأمريكي . وكانت تلك إشارة من الضيف أسعدت جمهور الفريق المحلي .

والدليل على الأثر الذي تركته زيارة غورباتشوف يظهر في استطلاع الرأي الذي أجرته اليو اس نيوز أند ورلد ريبورت U.S News & World Report بعد القمة ، إذ أنه يظهر بأن الأمريكيين الذين استفتوا كانوا ما يزالون يعتبرون رئيسهم «أكثر التزاماً بالحرية» ولكنهم يعتقدون بأن الأمين العام أكثر حذقاً منه .

وقد رسخت قمة واشنطن من موقف غورباتشوف في أوروبا الغربية . ففي بريطانيا وجدت صحيفة السنداي تليغراف ومنظمة غالوب أن غورباتشوف يأتي رقم واحد في قائمة من يتمتعون بأكثر المعجبين ، فهو يأتي قبل بوب غيلدوف مغني الروك الايرلندي الشهير ، والذي يقوم بالحملات ضد الجوع ، وقبل تيري ويت مفاوض الكنيسة البريطانية والمحتجز رهينة في لبنان . وقد سارع اثنان من رجال أعمال سان فرانسيسكو لشراء نسختيهما من كتاب البيريسترويكا (إعادة البناء) . لقد خسرا أموالهما محاولين استغلال الإنفجار المفاجيء للهوس في وقت مبكر من ذلك العام مع التشابه بالطول بينهما وبين المقدم أوليفر نورث . وفوراً وبسرعة حوّلا الموجودات إلى دمى غوربي* بتغيير الرؤوس وإضافة بعض الحشوة لهذه الدمى . كما بدّلا لباس البحارة ليس بسراويل فضفاضة وسترات واسعة ، وهي العلامة التجارية للمفوضين ، وإنما ببدلة رجال أعمال تتناسب مع المظهر الجديد للموظفين

---

* غورباتشوف

السوفييت . وهذه الضجة لم ترق لجميع الآذان . وحذر المعلقون بأن معاملة غورباتشوف كشخص مشهور كانت محفوفة بمخاطر التوقعات غير الواقعية ، وانقشاع الأوهام المحتوم ، تضليل النفس المخادعة ، وربما الغش في ابتسامة الرجل الجميلة وأسنانه الفولاذية ، وحاشيته من المتنبهين الحاذقين ، وقد شخّص ستيفن سيستانوفيتش وهو من إداريي الكرملين هذا الحد الأخير كحمى الغلاسنوستالجيا (الانفتاح) كما حذر بعض المحافظين الساخطين من أن رأس المال يسير في نوبة من (الكورباتزمية) .

وخلف واجهة غورباتشوف التي تروق للآخرين كان يوجد فكرة تروق أكثر ، فهو لم يكن مجرد نوع جديد من القادة السوفييت ولكنه بدا يرغب في أن يرأس نوعاً جديداً من الاتحاد السوفييتي . وهذه مسألة لا شك فيها . ولكن كان هناك سؤال كبير جداً حول :

١ ـــ ماذا يريد أن يفعل بالضبط .

٢ ـــ ما إذا كان سينجح .

٣ ـــ ما إذا كان أنصار الفكر الحر في الاتحاد السوفييتي وفي العالم يتمنون له النجاح .

هل هو يرغب ببساطة أن يجعل من الاتحاد السوفييتي أكثر كفاءة كدولة استبدادية ، وبالتالي أكثر قوة كعدوة للقيم الديموقراطية والمصالح الغربية ؟ . أو أنه بمعنى ما ، يريد إقامة علاقات أكثر إنسانية بين النظام والفرد ، وبهذا يضع أساس تطور الاتحاد السوفييتي كدولة وأمة تجد الدول الأخرى اقتسام الأرض معها أكثر سهولة ؟ .

كان هناك سبب لتمنيات الخير. فجوهر إصلاح غورباتشوف الاقتصادي هو اللامركزية ــ تخطيط وإدارة أقل من الأعلى نزولاً، مسؤوليات أكثر للسلطات المحلية ومدراء المؤسسات. وقد عَلَّم كارل ماركس نفسه بأن العلاقات الاقتصادية هي أساس العلاقات السياسية. فاللامركزية الاقتصادية ستترافق بالتأكيد مع خطوات في اللامركزية السياسية، وهذا بدوره قد يعني تخفيف قبضة الدولة الاستبدادية على حياة الفرد. وكان الأمريكيون يعترضون دائماً على العلاقة الظالمة، غالباً العميقة بين الدولة والفرد في الاتحاد السوفييتي. فخلف الجغرافيا السياسية وتصارع مصالح القوى الكبرى، فإن قاعدة عداء الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة، هي ايديولوجية.

وجد الاتحاد السوفييتي في غورباتشوف فجأة قائداً بدا أنه يناقش مدى تطبيق الايديولوجية على الحياة الواقعية بطريقة قد تؤدي مع الوقت إلى تحسين ما كان دائماً الأكثر إساءة حول القوة الكبرى الأخرى.

كان هناك سبب أيضاً وراء القلق والتشكك حول نوايا غورباتشوف، ورغبة رفاقه في تركه يأخذ طريقه.

وحول تجاوب النظام مع الإصلاح بشكل عام، وبخاصة مع مفارقة اللامركزية التي تفرضها السلطات المركزية، في مؤتمره الصحفي الوداعي المتلفز في واشنطن بعد قمة عام ١٩٨٧، قدم غورباتشوف لمحة رصينة حول أسلوب الإدارة في بلده بالنسبة لملايين المشاهدين الأمريكيين.

كانت المقابلة أشبه ببطاقة زائر لإحدى اجتماعات الحزب في موسكو، ولم تكن بالمشهد الجميل. لقد حاضر في مستمعيه من الصحفيين وهو ينضج اعتداداً وكبرياء.

كان ذلك تذكيراً أنه بالرغم من تلك النظرة الجديدة والحديث الجديد وحتى التفكير الجديد كان ما يزال سياسياً سوفييتياً للغاية وليس ديمقراطياً من أتباع جيفرسون.

لقد احتج كثيراً حول اهتمام الصحافة الغربية الماكر بمكائد الكرملين، وهذا ما حاول أن ينفيه. وكلما كان ينفي بشدة عدم وجود معارضة ذات معنى، كان يتضح أكثر أنها كانت موجودة بالفعل.

يجب توقع المعارضة الداخلية بشكل أكثر من عدم وجودها. فترات المصلحين الروس والسوفييت كانت رد فعل، وانقلب الدفء إلى جليد. وبقي وجوب اختبار جوهر كلام غورباتشوف ـــ في أفغانستان، نيكارغوا، الخليج العربي، جنوب شرق آسيا وأوروبا. أفكاره المتنورة (والتي ما زالت ثانوية كثيراً) حول الكفاية والأمن المشترك، ما تزال بحاجة لترجمة إلى اتفاقات تحديد السلاح التي ستقوّي السلام النووي.

تَعَوَّد غروميكو أن يقول هناك فرق كبير بين القول والفعل. ولكن في بلد يرسل فيه الإنسان إلى كولاك Gulag لأنه قال شيئاً خاطئاً، الكلمات هي الأفعال. ففي ديكتاتورية مغلقة ضيقة محافظة تكون شعارات غورباتشوف حول: الانفتاح، وإعادة البناء، والديمقراطية والتفكير الجديد والأمن المشترك إما مدعاة للسخرية بشكل خاص أو هامة بشكل يدعو للذهول.

وهي أيضاً مثيرة للفوضى في الأقطار القريبة من بلده. فقد بدت شعبية غورباتشوف في أوروبا الشرقية وكأنها تحولت إلى نتيجة عكسية إزاء الأنظمة التي تدور في فلك الاتحاد السوفييتي في المنطقة، وبالتالي ضد السيطرة السوفييتية.

ففي عام ١٩٨٧ أصبح غورباتشوف بطلاً شعبياً في تشيكوسلوفاكيا، والتلويح بصور أصبح طريقة احتجاج المواطنين في بلد حزين مهزوم ليعبروا عن استيائهم ضد النظام الذي فرضه الاتحاد نفسه بالدبابات عام ١٩٦٨. صورة غير عادية للعام ١٩٨٧ برزت في حزيران عند جدار برلين حيث وقفت مجموعة من الشباب الألماني الشرقي على أمل سماع موسيقى الروك من الجانب الآخر عندما جاءت قوة من الشرطة المسلحة لتفريقهم. فبدأ الشباب بالغناء «غورباتشوف، غورباتشوف»، في الحقيقة كانوا يستحضرون تفكير غورباتشوف الجديد لتلطيف وحشية النظام القديم. ولكن هذا التكتيك لم ينفع، فقد فرقت الشرطة الحشد بقسوة.

ولكن ذلك لم يكن بشيراً بالخير لا لمواطني الكتلة السوفييتية ذوي النفوس المتطلعة للحرية ولا لغورباتشوف نفسه. لقد تبين أن القوة السوفييتة غالباً ما زالت تنبع من براميل البارود والهراوات.

لطالما استمتع الماركسيون بإظهار «التناقضات» في الأنظمة السياسية الأخرى. الآن يجبرهم غورباتشوف على مواجهة تناقضات موجعة في أنفسهم، ما إذا كان سيحل هذه التناقضات، وكيف ستكون طريقة الحل، هذا سؤال من أهم أسئلة هذا العقد، وربما

الحقبة. وبالنسبة للاتحاد السوفييتي ربما تكون حقبة غورباتشوف بالفعل. وللإجابة على هذه الأسئلة علينا أن ننتظر ونراقب ونصوغ تفكيرنا الجديد للتعامل مع هذا الرجل الجديد في الكرملين. وهناك سؤال آخر ربما ـ مع البحث الصعب ـ يعطينا إجابات فورية: من هو هذا الرجل؟

من أين جاء؟.

ما هي جذور التصميم على صنع التاريخ في سيرته الذاتية؟

هذه هي التساؤلات التي طرحناها، وحاولنا الإجابة عليها في عدد رجل العام موضوع الغلاف. وهذه هي الأسئلة التي نحاول الآن أن نجيب عليها في هذا الكتاب بإسهاب أكثر، وعمق أكبر ونأمل بنجاح مماثل.

ستروب تالبوت

الفصـــل الأول

نشـأتـه

تستقر قرية بريفولنوي Privolnoye بهدوء وسط أراض سهبية متعرجة في إقليم ستافروبول Stavropol جنوب روسيا. وهي اليوم قرية زراعية صغيرة يعمل أهلها بنشاط ويقارب عدد سكانها ثلاثة آلاف نسمة وهي مركز المزرعـة الجماعيـة سفيردلـوف Sverdlov بمنطقـة كراسنوجفارديسكـي Krasnogvardeisky، وتتوزع منازل القرية على أرض زراعية خصبة، وتمتد لأبعد مدى تستطيع العين رؤيته. وفي الأيام القليلة التي تترافق مع آخر الهطولات يبدو المنظر مزيجاً من الألوان البهيجة: مساحات متموجة من الأرض السوداء الخصبة، ومروج من الأرض البور بعشبها المسفوع والجاف، وحقول رصعت بأقسومات خضراء زمردية من القمح الشتوي. وتأتي فصول

الشتاء صعبة هنا ولكنها ليست قاسية كما هي الحال في مناطق أخرى من الجمهورية الروسية. وبحلول شهر آذار من كل عام تبدأ الرياح بحمل لمحات دافئة في أول هبوبها على بريفولنوي. وفي صفاء هذه القرية الصغيرة الريفية الهادئة: كان مولد ميخائيل غورباتشوف Mikhail Gorbachev يوم ٢ آذار ١٩٣١.

وبحسب المعايير السوفييتية، تعتبر بريفولنوي من القرى الحديثة في هذه الأيام. فلا نجد هنا شوارع جديدة بمحلات تجارية مزخرفة، وكنائس ذات قباب تنعكس أشعة الشمس فيها بعيداً عن رقائقها الذهبية، بل صف من الحوانيت مع سوق مركزية، وقصر للثقافة مرفوع على أعمدة تحيط جميعها بالشعار السوفييتي المقدس: نصب تذكاري للحرب مع شعلته المتقدة بشكل دائم، والألواح الحجرية التي نقشت عليها أسماء الشهداء. وبين هذه الأسماء، سبعة من أقارب الزعيم السوفييتي. ويقع منزل عائلة غورباتشوف في شارع جانبي على مسافة قصيرة من مركز القرية. وقد بقي الأجانب والصحفيون حتى الآن في منأى عن المنزل وهم في شك وحيرة من أمرهم. وربما كان ذلك لاستمرار تشجيع الإعجاب الذي يقارب العبادة بشخص غورباتشوف وبغية المحافظة على التقليد السوفييتي في الإفراط بالسرية فيما يتعلق بالأرومة الشخصية لقادة البلاد. وقد بني منزل غورباتشوف بالآجر من طابق واحد، ولا يمكن تمييزه عن حوله من البيوت المجاورة، وهو مؤلف من ٣ غرف ومطبخ صغير، وتحيط بالمنزل قطعة أرض محمية كحديقة له، وهي ارتداد لجدار خارجي لتوفير الهواء والنور، ومسيجة

بعيداً عن الطريق . أما والدة غورباتشوف ماريا بانتيليفنا Maria Panteleyevna وهي في أواخر السبعينيات من عمرها ، فكانت لا تزال تعيش هناك عام ١٩٨٨ على راتبها التقاعدي الشهري البالغ ٣٦ روبلاً (٦٠ دولاراً) وهي تعتني بقطعة أرض خاصة بها ، وتربي بقرة ودجاجات .

إن مظهر الثبات ، في هذا القسم من مناطق إنتاج القمح بكثرة في الاتحاد السوفييتي ، غير طبيعي ، فلم تنشأ القرية إلا في أواخر القرن الثامن عشر ، حين بدأت الامبراطورية الروسية المتنامية بالاندفاع جنوب القوقاز ، وقياساً على مجمل التاريخ الروسي ، كانت المنطقة بين البحرين الأسود وقزوين تخضع لحكام مختلفين ، وتحارب غالباً الفئات العرقية ، حيث لا يدين أحد منهم بالولاء للقيصر سواء في موسكو أو بطرسبرغ . وكانت القوة الروسية العسكرية المتنامية في عهد كاترين الكبرى (١٧٦٢ــ ١٧٩٦) موجهة ضد كل العثمانيين الأتراك في منطقة (القرم) والقبائل الإسلامية المولعة بالحرب في منطقة القوقاز . وقد أُنشئت مدينة ستافروبول عام ١٧٧٧ بواسطة باني القرى المفضل عند كاترين Catherine (جريجوري بوتيمكين Grigori Potemkin) وهي التي أخذت منها ستافروبول كري اسمها . وقد أُقيمت قرى تبعث على الازدراء ، ليس لها وجود فعلي ، على محور الطريق الذي تسلكه كاترين خلال جولتها الفخمة على الحدود التي فتحت مجدداً في الجنوب . نظمها بوتيمكن لتبدو مستوطنات جذابة بالاعتماد على واجهات مدهونة على شكل منازل ــ ومن هنا جاءت التسمية (قرية بوتيمكين) .

وكانت ستافروبول التي تعني مدينة الصليب باللغة اليونانية ،ةمن البداية معدة من قبل كاترين لتكون قلعة للقوة الروسية، موجهة ضد العثمانيين، وموضعاً متقدماً للدين المسيحي في منطقة كانت تدار سابقاً من قبل المسلمين. وتضم المنطقة حوالي ٣ ملايين نسمة وتنشطر إلى مجموعات عرقية وقومية منفصلة من الروس المسيطرين بأعدادهم، والأوكرانيين واليهود والروس البيض ورجال القبائل الجبلية الأشداء مثل الأوستينيين والكاباردنيين. وهكذا بنيت ستافروبول في أقصى منطقة جنوب الجمهورية السوفييتية الاشتراكية الفيدرالية الروسية، وهي إحدى ١٥ جمهورية تشكل الاتحاد السوفييتي، وتعتبر مقاطعة، أكثر منها إقليماً وهو اصطلاح إداري أكثر شيوعاً لأن منطقة كاراشي شركس Karachay—Cherkess ذات الإستقلال الذاتي تقع ضمن حدودها. ويتحمس السوفييت، على الأقل للمحافظة على مظاهر الإحترام للأقليات العرقية، وبرهنوا على الالتزام بسياسة ثابتة المبدأ حيثما أمكن، وتم دمج مجموعات عرقية متميزة ضمن حدود إدارية خاصة بها. ولا تزال في منطقة القوقاز توترات قومية وعرقية وقد كانت كامنة، واندلعت بقوة خلال فترة الاحتلال النازي الوجيزة للمنطقة في أثناء الحرب العالمية الثانية.

وفيما يتعلق بالعرقيين الروس، كان لكل إقليم في الماضي شيء ما من علامات حدودية شبيهة بتلك التي كانت موجودة في الغرب الأمريكي. وقد تم إبراز القوقازيين بشكل جلي من خلال كتابات الأدباء الخياليين الروس في القرن التاسع عشر. والأهم من ذلك، فإن الأغنياء الكبار مالكي الحقول

السوداء، استقدموا موجة بعد أخرى من المهاجرين الروس من إقليمي الدون والفولغا ومن المناطق الأكثر اكتظاظاً بالسكان في أوروبا ووسط روسيا. وقد ظهر الفلاحون الروس، الذين بدؤوا بالاستقرار هناك منذ أواخر القرن الثامن عشر وما بعده، مختلفين عن مواطنيهم في بقية أنحاء البلاد، أي أنهم لم يكونوا أقناناً. وقد اتحدت مجموعات القوازق الأوائل التي تحركت نحو الجنوب خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر مع موجة أخرى من المهاجرين، فلاحين روس كانوا قد حرروا من ممتلكات النبلاء بناء على قانون الإعتاق لعام ١٨٦١ (مع تزامن تاريخي استثنائي، قبل عامين فقط من تحرير العبيد في الولايات المتحدة). وفي الواقع فإن بريفولنوي تعني «حر» وهذه التسمية هي اعتراف بالفرق بين أسلاف غورباتشوف والأقنان عبيد الأرض الذين سكنوا الممتلكات الكبرى في بقية أنحاء البلاد.

وكان أسلاف غورباتشوف من سلالة الفلاحين الصغار المحبين للمغامرة، المنتمين للفلاحين الروس الذين كانوا مهيئين لتجربة حظوظهم على الأرض الخصبة، مع أنهم مهددون بحدوث الجفاف بشكل مستمر. وتبعد بريفولنوي حوالي مائة ميل عن مدينة ستافروبول وتقع عند الحدود الجنوبية الغربية للمنطقة، كما تبعد ألف ميل عن موسكو. وقد ولد الجد والجدة اللذان كان لهما الدور الأساسي في تربية غورباتشوف خلال الحرب العالمية الثانية، في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، بعد تحرير العبيد، ولكن قبل الإصلاحات الزراعية القيصرية المفاجئة التي قادها رئيس الوزراء مستوليبين عام ١٩٠٦. وقد قدمت هذه الإصلاحات الكثير من أجل تحول

الريف الروسي، أكثر مما فعلته عملية الإعتاق للأقنان في عام ١٨٦١، لأنها أجازت الإستقلال بملكية الأرض من قبل الفلاحين ضمن تجمعات قروية، بالإضافة إلى دمج مساحات من الأرض المشاع السابقة المملوكة، وانتقلت من شخص لآخر. وقد أدى هذا إلى نشوء طبقة مستقلة من المزارعين حيث نجح بعض أعضائها بفضل مقدرتهم وكدهم وأصبحوا أغنياء.

وقبل عام ١٩١٤ اندلعت الحرب العالمية الأولى. استمر التطور الاجتماعي والاقتصادي خلال السنوات الأخيرة من حكم القياصرة، وكان الإنتاج الروسي للقمح وافراً بحيث قامت البلاد بتصدير كميات كبيرة منه لدول أوروبا الغربية. وبعد تشجيع أشغال المقاولات في الزراعة نتج اقتصاد محتوم لا يمكن اجتنابه عمّ الريف بأجمعه. وقد أصبح بعض الفلاحين معدمين، بينما ازدهرت أحوال آخرين، وأصبحوا ذوي نفوذ، وإن الناجحين منهم، ربما شكلوا ٥٪ من عدد الفلاحين البالغ ٩٦٪ والذين بدورهم كانوا ملاكاً صغاراً مستقلين، ووصفوا من قبل ستالين فيما بعد كفلاحين أغنياء، وكانوا أهدافاً لتصرفات ستالين التي يحتمل أن تكون الأشد قسوة وهو يطبق المكننة في المجتمع بشكل جذري خلال الثلاثينيات.

ولمنطقة كراسنوجفارديسكي التابعة لـ ستافروبول كري، التي تقع فيها بريفولنوي تاريخ مميز بالعنف خلال الربع الأول من القرن العشرين. وإن تسمية «الحرس الأحمر» لدليل على عنف الصراع خلال الحرب الأهلية الروسية من ١٩١٨ ـــ ١٩٢١ التي عمت المنطقة. وقد قاتلت جيوش

الشيوعيين الحمر وخصومهم البيض المعارضين لحكم البلاشفة بضراوة للسيطرة على المنطقة التي تبلغ مساحتها الكاملة ٣١ ألف ميل مربع، وهي تعادل تقريباً مساحة ولاية جنوب كارولينا.

وأخيراً بحلول شهر شباط من عام ١٩٢٠ قامت القوات الحمراء بإعادة الاستيلاء على كامل المنطقة.

ولا يعرف سوى القليل عن الدور الذي لعبه أجداد غورباتشوف في هذه الأحداث العظيمة. ولكن، بعد التدقيق بالظروف التي عاشوا بها وأحداث اليوم، يمكن رسم صورة تامة ومعقولة للعالم الذي ولد فيه ميخائيل، ومن المؤكد أن أسرة غورباتشوف قد أيدت جماعة البلاشفة. ولم يكتف جده أندريه Andrei بالنضال في صفوف الحزب، بل كان له دور قيادي مع الحكومة في تنظيم الزراعة السوفييتية بأواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات من هذا القرن. وقد انتخب رئيساً للمزرعة الجماعية لإنتاج القمح قبل مولد غورباتشوف تماماً. وكان والد غورباتشوف المسمى سيرجي اندريفتش Sergei Andreyevich المولود عام ١٩٠٩، صغيراً جداً على فهم الاضطرابات التي رافقت الحرب الأهلية، ولكنه أصبح أثناء شبابه داعماً للتنظيم الجديد للأمور خلال انقضاض ستالين المروع على الريف الروسي من عام ١٩٢٩ حتى ١٩٣١.

إن إحدى أعظم السمات الاستثنائية لصعود غورباتشوف إلى السلطة، وهي حادثة رتبت زمنياً بشكل طبيعي، وهي أنه أول قائد سوفييتي

خلال سبعة عقود من حكم الحزب ولد بعد ثورة البلاشفة عام ١٩١٧ . علاوة على ذلك ، كانت فترة ميلاد غورباتشوف الفترة الأكثر قسوة وعنفاً من كافة المراحل التي مرت بها التجربة السوفييتية . وقد بدا الاتحاد السوفييتي قبل أواخر العشرينيات من هذا القرن متوازناً للتحرك في عدة اتجاهات محتملة ، وكان بالإمكان تبني سياسة اقتصادية معتدلة نسبياً . والسياسة الاجتماعية الخاصة بفترة تنفيذ الخطة الاقتصادية الجديدة ، التي دشنت من قبل لينين في عام ١٩٢١ ، نفذت أساساً لانتشال البلاد من هاوية الانهيار الكامل . ولنفس السبب كان بإمكان الاتحاد السوفييتي إيجاد حل وسط بين رغبة الحزب الشيوعي في توسيع التجربة الاجتماعية لتشمل كافة نواحي المجتمع بما في ذلك طبقة الفلاحين العنيدة المقاومة للتغيير ـــ والمعارضة في البلاد بأكملها لتصبح أكثر خضوعاً داخل مجاهل التنظيم الاجتماعي المستقبلي . ويمكن التصور أنه بتوفر المراجعة الصحيحة والاتزان ، بدل تولي السلطة السياسية الكاملة ، كان يمكن للحزب الشيوعي السوفييتي أن يتطور نحو شيء ما أقل رعباً مما آل إليه واقع الحال .

وقد ضاعت بارقة الأمل مع بداية الثلاثينيات . ففي ما مضى قام ستالين يدفع بلاده على طريق التنظيم الجماعي ، ولكنه قادها نحو طغيان الحزب الذي احتاج إليه لتقوية الحزب نفسه . وقد قدر لطريق التطور خلال عقود أن يكون محكوماً بواسطة الإمكانيات وقيود الإكراه الداخلي ، وقد كانت ولادة غورباتشوف في تلك الفترة التي ظهر فيها الإرهاب الستاليني بحالة لا يمكن تجنبها . وإن القرار الملتوي لجعل المزارع جماعية في كافة أنحاء

البلاد ، والذي وضع عام ١٩٢٩ ثم نفذ خلال أوائل الثلاثينيات ، فرض على المجتمع السوفييتي أن يرى نفسه في الأصل كامتداد للخيال السياسي لفرد مطلق ، هو جوزيف ستالين Joseph Stalin . وعندما توفي ستالين لم يتبع أي من خلفائه الخطوات التي سار عليها . لكن الحزب حاول انتحال شعارات الطريقة الخاصة بالحكم عند ستالين . كجو النجاح المميز ، والعلم بكل شيء ، وعداء لا سبيل إلى تغييره للنقد والمعارضة .

وفي وجوه عديدة ، نرى أن الاتحاد السوفييتي في يومنا هذا ، هو إلى حد أبعد الوريث لمأساة تاريخية مثلت يوم مولد غورباتشوف أكثر منها تابعة لنوبة القوة الأولى للبلاشفة في عام ١٩١٧ .

وقد بدلت الفترة الزمنية من ١٩٢٩ إلى ١٩٣١ ، الشخصية الدولية للاتحاد السوفييتي . وظهرت البلاد من خلال نشاط ستالين بمجال الاستثمارات في الصناعة الثقيلة ، مع نهاية عقد الثلاثينيات كأعظم قوة صناعية في أوروبا ، والثانية في العالم من حيث التوسع الصناعي ، بعد الولايات المتحدة . وقد كان الإنتاج الصناعي عام ١٩٣١ أضخم بنسبة ٢١٪ من ذلك الذي نتج في العام السابق . وهذه قفزة اقتصادية يمكن أن لا يجاريه فيها أي بلد ، منذ الثورة الصناعية بانكلترا في أواخر القرن الثامن عشر ، وكما أكد غورباتشوف نفسه فإن قوى الاقتصاد السوفييتي عام ١٩٤١ أوضحت الفرق بين الهزيمة والبقاء عندما تدفقت جيوش هتلر Hitler's المدربة جيداً عبر حدود البلاد ذات الدفاعات الضعيفة . وعلى الرغم

من قدرة الآلة الحربية النازية، فإن الإنتاج السوفييتي من الدبابات عام ١٩٤١ تجاوز ما انتجته ألمانيا النازية. وكان من المشكوك فيه أن يتمكن السوفييت من مقاومة الهجوم الألماني الضاري في عملية (بربروسا Barbarossa) وهو الاسم الذي رمز به هتلر لبدء غزو الاتحاد السوفييتي — بغياب القدرة الصناعية المتنامية التي بنيت خلال العقد الحافل الذي سبق اندلاع الحرب.

وكان إسدال الستار على عملية التنظيم الشعبي تعزيزاً تدريجياً لسلطة ستالين على الجهاز الحزبي. فقبل مولد غورباتشوف بعامين كانت تدور أول القضايا على مسرح الأحداث في موسكو. فستالين الذي خطط لاحتكار السلطة بيده بعد موت لينين Lenin's عام ١٩٢٤، حكم البلاد حتى عام ١٩٢٧ كعضو ضمن لجنة ثلاثية انتقالية وغير مستقرة ضمت معه ليون تروتسكي Leon Trotsky ونيكولاي بوخارين Nikolai Bukharin. وعلى مايبدو أن ستالين لم يكن في ذلك الوقت قد اختار سياسة محددة للتنمية الوطنية، ولعب دور الجناح اليساري بنجاح داخل الحزب الشيوعي الذي تطلب تنظيماً سريعاً وقسرياً ضد الجناح اليمني الذي دعم استمرار معظم الاتجاهات في الاقتصاد القومي السياسي التي تبناها لينين. ولكن في عام ١٩٢٧ حدث تحول سياسي أساسي في الاتحاد السوفييتي، فوضع ستالين منافسه تروتسكي خارج المعركة مجبراً ذلك الرجل اللامع والجلف إلى الذهاب للمنفى بلا رجعة. وقد غير أسلوبه بعد عامين بتأثيره على الجناح اليساري في الحزب بغية التخلص من بوخارين الذي كان يمثل اتجاهاً يدعو

إلى تنفيذ التحول الاقتصادي داخل البلاد بشكل متدرج، إلى أبعد مدى، بالرغم من تحوله إلى إنسان ماركسي لينيني مثل ستالين.

وقد نفذت المناورات السياسية في جو من تزايد الحملات على المنشقين في الداخل، وذلك ما تمّ داخل المحاكم الرهيبة التي سيطرت في الاتحاد السوفييتي خلال حملات التطهير الكبرى في الفترة من ١٩٣٦ حتى ١٩٣٨. وفي اليوم الذي ولد فيه غورباتشوف كانت جريدة البرافدا **Pravda** تناقش التطورات الأخيرة ضمن حلقات متتالية من قضايا المناشفة ــ وهم الشيوعيون الذين لم يؤيدوا لينين بترتيباته الثورية قبل وبعد ثورة اكتوبر ــ لأنهم احتجوا (دمروا آلات المصانع وعطلوا الإنتاج). وكما كانت عليه الحالة تقريباً بكافة أحداث القضايا في الثلاثينيات، يأتي الدليل ضد المتهمين إما مختلفاً أو ينزع من خلال التعذيب، وفي بعض الحالات من كليهما. وفي نيسان من عام ١٩٢٩ وخلال المؤتمر السادس عشر للحزب الشيوعي، عرض قرار يدعو إلى التخلص الكلي من الأعضاء غير المرغوب بهم في الحزب. وفي نفس الشهر حدث عدوان على الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، فدمرت مئات من هذه الكنائس، وأزيحت أجراس تلك التي بقيت لكي لا تزعج أصواتها العمال، وفي ذكرى ميلاد ستالين الخمسين في ٢١ كانون الأول ظهر في الصحافة السوفييتية افتتاحيات لرؤوساء تحرير صحف متملقين أذلاء يعلنون فيها من خلال مقالات لهم، أن ستالين كان دوقاً ومنذ ١٩١٧ (القائد العظيم) لكامل الشعب السوفييتي.

وقد أعلن ستالين في تشرين الثاني، إمكانية حدوث ثورة ثانية في

البلاد بغية الإنتهاء من المهام الرئيسية التي لم يتم إنجازها بعد بواسطة انتفاضة عام ١٩١٧. وقد أعلن ستالين مناقضاً موقفه السابق من معارضته لتغيرات اقتصادية مفاجئة في الريف، بأن الاتحاد السوفييتي وقد تعافى من الآثار التي سببتها الحرب الأهلية ومن العجز الذي تبع ذلك، ينبغي عليه تنفيذ اندفاع جديد في اتجاه الاشتراكية، كما أعلن ستالين عندما تكلم في شهر كانون الأول خلال مؤتمر حول الشؤون الزراعية، أن الاقتصاد القومي السياسي الذي أُدخل من قبل لينين عام ١٩٢١ قد انتهى. وتساءل بتلكف:

ماذا يعني هذا؟

ثم أجاب: «هذا يعني أننا بعد تقييد النزاعات الاستثمارية للمزارعين الأغنياء تحولنا إلى سياسة تقضي بإهمالهم كطبقة».

وقد تحولت (ثورة ستالين الجديدة) إلى خطة خمسية طموحة للتصنيع يمكن تحويلها بواسطة مبالغ تترتب على الفلاحين السوفييت. وتلك الفئة الناقمة في مجملها ضد البلاشفة وأصبحت حتى الآن غير متجاوبة مع وجهة نظر ستالين في المساواة والمجتمع ذي الصناعات الثقيلة. وقد كان المزارعون الأغنياء الروس يعارضون بعنف شديد أية مقترحات لتغيير علاقات الملكية الريفية. وأصبحوا أغنياء على أثر إصلاحات (ستوليبين) التي حدثت قبل الحرب العالمية الأولى. وشكل المزارعون الأغنياء عائقاً سياسياً رئيساً في سبيل بسط سيطرة السوفييت الكاملة على الريف.

ولفرض التنظيم على المجتمع في الاتحاد السوفييتي بين عام ١٩٢٩ و ١٩٣١ قامت قوات الجيش الأحمر وقوات الحدود التابعة للأمن الداخلي بتطويق الفلاحين، وصادروا مواشيهم، ونظموهم ضمن مزارع جماعية (كولخوزات) شُكلت فوراً. وقد تم اعتقال الملايين من الفلاحين وأُرسلوا للمعسكرات. وقُتل ملايين آخرون أو ماتوا جوعاً.

وفي حالات لا يمكن حصرها كان الحد الفاصل بين الأغنياء والفلاحين العاديين الذين صدف أنهم يملكون مواشي، واهياً جداً: فالفلاح الغني يمكن اعتباره أي فلاح لديه بقرتان وبيت جيد. وعدد آخر لمن الفلاحين الذين لا ينطبق عليهم التعريف الاقتصادي العشوائي للفلاح الغني، تم مع ذلك تطويقهم لأنهم أُعتبروا غير مؤيدين لما كان يحدث حولهم. وقد استهدفت جماعات كاملة لكي تصادر أملاكها وتسجن. وبحلول عام ١٩٣٢ وجد / ٨٠٠ / ألف فلاح كانوا محتجزين في أماكن الترحيل بانتظار نقلهم إلى معسكرات الاعتقال أو إلى الإعدام. وهؤلاء الذين ذهبوا إلى الاعتقال يعدون فعلياً، عدة ملايين.

وقد مُسح من الوجود العديد من الفلاحين أثناء محاولات يائسة، وهم يقاومون وحِدات الجيش الأحمر وقوات الحدود التابعة للأمن الداخلي المسلحة جيداً. كما احتج ملايين منهم ضد مصادرة أملاكهم بإقدامهم على ذبح مواشيهم، مفضلين ذلك على السماح بوقوعها في أيدي الشيوعيين. وكنتيجة لذلك فقد انخفض الإنتاج من الغذاء بشكل خطير داخل الاتحاد

السوفييتي في أوائل الثلاثينيات، وكان عدد الخيول في الاتحاد السوفييتي عام ١٩٢٨ يُقدَّر بـ ٣٣٫٥ مليون حصان وبحلول عام ١٩٣٢ انخفض العدد وأصبح ١٩٫٦ مليوناً فقط. وخلال نفس الفترة تناقص عدد الخنازير من ٢٦ مليوناً إلى ١١٫٦ مليوناً، وأما الغنم والماعز فمن ١٤٦ مليوناً إلى ٥٢٫١ مليوناً، والماشية من ٧٠٫٥ إلى ٤٠٫٧ مليوناً، وقد صرح ستالين في خطاب له عام ١٩٤٥ أن حوالي ١٠ ملايين من المزارعين الأغنياء قد أبيدوا ولم يتضح بدقة، ماذا عنى ستالين بذلك. ويعتقد بعض العلماء الغربيين أن إجمالي المزارعين الأغنياء الذين قتلوا كان أقل من ذلك بكثير. ومن المحتمل أن ٥ إلى ٧ ملايين نسمة قد لقوا حتفهم في مجاعات سببها الإنسان في جنوب روسيا، وقد حدثت بعد التنظيم الزراعي، وأن مستوى المعيشة في الاتحاد السوفييتي قد انخفض بمعدل الثلث بين ١٩٢٨ و١٩٣٣.

ففي أوائل عام ١٩٣١ وبشمال القوقاز، في المكان والزمان حيث ولد غورباتشوف، كانت تتم عمليات القتل، وإلحاق الأذى المتعمد بالناس بشكل عنيف، وقد سيطرت الدولة على إجمالي ٨٦٫٤٪ من الممتلكات الريفية في المنطقة ــ التي كانت تسمى شمال القوقاز حتى أوائل عام ١٩٣٠ حيث أصبحت تُعرف كـ ستافروبول كري **Stavropol—Krai** ونظمتها ضمن مزارع جماعية. وقد بلغ عدد القتلى حتى عام ١٩٣٠ من الفلاحين الأغنياء والفلاحين الآخرين الذين قاوموا المصادرة لممتلكاتهم ومواشيهم وإنتاجهم عشرات الآلاف. وهناك مؤيدون من الكتّاب السوفييت

البارزين لستالين، مثل الكاتب مكسيم غوركي Maxim Gorky الذي سار مع التيار وقال: «نعارض كافة الأشياء التي عمّرت أكثر مما ينبغي ومرَّ عليها الزمن». وكتب بالازفيستيا Izvestia الجريدة الحكومية في تشرين الثاني من عام ١٩٣٠ «وهذا يعطينا الحق ثانية أن نعتبر أنفسنا في حالة من الحرب الأهلية، والنتيجة الطبيعية التي تتبع ذلك، هي أنه في حال عدم استسلام العدو، يجب تدميره».

ولكن العدو الذي قصده غوركي بالفعل هو أي فلاح لم يوافق على الانتظام ضمن المزارع الجماعية، ولم يُعط هؤلاء الفلاحون الفرصة حتى يُعلنوا استسلامهم، وقد قرر ستالين تصفية الفلاحين الأغنياء، مفضلاً ذلك على إجبارهم للدخول بالتنظيم، لذلك دُمروا. وبالطبع قاتل بعض الفلاحين بشكل فعال، فقضوا على عدد قليل من أعضاء الحزب الشيوعي وبعض المتعاطفين معهم، طالما تيسر لهم ذلك. لكن مثل هذه الأعمال اليائسة في المقاومة لم تؤدِ إلا لزيادة شهية ستالين للقيام بإجراءات تأديبية أشد قسوة. وقد أعلن فرينوفسكي Frinovsky قائد قوات الحدود التابعة للأمن الداخلي في مقابلة له بالمكتب السياسي في موسكو عام ١٩٣٠ بأن أنهار شمال القوقاز كانت تحمل آلاف الجثث نحو البحر.

وكانت المقاومة شاملة، وكان القتل الذي تلاها في منطقة الحدود حيث ولد غورباتشوف مروعاً، بشكل خاص، ربما كان ذلك بسبب عراقة تقاليد الحرية الفلاحية في المنطقة. وفي تشرين الأول من عام ١٩٣٢، أوجد

ستالين لجنة خاصة يشرف عليها واحد من مساعديه الكبار، وهو عضو المكتب السياسي لازار كاجانوفيتش Lazar Kaganovich لكي تتعامل مع الاضطرابات في شمال القوقاز. وضمت اللجنة أنستاس ميكويان Anastas Mikoyan صاحب الحياة السياسة الطويلة والذي أصبح موظف التجارة الخارجية المشهور في موسكو، وكذلك جينرتش ياجودا Genrickh Yagoda الذي كان عليه قيادة قوات الحدود التابعة للأمن الداخلي، وميخائيل ساسلوف Mikhail Suslov الذي تدرج ليصبح منظّر الكرملين الرئيسي، وفيما بعد الناصح المخلص لغورباتشوف.

وقد أُعطيت لجنة كاجانوفيش سلطات استثنائية للتفتيش، وتوقيف الفلاحين. ولم ترحم هؤلاء الذين تشك في معارضتهم للتنظيم الجماعي. ويسجل زوريس مدفيديف Zhores Medvedev كاتب سيرة غورباتشوف وهو مواطن سوفييتي سابق وله ارتباطات عائلية وطيدة في منطقة ستافروبول، يقول: « غالباً ما فقدت كل العائلات أقارب لها وأصدقاء أو جيراناً خلال هذه الفترة ولم تُستثنَ بريفولنوي من ذلك. وفي أوائل عام ١٩٣٠ ساد الرعب وحالة غياب القانون الحياة الريفية في شمال القوقاز.

وكان رئيس الحزب في شمال القوقاز أثناء ولادة غورباتشوف هو بوريس شيبولدايف Boris Sheboldaev الذي طلب في تشرين الثاني من عام ١٩٣٢ توقيف وترحيل كافة سكان القرى بسبب أعمال المقاومة الصادرة عن فلاحي بعض القرى، وأعلن شيبولدايف «أن الفلاحين ذوي الضمائر الحية

الحقيقيين يجب أن يخبرونا عن أوضاع جيرانهم»، وقد كان شيبولدايف نفسه مشمولاً بموجة جديدة من التطهير عام ١٩٣٧ فقُتل رمياً بالرصاص. وما ذُكر يمكن أن يشكل بعض العزاء لعشرات الآلاف من العائلات التي ابتليت في منطقة الحدود. ففي بعض القرى، وبسبب سوء التغذية أو الوقوع على طريق الغارات التي تشنها قوات الحكومة، مات كل الأطفال الذين هم دون سن الثانية. وهناك كاتب سوفييتي اسمه (أ. ب. كوستيرين A.B.Kosterin) طلب رأسه ميدفيديف، زار المنطقة المحيطة بـ بريفولنوي في عامي ١٩٣٣ و ١٩٣٤ عندما كان غورباتشوف طفلاً. وشاهد في كافة الأماكن التي تجول فيها، منازل بنوافذ مخلوعة، وفناءات فارغة، ومعدات زراعية متروكة في الحقول. وكان معدل وفيات الأطفال عالياً بشكل واضح. وكتب كوستيرين: «على الطريق المهجور المؤدي إلى ستافربول، قابلت فلاحاً يحمل حقيبة ظهرية، توقفنا وسلمنا على بعضنا ودخنّا لفافات التبغ، وسألته إلى أين تسافر أيها الرفيق؟».

أجابني الرجل «إلى السجن» فالشرطي في المنطقة لم يتمكن من مرافقته، كما قال لذا كان يرافق نفسه، فمع وجود المجاعة والقمع العنيف في تلك المنطقة يبدو أن السجن والحالة هذه ليس خياراً سيئاً.

ومما لا شك فيه، أن غورباتشوف حتى وهو طفل صغير، يمكن أن يكون قد رأى وسمع العديد من الأمور المخيفة التي كانت تحدث في الريف من حوله، فإذا كان صغيراً جداً ولم يستوعب الحوادث بشكل كامل كما

حدثت فإن القصص حول ماحدث، التي رويت له بهدوء فيما بعد من قبل أقرب الأصدقاء وأعضاء أسرته يمكن أن توضح له الأمر بجلاء. وبعد موت ستالين عام ١٩٥٣ بقليل أسرَّ غورباتشوف لأصدقاء في جامعة موسكو أن أحد الأقارب الحميمين لأسرته، فلاح متوسط، قد أُعتقل بدون وجه حق، ويحتمل أنه قُتل خلال مسيرة التنظيم للمزارع الجماعية، والفلاحون المتوسطون هم الذين يملكون أرضاً خاصة بهم لزراعتها وربما ملكوا بقرة أو اثنتين، ولكن ليس بالقدر الكافي من الأرض لأن يؤجر للفلاحين الآخرين، بحيث يساعدونهم في استثمارها، وقد كانوا محاطين بالملايين من الفلاحين الأغنياء الذين لا يمكن أن نفرقهم عن المتوسطين إلا بأمور قليلة.

ولم يتحدث غورباتشوف عن هذا القريب السيّئ الحظ بشكل مفصل، لكنه احتفظ بمشاعر الحزن إزاء الظلم الذي أُقترف منذ أكثر من ٥٠ عاماً مضت. ففي كلام الأمين العام احتفاءً بالذكرى الـ ٧٠ لثورة اوكتوبر الذي ألقاه في تشرين الثاني ١٩٨٧ وهو يشير إلى معاناة الفلاحين المتوسطين، بنغمة فيها أسى قال غورباتشوف: «بنفس الوقت الذي بدأت فيه تنظيمات المزارع الجماعية، أصبح الفلاحون المتوسطون صامدين وحلفاء للطبقة العاملة يعتمد عليهم، حلفاء على أسس جديدة، وأصبحوا مقتنعين بشكل عملي أن الحياة كانت دائماً تأخذ مساراً نحو الأفضل. وتابع غورباتشوف «ولو كان هناك مراعاة أكثر لشعور هذه الفئة لكان من الممكن عدم وقوع كل هذه التجاوزات التي حدثت عند تنفيذ تنظيمات المزارع الجماعية».

وهناك قضية أكثر أهمية، وهي هل كان عند ستالين مبرر أخلاقي لتنفيذ التصنيع السريع المفروض بالقوة، وتصفية الملايين من المزارعين الأغنياء. وكان غورباتشوف في نفس الكلام صارماً كما كان الحال عندما يتكلم القادة السابقون في الاتحاد السوفييتي، وأن سياسة محاربة الفلاحين الأغنياء كانت صحيحة في الأساس، حتى ولو كانت تفسر دائماً بأنها طبقت على نطاق أوسع، حيث امتدت إلى قطاع كبير من الفلاحين المتوسطين أيضاً. وقد أضاف غورباتشوف بكآبة «هذه هي وقائع التاريخ».

وأما بخصوص الدور الإجمالي للتنظيم في تقوية الاشتراكية بالريف فأكد غورباتشوف «كان التقييم النهائي أنه تحوُّل له أهمية رئيسية» وقد قوي هذا الموقف في كتابه إعادة البناء الذي نشره عام ١٩٨٧، «وكان التنظيم عملاً تاريخياً عظيماً» ويتابع القائد السوفييتي « وهو أعظم تحوُّل اجتماعي هام منذ عام ١٩١٧. نعم، لقد أخذ سبيله إلى الإنجاز بصعوبة، ولم ينجُ من التجاوزات الخطيرة والارتباك في الأساليب والخطوات المتبعة. لكن تقدم بلادنا لمدى أبعد كان يمكن أن يكون مستحيلاً بدونه». ويمكن لبعض العلماء الغربيين أن لا يوافقوا على تلك التأكيدات، ويرى المؤرخان السوفييتيان ميخائيل هلر Mikhail Heller والكساندر نكريتش Alexander Nekrich في كتابهما الذي نشراه عام ١٩٨٦ والمسمى (اليوطوبيا القوية Utopia in Power): «إن تاريخ الاتحاد السوفييتي اللاحق بأكمله يظهر أن التنظيم قد ترك الاقتصاد يعاني من جرح واسع لا يمكن اندماله».

وليس من المحتمل أن يتبرأ غورباتشوف ولا أي قائد سوفييتي آخر في المستقبل القريب من التنظيمات التي سنّها ستالين، بشكل تام، ويشترك الحزب الشيوعي في الحوادث على نطاق واسع لكي يكون قادراً على التعامل معها بسهولة. وسيكون الأمر صعباً على غورباتشوف إذا تنكر للتنظيمات الجماعية، وذلك بسبب وجود أسباب وجيهة. فقد كان جده أندريه وأبوه سيرجي داعمين ممتازين للخطة التي تنفذ على أساسها هذه التنظيمات، كما لعبا دوراً إنتاجياً هاماً بإنشاء الكولخوز في بريفولنوي وأن بقاء غورباتشوف (حياً كصبي صغير في زمن الجوع المفرط) ربما كان عائداً إلى حدٍّ بعيدٍ لمواقف الحكومة السالفة من أسرته. فقد كان سيرجي سائقاً لحصادة دراسة في إحدى محطات الآلات الجرارة، أُنشئت بواسطة ستالين كطريقة للتأكيد على قدرته على إنجاز المشاريع الزراعية ـــ ولممارسة سيطرة سياسية تامة على الفلاحين. وكان كل من أندريه وسيرجي عضواً في الحزب، وبالتالي يدافعان عن سياسة الحزب حول التنظيم الجماعي الذي سرى مفعوله في المناطق الريفية. وفي أوقات نقص المؤن في أنحاء البلاد، كان يمكن للسلطات أن تعمل ما بوسعها لتؤكد أن الفلاحين المؤيدين للنظام يملكون على الأقل، مؤناً من تلك الضرورية للعيش.

وقد سُجل اسم غورباتشوف بمدرسة قرية بريفولنوي لإكمال دراسته الإبتدائية بالاشتراك مع جيل كامل من الفلاحين الفتيان الذين كانوا يتلقون تدريساً منهجياً للمرة الأولى. وكان عليه أن يتلقى مواضيع الأدب الأساسية نفسها ومواضيع الرياضيات كالملايين من الأطفال السوفييت في

الثلاثينيات ، إلى جانب تفاصيل حشُرت لتملق جوزيف ستالين وقادة الحزب الشيوعي الذين يأتي في قمتهم « القائد العظيم » بقيادته الكريمة . فعندما أصبحت البلاد منغمسة في جنون التجسس والتدمير والتخريب ، والاحتجاجات من قِبل الآخرين ، والنشاطات المضادة للثورة خلال عمليات التطهير الكبيرة من عام ١٩٣٦ حتى ١٩٣٨ ، حتى أطفال المدارس لم ينجوا من سيطرة هاجس داخلي عليهم باستئصال أعداء الشعب في أوساطهم . وغورباتشوف كشاب ريفي يشاهد بأم عينه حقيقة الحياة الريفية المروعة ، كان يمكن أن يلاحظ الفروق الساطعة بين لغة ستالين المنمقة ووقائع الحياة اليومية ، في سن مبكرة ، أكثر مما يمكن أن يلاحظ أطفال المدن .

لم يمضِ غورباتشوف كافة سني دراسته في بريفولنوي ، ولإتمام تعليمه الثانوي انتقل إلى مدرسة أخرى في مدينة صغيرة تبعد ٩ أميال عن قريته ، وكان يقطع يومياً ، على الأقل ، قسماً من المسافة على قدميه ، لأسباب لم يوضحها السوفييت ، وربما كانت نتيجة للإحتلال النازي القصير الأمد لمنطقة ستافروبول . وعندما أمضى غورباتشوف سنواته الخمس الأولى في الدراسة كان عليه أن يبقى في المنزل ٣ أشهر لأن والدته لم تستطع شراء حذاء له بسبب فقرها الشديد . وقد كتب والد غورباتشوف وهو بالجبهة يلح على (ماريا بانتيليفنا) والدة غورباتشوف وأصدر إليها أمراً فورياً لبيع ما هو ضروري من أجل شراء الحذاء . وقد قال بكتابه ، يجب أن يذهب مشياً للمدرسة ، وبناء على هذه الرواية السوفييتية التي تتصف بالقدسية إلى

حد ما ، فإن غورباتشوف الشاب قد لحق برفاقه وحصل فيما بعد على منحة بسبب تفوقه في الدراسة .

ويستنتج أن لدى السوفييت حساسية تجاه فترة قصيرة من طفولة غورباتشوف يجب أن تكون قد أثرت به بشكل مثير . وهذه الفترة هي خمسة شهور من ٥ آب ١٩٤٢ حتى ٢١ كانون الثاني عام ١٩٤٣ عندما احتلت القوات الألمانية مدينة ستافروبول ومعظم منطقة شمال القوقاز ، وكان الزحف إلى القوقاز مليئاً بالمخاطر تحت قيادة الفيلد مارشال (سيجموند وهيلم ليست Siegmund Wilhelm List) للتحرك خلال ستالينغراد باتجاه بحر قزوين وحقول النفط في باكو ، وبعد تقدم تمهيدي وحذر ، تدفقت الأرتال الألمانية إلى داخل ستافروبول بسهولة بحيث أنها أطبقت تماماً على وحدات المرافقة الخاصة بقوات الحدود التابعة للأمن الداخلي تحت قيادة ساسلوف . وأخلى السوفييت المدينة بسرعة ، مع ما استطاعت السلطات الشيوعية تحريكه من الآلات والوثائق قبل فوات الأوان ، وخلال أيام اصطف الناس أمام أكشاك المدينة لشراء نسخهم من ستافروبوسكي فيدوموستي Stavropolskye Vedomosti (أنباء ستافروبول) جريدة الاحتلال المطبوعة باللغة الروسية ، والتي بدأ الألمان بإصدارها حالما وصلوا إلى المدينة .

وكان أحد العناوين الرئيسية في الصحيفة « المسيح ينهض » وقد قصد بهذه العبارة إشارة للسكان المدنيين الروس ، بأنه مقارنة مع السلطات الروسية فإن النازيين يمكن أن يشجعوا التعبير إلى أبعد حد عن إيمانهم

بالمسيحية في داخل المناطق التي يسيطرون عليها، فقد أُعيد فتح الكنائس، وسُمح للكهنة أن يستردوا وظائفهم، وشجعت الاحتفالات المسيحية بشكل علني. حتى لقد تمت بعض الإجتماعات للمتدينين الأرثوذكسيين لإيقاظ الروح الدينية، ونفذ ذلك فعلياً أثناء السيطرة الألمانية. وقد قام الألمان بتبديل مناهج الدراسة المتعلقة بالماركسية اللينينية في المدارس، بمواد دينية لكي يفيدوا إلى مدى أبعد من الحملات ضد الالحادية السوفييتية السائدة التي تفتقر للتأييد.

وكان للاحتلال الألماني في ستافروبول جانبه القاتم كما هي الحالة في باقي أنحاء الاتحاد السوفييتي، وكانت إحدى أولى العمليات الوحشية للألمان، تطويق وقتل حوالي ٦٦٠ مريضاً عقلياً بمشفى مدينة ستافروبول بواسطة الوحدات الألمانية. وتبعاً لما صرح به السوفييت، أنه عندما أخرج الـ(ويهرماخت) من المدينة أثناء عاصفة شتوية عنيفة بكانون الثاني عام ١٩٤٣، كانت الضريبة من الموتى المدنيين عشرة آلاف من بريفولنوي وما جاورها.

وبالمقارنة مع الروس، فقد سجل الألمان نجاحاً هاماً في المجال السياسي والدعائي عند بعض المجموعات العرقية في شمال القوقاز، الذين رأوا أنهم يحملون على عاتقهم حملاً مزدوجاً وهو فرض الجنسية الروسية بالقوة، وفرض الحكم الروسي عليهم، لذا وضعت العقيدة الألمانية كل الشعوب ــ غير الآرية ــ في البوتقة المزدراة نفسها، ورأى المسؤولون في الجيش والسياسيون باستغلال الاضطرابات العرقية داخل الاتحاد السوفييتي، ميزات

جديرة بالاهتمام . وقبل وقوع القوقاز بيد الألمان بفترة قصيرة بعد هجوم عام ١٩٤٢ نشر (الفيلد مارشال ليست) توجيهات لقطعاته لاحترام عادات السكان المحليين ، وقد سمح للمزارع التعاونية عند الأقليات في شمال القوقاز أن تنفصل ، مع أن السياسة الألمانية في أماكن أخرى محتلة كانت مختلفة ، حيث استخدمت المزارع الجماعية بشكل عادي كقواعد تموينية من أجل الـ (ويهرماخت Wehrmacht) . وقد كان هتلر على قناعة أن شعب كيوبان كوزاكز Kuban Cossazks المستقرين بشمال القوقاز بطريقة أو بأخرى ، ينحدرون من القوط الشرقيين وهم قبيلة جرمانية ، ولم يكتف أن سمح لهم بتشكيل منطقتهم الإدارية الخاصة بهم في تشرين الأول ١٩٤٢ لمجموع ١٦٠ ألف نسمة ، بل وافق على عودتهم إلى تملّك أراضيهم الخاصة بهم . والكثيرون من قوازق المنطقة الذين انخفض عددهم كثيراً خلال الثلاثينيات ، التحقوا بالجيش الألماني بأكملهم كوحدات مستقلة ، وانسحبوا مع القوات الألمانية ، عندما طرد الهجوم المعاكس الروسي الجيش الألماني إلى الخلف خارج القوقاز .

مع الوحشية التي تمثلت بالاحتلال النازي ، والسياسة الألمانية في احترام الأقليات ، وتذكر هذه الأقليات للهمجية التي نزلت بهم في الماضي القريب ، جعلت المقاومة السوفييتية في موقف صعب ، ولم تتمكن سوى ٦ مجموعات من الأنصار من العمل في مجمل المنطقة خلال الاحتلال الألماني ، بسبب غياب المتعاطفين والمؤيدين للسوفييت بقوة ، ضمن الكثير من السكان .

إن نفوذ الأقليات العرقية أغضب ستالين، ولم تمض فترة وجيزة بعد أن طرد الألمان بشكل حاسم خارج القوقاز حتى أمر بالانتقام من المجتمعات العرقية التي شعر بأنها قد تفاهمت مع الغزاة الألمان، أو أنها ساعدتهم بشكل نشيط. فبنهاية عام ١٩٤٣ وبدعم قوي من ساسلوف الذي عاد إلى ستافربول مع الوحدات الروسية التي أعادت انتزاع المنطقة، أمر ستالين بترحيل كافة المجتمعات العرقية إلى مناطق مختلفة من الاتحاد السوفييتي.

وقد تمَّ تطويق ما يقارب مليون إنسان، وحُشروا داخل عربات المواشي غير المُدفأة، وأُرسلوا بعيداً إلى المعسكرات في الشمال المتجمد وسيبيريا. وقد عانى كل من القلموقيين المغول البوذيين والتشيشن انجوش، والكاباردييين والبالطاريين والتتار الكارميان والجرمان على الفولغا من الترحيل الجماعي بهذه الطريقة. وعندما جاء عام ١٩٥٦، قام خروتشوف Khrushchev's بشجب ستالين بطريقة سرية، وسمح لهم بالبدء في عملية العودة إلى بيوتهم الأصلية، وحتى هذه الأيام، لا يزال التتار الكارميان والجرمان على الفولغا، معزولين عن مناطق وطنهم وضحايا لسياسة اقترحت وقررت منذ ٤٤ عاماً.

وفي ظل نظام قضى بجعل مدة التعليم بالمدارس ١٠ سنوات في كافة أنحاء الاتحاد السوفييتي خلال الثلاثينيات، كان يمكن لغورباتشوف أن يكمل في زمن الاحتلال أربعة مراحل من دراسة الابتدائية. ولم يكن من المحتمل أن تتحرك القوات الألمانية إلى قرية بحجم بريفولنوي ولا يعتقد أن

غورباتشوف قد أُخلي إلى منطقة أكثر انعزالاً، كما حدث للعديد من الأطفال السوفييت خلال الحرب، ونادراً ما استطاع غورباتشوف تجنب سماع نشاطات الوحدات الألمانية، ولا بد أنه رآهم من وقت لآخر حتى ولو كان بقرية بعيدة مثل بريفولنوي، وتتحفظ المصادر السوفييتية وتصمت حول مكان وجود غورباتشوف خلال فترة الخمسة أشهر من الحكم الألماني مما يعزز واقع استمرار وجود الصبي الصغير في منطقة محتلة من قِبلهم.

ويجب أن تكون الحرب قد مرت صعبة من الناحية العاطفية عليه لأسباب أخرى. لقد نقل والده إلى الأمام مع جميع الرجال الآخرين القادرين حالما بدأت الأعمال القتالية، فأمضى أربع سنوات بعيداً في الجبهة. وتبعاً لما قاله غورباتشوف فقد قاتل سيرجي في منطقة الكاربات Carpathians، ويمكن أن تكون والدته قد ابتعدت لبعض الوقت أيضاً، لأن من الواضح أن الصبي قد أمضى مدة كبيرة من الوقت مع جده وجدته وأصبح يعرفهما جيداً.

وبالرغم من انتساب الجد للحزب الشيوعي فإن غورباتشوف ووالده قد أكدا أنهما يحملان إيماناً قوياً بالدين المسيحي. وقد أخبر ميخائيل أحد المستمعين الانكليز عام ١٩٨٤ أن جده وجدته قد احتفظا فعلياً بإيقونات في منزلهما، ولكنهما أُجبرا بسبب الخوف من السلطات، لإخفائها خلف صور لينين وستالين. وقد اصطحبه الجدان معهما إلى الكنيسة، لكن غورباتشوف قال إنه بعد الزيارة الأولى للكنيسة لم يشعر بالحاجة لأن يعود إليها ثانية. أما سيرجي الذي توفي عام ١٩٧٦ فلم يعرف عنه أنه

يحمل أي شعور بالتدين. وأما والدة غورباتشوف على سبيل المقارنة فقيل إنها قد بقيت على الأرثوذكسية حتى يومنا هذا، وتلازم كنيسة غير بعيدة عن منزلها في بريفولنوي.

هل يتعاطف غورباتشوف مع الديانة المسيحية؟

فمنذ أن أصبح أميناً عاماً للحزب الشيوعي، لم يظهر عليه تحيُّز خاص إلى جانب المسيحيين الروس ـ الأرثوذكس والبروتستانت والكاثوليك ـ. وقد عبَّر عن رأيه في مناسبة واحدة على الأقل، بالحاجة لإعلان الحرب على العواطف الدينية، وحتى الآن لم يطلق غورباتشوف الكلام المنمَّق لذم التديّن، كما فعل بعض من أسلافه وأبرزهم نيكيتا خروتشوف Nikita Khrushchev الذي كان يطلق ذلك من وقت لآخر.

ومهما يكن رأي غورباتشوف الخاص بالدين، فإن العِبَر عن تسامح الألمان الديني، لم تنسَ حتى من قبل ستالين، على الرغم من دخول الصراع الشرس ضد الاحتلال الألماني عامه الثالث، وعلى الرغم من الجهود التمهيدية التي بذلها الألمان لإستمالة السكان المدنيين، لم يستطع أي شيء على المدى الطويل أن يزيل من ذاكرة الناس الذين غزوهم، المبدأ الأساسي الشيطاني وراء النظرية النازية الذي أدى إلى نشوء الحرب بالدرجة الأولى. وقد انهارت حقيقة الرايخ الثالث عندما اهتاجت مجموعات الأمن العسكري الألمانية متوغلة خلال المناطق الخلفية المحتلة، يبحثون عن اليهود والشيوعيين وعن أي إنسان يعتبر خصماً خطراً على المبادئ الهتلرية. ويبدو أن الشعور الودي

نحو الألمان دام لمدة أطول في منطقة ستافروبول ككل خلال فترة احتلال قصيرة، منه في مناطق أخرى. وعلى الرغم من ذلك، فإن الازدراء الواضح الذي قابل به النازيون الشعوب السلافية جميعها، قاد بشكل لا يمكن اجتنابه إلى انبعاث الوطنية الروسية التقليدية. وخيال هذه النقطة، فإن الحزب الشيوعي كمنظم رئيسي للمقاومة ضد الغزاة، أفاد من إحساس الترابط مع الأرض الروسية والتاريخ الروسي، الذي يختزنه الكثيرون جداً ممن لهم علاقة مع التقاليد ومع الثقافة الروسية غير الشيوعية أكثر من نظريات ماركس ولينين.

وباستيعاب أهمية هذه التقاليد مع الإنطباعات الذهنية عن القادة المسيحيين الأبطال لروسيا القديمة وهم يحاربون الغزاة الأتراك أو المغول، أصبح ستالين في عام ١٩٤٢ أقل حدة وصرامة مع المعارضين للنظام وللرموز الإقطاعية ممن كانوا يمثلون الكبرياء الوطنية.

وأعلن الكساندر نيفسكي Alexander Nevsky الغازي الروسي للفرسان التوتونيين في القرن الثالث عشر ليكون بطلاً قومياً، والأهم من ذلك أن ستالين أصدر أوامره في أيلول عام ١٩٤٣ بإعادة فتح الكنائس، وشجع رجال الدين المسيحي لاستئناف وظائفهم التقليدية كرموز للهوية الروسية التقليدية. وإن هذا الإدراك لقوة التقاليد المستمرة يمكن أن يكون قد أقنع الكرملين Kremlin بعدم إصدار الأمر بتغيير اسم ستافروبول عند استعادة السيطرة عليها. ففي عام ١٩٣٥ وكزيادة في الإعجاب بشخصية

ستالين أُعيدت تسمية ستافروبول بـ فورشيلوفسك Voroshilovsk على اسم كليمنت فورشيلوف Kliment Voroshilov وزير الدفاع. وقد أبقى النازيون على اسم ستافروبول كخطوة في استمالة السكان، عندئذ وافقت القيادة الروسية على أبقاء الاسم الأصلي الذي استخدمه الألمان، ذلك لعدم رغبتهم في جرح كبرياء سكان المدينة.

وفيما يتعلق بغورباتشوف فإن الحدث الشخصي الرئيسي لديه عندما انتهت الحرب في أوروبا بأيار من عام ١٩٤٥، يجب أن يكون عودة والده، وقد قاتل سيرجي غورباتشوف رغم كافة الظروف بشجاعة في جبهة (الكاربات) وعاد مع ملايين المسرحين من الجيش السوفييتي إلى موطنه ليلتقط شتات حياته المتقطعة. واستأنف عمله كسائق لحصادة درّاسة الذي اشتغل به منذ بداية تنظيم المزارع الجماعية. وقضى ساعات طويلة في الحقول ومعه ابنه ميخائيل، وأما بالنسبة لغورباتشوف الشاب فتعتبر رفقة والده مكافأة له مع انحسار مرحلة الطفولة إلى الشباب ثم إلى سن البلوغ.

وبحلول عام ١٩٤٥، خبر هذا الشاب الجاد والمتلهف، الصعاب من قساوة ومشاق في أيام بأكملها وهو يقوم بأعمال الرجال البالغين. وبسبب الحالات الطارئة لزمن الحرب، تمَّ نقل أطفال المدارس من قبل السوفييت لأجل أعمال الحصاد، فمن ملايين السوفييت المقاتلة أو القائمين بأشغال المعامل الصعبة، ترك النساء والأطفال وكبار السن لَ يتحملوا الوطأة العظمى من العمل الزراعي لأجل إطعام الأمة. وحالما أصبـ

الأطفال أقوياء لدرجة كافية من الناحية الجسدية، كان يطلب منهم القيام بأعمال الكبار. ولما بلغ غورباتشوف سن الرابعة عشرة كان مستعداً لقيادة حصّادة درّاسة، ولم يكن الأمر هنا كما هي الحالة في أي مزرعة في الغرب كأن يتم ذلك للمتعة أو كهواية. وفي أحوال كثيرة جداً، كان على غورباتشوف أن يؤدي عملاًمضجراً. لكنها مهمة أساسية للعمل الترادفي مع والده كمعاون للسائق.

لقد كان العمل مضنياً وقاصماً للظهر، وكان على المعاون أن يسير خلف الجرار ويقوم بجمع الحزم. وقد رفعت شمس الجنوب اللاهبة في الصيف، درجات الحرارة حتى تجاوزت التسعين وهي تشوي التربة السوداء، وتحولها إلى قشرة قاسية تتناثر إلى غبار ناعم عندما تمر عليها عجلات الحصّادة. لم يكن هناك قمرة واقية يستخدمها السائق. وبعد الاستمرار في العمل لمدة ١٠ دقائق يكون السائق ومعاونه قد غلفا بسحب التبن والغبار التي تجعل التنفس عسيراً. في غضون ذلك، فإن جلد الإنسان المتعرق يمكن أن يدبغ خلال زمن قصير بالسخام وبذرات التبن وحبيبات الرمل. وعندما مارس غورباتشوف العمل كسائق في بعض الأحيان، خلال فصل الشتاء، فإن الريح القارسة القادمة من السهوب كانت تلسع أي جزء من جسمه لم يُغطَّ بشكل كاف. ولإبعاد أذى الصقيع، كان غورباتشوف يلف نفسه برزم من القش وهو يقود الجرار عبر الحقول، ببردها القاصم للظهر.

وبوجود مجمل هذه الصعاب، هناك قليل من الشك بأن غورباتشوف كان شخصياً راضياً مع هذا التعب المضني الذي عانى منه بعد الدوام المدرسي وخلال العطلة الصيفية. كذلك يبدو أنه قد تقبل تماماً وجهة نظر الحزب الشيوعي عن الحرب العالمية الثانية (الحرب الوطنية العظمى) كما يسمى هذا الصراع بشكل عام داخل الاتحاد السوفييتي وآثارها ككارثة. وهذا التعريف المثالي للعالمية فيه عناصر من الحقيقة على وجه الخصوص في الكلمة المكملة وهي الحرب. علاوة على ذلك فإن هدف التعريف الرئيسي كان يوضح فكرة عالمية جليلة المعالم مع نظرة متفائلة للمستقبل، بالإضافة إلى تفسير تمّ استيعابه تماماً، لهول الصراع الذي مضى، والشدائد المستمرة حتى زمن ما بعد الحرب. ووفقاً لوجهة النظر الرسمية الداخلية والخارجية عن سير القادة في أواخر الأربعينيات، فإن جوزيف ستالين كقائد، يهدف إلى النفع العام، وذو معرفة غير محدودة بكافة الأمور تقريباً، قد قاد البلاد بهدوء إلى الأمام خلال عوائق أنتجها الغزو الألماني مع المعاناة حتى النصر النهائي على العدو. وقد كان أعضاء الحزب الأبطال الذين ضحوا بأرواحهم أول المدافعين عن وطنهم، وكذلك أول الذين ساهموا في إعادة بناء الوطن بعد الحرب. وكان الاتحاد السوفييتي القاعدة الأمامية الوحيدة محط آمال الجنس البشري في عالم تمّ استعباده بواسطة الاستعماريين الذين أثاروا الحروب ـــ وخاصة الولايات المتحدة، العدو الرئيسي لكل ما هو خير وتقدمي ـــ وضباع الرأسمالية الاحتكارية العالمية التي لا تشبع. وقد صور ستالين باعتباره قائداً عالمياً للإنسانية التقدميا

المناصرة للشيوعية، يجابه به تجمعات بغيضة من دول استعمارية، تسعى للانتقام وهي بالتحديد، الولايات المتحدة، وأوروبا الغربية وحلفاؤهم في مختلف أنحاء العالم.

ومن المؤكد أن غورباتشوف قد تقبل بالمعنى الظاهر، معظم هذه المجموعة من المعارف التقليدية، محتفظاً بشكوكه بمظاهر التفاصيل الدعائية التي يتبناها النظام حول الحياة السوفييتية في الريف، والتي عرف بتجربته الشخصية أنها كانت كاذبة صراحة. ولم يمض وقت طويل بعد أن تمتع غورباتشوف بحق الانتخاب عند بلوغه الرابعة عشرة من عمره، حتى أنضم إلى الكومسومول Komsomol (عصبة الشبيبة الشيوعية). وقد أظهر الشاب في هذه الفترة، أنه يمتلك مواهب في الذكاء وفي علاقاته الاجتماعية: مقدرة على التعبير بكل قوة، وبشكل واضح أمام المستمع، مع ذاكرة تمتاز بمعرفة التفاصيل، وحماس يستقطب قواه بأجمعها لتنفيذ المهام التي كلف بها، وقدرته على فرض ما يراه أعظم قيمة ونفعاً مع عنايته المفرطة وولائه الواضح له.

وبنفس الوقت الذي انقضى فيه عام ١٩٤٩ وجاء عام ١٩٥٠ اقترب غورباتشوف من نهاية تعليمه الثانوي الأساسي. وقد أدت الحرب إلى إعاقة دراسته وتأجيل تخرجه لعام واحد. وهكذا بلغ سن التاسعة عشرة قبل إكماله لمنهاج الدراسة الثانوية. وكان شديد الذكاء، ولكن لم يكن أول المبرزين، وطالباً متقناً لدراسته، وقد اهتم تقريباً بمواضيع عديدة جداً من أجل فائدته

واطلاعه الشخصي. حتى أنه لم يكن متأكداً من الموضوع الذي كان فيه مميزاً على غيره من المواضيع، وقد أحب الأدب الروسي، وحفظ في ذاكرته أشعار بوشكين Pushkin وليرمونتوف Lermontov، التي أحبت الأجيال من الأطفال الروس، الاستماع إليها وحفظها عن ظهر قلب. وفي عام ١٩٨٦ صرح غورباتشوف لمحرر الجريدة الايطالية الشيوعية (يونيتا L'Unita) حتى هذا اليوم أستطيع الإلقاء عن ظهر قلبي، للشعر الذي حفظته أثناء المدرسة. وبدا إدراكه للعموميات، مفضلاً ذلك على الخصوصيات، وكأن ذلك كان سبباً لعدم الثقة بالذات. وأخبر نفس المحرر: «وقد اعتبرت ذلك دائماً ضعفاً عندي، ولأنني أصبحت مهتماً بمسائل كثيرة وفي مجالات مختلفة، فأنا لا أستطيع معرفة ما هي المواضيع التي شعرت نحوها باهتمام خاص خلال الدراسة». وفي الدراسة الثانوية كان غورباتشوف جيد جداً، ولكنه لم يكن أول المتخرجين من صفه في المدرسة الثانوية، وقد منح ميدالية فضية، أما الذهبية فكانت من نصيب أبرز الطلبة. (وفي مدرسة مختلفة وبمدينة أخرى، نالت زوجته رايسا Raisa الميدالية الذهبية).

ولو احتاج غورباتشوف للاستغناء عن الدراسة الجامعية لتأمين مهنة بعيداً عن منطقة ستافروبول الريفية لما أمكن أن يكون ذلك المكان في موسكو. وكانت الدراسة العالية بعد الحرب العالمية الثانية مرغوباً فيها جداً بسبب وجود مئات الآلاف من العسكريين العائدين يتسابقون إلى الدراس في كليات كانت قد أقفلت بسبب الحرب. وفي نفس الوقت كان هنا وفرة من الشباب في موسكو ولينيغراد والمدن الأخرى الرئيسية، حيد

جعلتهم خلفية الوالدين (عضوية بالحزب، التفوق....) أوفر حظاً من غورباتشوف فيما يتعلق باختيار الأماكن في الجامعات الرئيسية. ولحسن حظ غورباتشوف فقد بدا عليه الامتياز في مجالين آخرين في الحياة: العمل السياسي كعضو في الكومسومول، والعمل البدني في المزرعة التعاونية خلال فصول الصيف الطويلة وهو يكدح في الريف. وقد أصبح الكومسومول نقطة انطلاق غورباتشوف إلى الشهرة، ليس فقط في الجامعة بموسكو، ولكن عند بداية صعوده السريع لسلم السلطة كموظف حكومي وأثناء عودته إلى ستافروبول عام ١٩٥٥.

وفيما يتعلق بأغلبية الشباب في الاتحاد السوفييتي، كان التحاق الرواد الشباب من المدارس الإبتدائية في الكومسومول، يتم عند سن الرابعة عشرة أو بعد ذلك، وأصبح هذا إلى حد ما منذ الثورة البولشفية **Bolshevik Revolution** تقليداً متبعاً وتحصل على عضوية الكومسومول شريحة واسعة من التلاميذ بحيث لا تمنح بحد ذاتها أية امتيازات خاصة. وعلاوة على ذلك فهي إحدى المؤهلات التي لا بد منها لعضوية الحزب الشيوعي اللاحقة وضرورية من أجل أية مهنة حكومية، مع نية الوصول لمكان تستلم فيه مسؤولية. وتتراوح نشاطات عصبة الكومسومول من الحضور الإجباري للمحاضرات السياسية الأسبوعية، إلى المساهمة في تحسين مشاريع المجتمع، وإلى رحلات أثناء العطل تكون لمجرد المتعة واللهو. ولا بد أن غورباتشوف الشاب الجاد والقوي قد أظهر حماسة من أجل كافة أوجه العضوية، بما في ذلك تلك التي يعتبرها معظم الأشخاص الشباب عملاً روتينياً مضجراً: كمساعدة عمال

الحزب في التعامل مع قضايا محلية مجاورة تستغرق يوماً أو أكثر، على سبيل المثال، أو المشاركة في التعليم والقيام بالدعاية في المدارس والمعامل.

ولم يذكر غورباتشوف على مرأى وسَمعْ من الجماهير، بداية عمله في الكومسومول بمدينة بريفولنوي، ولم يشر إلى كيفية نجاحه بلفت انتباه المسؤولين في الكومسومول بمدينته. مع ذلك من الواضح أنه ترك انطباعاً قوياً لدى موظفي الحزب الشيوعي المهيمن، وأبرز ملكات قيادته جعلته مختلفاً عن أعضاء الكومسومول العاديين. وربما كانت حماسته العامة للقيام بكافة أنواع الأعمال داخل وخارج عصبة الكومسومول هي التي جعلته يحصل على وسام راية العمل الحمراء في عمر ملفت للنظر وهو سن ١٨. وكان هذا الشرف، يُمنح عادة للعمال المتفوقين بحياتهم المليئة بالخبرة والعمل الشاق المخلص الذي مارسوه. ويبدو أن غورباتشوف قد كسبه مبكراً بسبب اجتهاد مميز أظهره خلال جمع محصول الحصاد الوفير في ستافروبول كيري عام ١٩٤٩. ويترافق هذا مع المهارات السياسية والتنظيمية المبكرة التي أظهرها غورباتشوف بنشاطاته في الكومسومول التي كانت كافية لتصنيفه عام ١٩٥٠ مع هذه الفئة من الشباب الريفي الرائع الذين سُمح لهم بالدخول في أوسع مؤسسة سوفييتية للتعليم العالي في جامعة موسكو.

وقد قال غورباتشوف في أيلول عام ١٩٥٠: وداعاً، لوالديه وأصدقائه، واستقل القطار للسفر مسافة تقارب ألف ميل من ستافروبول إلى موسكو بغية استئناف دراسته. وإن أي شاب من الريف الروسي الجنوبي

يمكن أن يرقص فرحاً عندما تؤاتيه الفرصة للسفر إلى العاصمة السوفييتية من أجل الدراسة الجامعية. وعلى طول الطريق كان لغورباتشوف نظرته التأملية الواقعية، إدراك يصاحبه الخوف الشديد من مدى التدمير الذي تحمله الاتحاد السوفييتي خلال الحرب العالمية الثانية. ومن الواضح أن بريفولنوي قد تكبدت نسبياً، أضراراً قليلة بسبب الحرب. وأن ستافروبول عانت القليل بالرغم من قصفها بالقنابل لأشهر وسنين، إضافة إلى الهجمات والهجمات المضادة من قبل القوات السوفييتية والألمانية على حد سواء، وأن خط رحلة غورباتشوف في القطار إلى العاصمة السوفييتية يبدو وكأنه شريط لمجموعة من المعارك السوفييتية البطولية ضد الألمان في الحرب العالمية الثانية. فستالينغراد وروستوف وخاركوف وأورال وكورسك وفارونيج كلها جثمت مستسلمة إلى جانب الخط الحديدي الرئيسي القادم من جنوب روسيا، وقد أخبر غورباتشوف أحد المحررين عام ١٩٨٦ وهو يتذكر آثار تلك الرحلة الأولى إلى موسكو في عام ١٩٥٠.

ذهبت للدراسة في جامعة موسكو وسافرت عبر ستالينغراد التي كانت قد دُمرت، وعبر فارونيج التي كانت قد دُمرت أيضاً. وروستوف كانت مدمرة، لا يوجد شيء سوى الدمار أينما ذهبت. لقد سافرتُ كطالب ورأيتها كلها، كانت البلاد جميعها أنقاضاً.

وفيما يتعلق بشاب طموح يسافر إلى عاصمة الأمة للمرة الأولى، كانت الرحلة بالتأكيد، مجالاً للتعرف على حقائق الحياة السوفييتية بعد

الحرب العالمية الثانية التي سببت له صدمة. ومع ذلك اعتبرها غورباتشوف كواسطة تذكره بضرورة متابعة دراسته بالحدّ الأقصى من الجدية. والآن، وهو مهتم بالمتابعات السياسية، وبهذا العالم المحيط به، وصل إلى موسكو متحمساً وعاقداً العزم على التفوق، دافعه إلى ذلك، تآلف الوطنية مع الطموح الشخصي.

وفي التاسعة عشرة من عمره كان غورباتشوف شاباً مفعماً بالنشاط، مثالياً. إن الكثيرين من الشباب والشابات من أعمار موازية لعمر هذا الشاب، ومن بلدان أخرى، يمكن أن يصبحوا مثله أقوياء البنية والعزيمة من جراء الخبرات المكتسبة وينجحوا بمواجهة التحديات الصعبة.

الفصل الثاني

السنوات الجامعية

وصل قطار ستافروبول ــ موسكو إلى محطة كورسك Kursk في أيلول ١٩٥٠، بعد رحلة طويلة ومملة، وهبط منه غورباتشوف الشاب وهو مدرك تماماً للتحديات التي سوف يواجهها في العاصمة السوفييتية، لم يكن يحمل سوى حقيبة واحدة فيها الحد الأدنى من اللوازم الشخصية ومعطفاً وقبعة قوقازية، بالإضافة إلى الآمال التي علقتها عليه عائلته وقريته وقيادة المنظمة الشبيبية المحلية الكومسومول. هل وجد أحداً في استقباله؟، أو هل كانت له معارف في موسكو؟، لا أحد يعرف رغم أنه يحمل وشاح العمل الأحمر العالي القيمة، كان في التاسعة عشرة من عمره، ولكن ثقته بنفسه فاقت سنّه بكثير، وهو على قناعة تامة بأن العمل الجاد هو السبيل الوحيد لبقائه في جامعة موسكو التي يعتبرها نقطة انطلاق نحو مستقبل زاهر.

كانت جامعة موسكو قد قبلته في كلية الحقوق، ولكن هذه الكلية لم تكن المفضلة لديه، فقد صرح خلال مقابلة أجرتها معه صحيفة يونيتا الايطالية بأنه كان يتطلع إلى اختصاصات مختلفة، ولم تكن دراسة الحقوق من بينها: «قُبلت في كلية الحقوق في الوقت الذي كنت أتمنى فيه الانتساب إلى كلية العلوم الفيزيائية»، وقد اهتم أيضاً بالرياضيات والتاريخ والآداب، ــ حسب ما جاء في الصحيفة نفسها ــ ويبدو أن توجيهه نحو الحقوق جاء بسبب عدم حصوله على العلامة المطلوبة في الرياضيات والعلوم الفيزيائية، وكان عليه، لو قُبل، أن يواجه منافسة حادة من قِبل العسكريين القدامى والطلاب القادمين من مختلف أنحاء البلاد.

وقد يكون هناك أسباب أخرى لعدم رضاء غورباتشوف عن الانتساب إلى كلية الحقوق، منها أن مهنة المحاماة في الاتحاد السوفييتي تأتي في الدرجة الدنيا، فالقانون في ظل العقيدة الماركسية ــ اللينينية وفي العهد الستاليني الراهن، ليس له دور يُذكر، إذ اقتصر نشاط المحامين السوفييت على توفير المبررات اللازمة للدولة لسحق المعارضين، وقد أثارت المحاكمات الاستعراضية وعمليات التطهير في الثلاثينيات، السخرية خاصة وأنها ارتكزت أساساً في أحكامها على اعترافات المتهمين، ذلك لأن أساليب التعذيب المتطورة التي كانت تُمَارَس في سجن لوبيانكا **Lubyanka** وسواه في ظل النظام الستاليني تضطر المتهم إلى الاعتراف بارتكاب أعمال لم يقم بها لعدم قدرته على تحمل المزيد من التعذيب، وقد تكررت هذه الممارسات كثيراً، وكانت وراء الإدانات التي بررت عمليات التطهير الستالينية، فمن

حيث المبدأ طبقت وسيلة بسيطة واحدة لإجبار السجين على الاعتراف بما يرغب المحقق به : حرمان الموقوف من النوم لعدة أيام متوالية ، وهذا الأسلوب لا يترك أي أثر على الجسد ، وكان يُعرف في الاتحاد السوفييتي باسم كونفير **Konveyer** .

وقد استند المدعي العام ونجم المحاكمات الاستعراضية في موسكو ، السيد أندريه فيشنسكي **Andrei Vyshinsky** خلال عمليات التطهير في الثلاثينيات ، على اعترافات المتهمين بشكل أساسي ، وتعرض رفاق لينين وستالين السابقين إلى أنواع من التعذيب جعلهم يعترفون بجرائم رهيبة معادية للثورة ، مثل التجسس لصالح اليابان وبريطانيا ولمجموعات أجنبية أخرى . في الوقت الذي انتسب فيه غورباتشوف إلى كلية الحقوق كان فيشنسكي قد احتل منصب وزير الخارجية لفترة قصيرة ثم أصبح ممثلاً للاتحاد السوفييتي في هيئة الأمم المتحدة . ولكن ظله بقي مخيماً على الممارسات الرسمية للحقوقيين وعلى الكتب الدراسية ، وعلى النشاطات اليومية للمحامين . وكان معظم خريجي كلية الحقوق يوظفون في مكاتب الإدعاء العام أو فروع الأمن (جهاز مخابرات الدولة « ك جي بي » **KGB** بتنظيمه الحالي لم يشكل إلا في عام ١٩٥٤ بعد تقليص سلطة وزارة الداخلية التي كانت مسؤولة عن الأمن والمخابرات) . ولم تكن مكاتب الإدعاء العام ولا العمل في جهاز الأمن ــ رغم المزايا التي تقدمها ــ تشكل جاذباً مغرياً للطلاب الذين يتمتعون بحد أعلى من المتوسط من الاحترام الذاتي .

وانعكست السمعة السيئة لكلية الحقوق على عدد الشبان المنتسبين إليها في الخمسينيات، إذ لم يزد عددهم عن ٤٥ ألفاً من أصل مليون ومائتي ألف طالب. وفي عام ١٩٥٨ ــ ١٩٥٩ انخفض العدد إلى ٣٦ ألفاً رغم تضاعف العدد الإجمالي للطلاب ورغم الإسترخاء الذي عمَّ الاتحاد السوفييتي إثر النقد العنيف الذي وجِّه للممارسات الستالينية. ويلاحظ السيد فراتسلاف بتشوتا **Vratislav Pechota** الخبير في القانون السوفييتي في جامعة كولومبيا **Columbia**، والذي درس الحقوق في جامعتي كييف **Kiev** ولينيغراد **Leningrad** في نفس الفترة التي كان غورباتشوف في جامعة موسكو، بأن دراسة الحقوق لم تكن مرغوبة لأنه لم يكن للقانون دور هام في تلك الأثناء.

انتسب غورباتشوف إلى كلية الحقوق في جامعة موسكو، رغم سمعتها، وكانت الثقافة الجامعية الأكثر فائدة لبلورة اهتماماته السياسية. فعلى الرغم من عدم ممارسته لمهنة المحاماة مطلقاً إلا أنه أحسن الاستفادة من مادة الثقافة العامة التي كانت جامعة موسكو تقدمها لطلابها في أحلك أيام ستالين أي مطلع الخمسينيات. والطريف أن كلاً من غورباتشوف ومؤسس الدولة السوفييتية فلاديمير لينين **Vladimir Lenin**، نبع القيم الأخلاقية والثقافية، بنظر غورباتشوف هما الوحيدان بين الزعماء السوفييت اللذان يحملان شهادة جامعية، وكلتاهما في القانون.

لم تكن كلية الحقوق في مطلع الخمسينيات في الموقع الحالي لجامعة موسكو المؤلفة من ٣٤ طابقاً على هضاب لينين في ضواحي موسكو، بل

كانت في بناء جميل قديم تزينه الأعمدة في شارع كارل ماركس Karl Marx وسط المدينة مقابل الإسطبلات العبقرية. وكان غورباتشوف يتنقل يومياً بينها وبين مقر إقامته في ناحية سوكولينكي Sokolniki الواقعة شمال شرق موسكو، ويمضي فيها ساعات طويلة في المطالعة والبحث والدراسة، ولا شك أنه كان يمتع أنظاره خلال رحلته اليومية بجمال محطات القطار النفقي بعمدانها المرخمة وثريات الكريستال، وكان ستالين في الثلاثينيات قد أوعز بإشادتها رغم تكاليفها الباهظة كنموذج لما يمكن للشيوعية أن تقدمه.

كان معظم زملاء غورباتشوف في كلية الحقوق من العسكريين الذين خاضوا غمار الحرب العالمية الثانية على أرض وطنهم وفي أوروبا الشرقية وحتى في قلب ألمانيا، وبعضهم اشترك في عمليات الجيش السوفييتي ضد اليابان عام ١٩٤٥، وبالتالي كانت أعمارهم تتراوح بين منتصف أو أواخر العشرينيات. في حين كانت قلة من المدارس الثانوية من موسكو ولينينغراد وسواهما من المدن الروسية. وغالباً ما كانوا من أبناء العائلات المتمتعة بامتيازات خاصة، أو أبناء موظفين موالين للسلطة الذين نجوا من البطش الستاليني بالطبقة المثقفة في الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات، الثلث فقط أو أقل من ذلك كانوا من نوعية غورباتشوف الذين وصلوا بفضل مواهبهم الشخصية وولائهم السياسي بشهادة المسؤولين في محافظاتهم. ولم تكن عائلة غورباتشوف قادرة على تقديم الدعم الكافي له للانتساب إلى أشهر المعاهد السوفييتية، أي كلية العلاقات الدولية التابعة لجامعة موسكو، حيث يتم تأهيل معظم قادة المستقبل في حقل القانون الدولي

والدبلوماسية ، ولانملك أي دليل على رغبة غورباتشوف بمتابعة الدراسة بعد تخرجه .

إلى جانب هؤلاء الطلبة تواجدت نوعية جديدة لم تُشاهَد سابقاً في الاتحاد السوفييتي ، شبان قدِموا من دول أوروبا الشرقية : تشيكوسلوفاكيا ، ألمانيا الشرقية ، ألبانيا ، وحتى من الصين ، مما أضاف نكهة جديدة إلى الدراسة بعد أن كانت المراقبة قد حالت دون الاطلاع على أية معلومات من خارج الاتحاد السوفييتي ، وقد انسجم هؤلاء الطلاب الأجانب مع المفهوم السوفييتي وأهدافه التي يمكن تلخيصها بالصراع ضد الامبريالية الغربية .

الواقع أن اختيار هؤلاء الطلاب الأجانب للدراسة في جامعة موسكو كان بسبب إيمانهم القوي بالمبادئ الشيوعية ، وقناعة النظام الذي أوفدهم بأنهم سوف يشكلون الجيل الجديد الموالي للسياسة السوفييتية لدى عودتهم إلى بلادهم ، وقد خضعوا لمراقبة مزدوجة من قبل سفارات بلادهم ومن قبل الجهات الأمنية السوفييتية خوفاً من أن تؤدي خلفياتهم الغبية وخبراتهم السابقة إلى تسميم أفكار زملائهم من السوفييت .

أحد هؤلاء الطلاب الأجانب الذين انضموا إلى كلية الحقوق في موسكو بنفس الوقت مع غورباتشوف كان زدينيك ملينار **Zdenek Mlynar** وهو شاب تشيكي وشيوعي متحمس شديد الاهتمام بالنواحي السياسية ، وقد احتل ملينار لاحقاً مناصب حساسة في الحزب الشيوعي التشيكي ، وأصبح عضواً في اللجنة المركزية للحزب حتى ربيع ١٩٦٨ وأحداث براغ ،

عندما بدأ حماسه يخبو بسبب الأسلوب الستاليني الجامد الذي انتهجه الحزب، فانضم إلى الإصلاحيين الذين أوصلوا الكسندر دوبتشيك Alexander Dubcek إلى السلطة في ذلك العام. وعندما سحقت الدبابات السوفييتية هذه الحركة الإصلاحية في أواخر الصيف فقد ملينار كافة مناصبه الرسمية وأصبح مسؤولاً عن مجموعة الفراشات في مركز بحوث براغ. ثم هاجر إلى النمسا عام ١٩٧٧ وهو يشرف حالياً على أبحاث في مدينة فيينا Vienna.

عين ملينار وغورباتشوف في مجموعة دراسية واحدة مكلفة بالعمل على زيادة التعاون بين الأساتذة والطلاب لتسهيل مهمة الأساتذة في الإشراف على طلاب الحقوق. وعلى الرغم من أن وجودهما في مجموعة واحدة جاء بمحض الصدف، كما يقول ملينار فإنهما أصبحا صديقين متلازمين يدرسان ويستعدان للإمتحانات ويتجولان حول موسكو معاً. وقد تزوجا وهما ما زالا طالبين فتاتين تجمع بينهما صداقة مماثلة، بل أكثر من ذلك كان غورباتشوف يكشف لصديقه عن آرائه الشخصية في السياسة والاقتصاد والحياة بشكل عام، وهذا تصرف غير عادي لمواطن سوفييتي تجاه أجنبي حتى لو كان هذا الأخير من رعايا دولة صديقة. وكل ما نعرفه عن آراء غورباتشوف السياسية إبان وجوده في الجامعة، جاء مما تبقى في ذاكرة ملينار من أحاديث جرت بينهما.

مدة الدراسة في كلية الحقوق خمس سنوات وهي أطول وأكثر كثافة من أي برنامج مماثل في الغرب، سواء في تلك السنوات أو في أيامنا الحاضرة.

إذ تبدأ الدروس والمحاضرات والحلقات الدراسية في الساعة التاسعة صباحاً وتستمر حتى الثالثة بعد الظهر، ستة أيام في الأسبوع طيلة السنة الدراسية، الدوام إجباري، وكل غياب بدون عذر مبرز قد يؤدي إلى حرمان الطالب من المنحة المالية، وفي بعض الحالات إلى طرده من الكلية، في حين أن الذي يحصل على علامات جيدة وسلوك حسن، تزاد قيمة منحته المالية، وكان غورباتشوف قد حصل على منحة ستالين الدراسية إثر وصوله إلى موسكو مما ساعده على تأمين حاجاته الضرورية.

تحتل الماركسية ـــ اللينينية القسم الأعظم من برامج كلية الحقوق، كما أن لدراسة العقيدة السوفييتية دوراً هاماً في برامج كافة الدراسات الإنسانية. وقد استمع غورباتشوف إلى محاضرات، واشترك في حلقات دراسية حول الديالكتيكية والمادية التاريخية والاقتصاد السياسي وأعمال ماركس وانجلز ولينين وستالين. فطالما أن العقيدة الماركسية ـــ اللينينية هي النظرية المحورية التي أُنشئت بموجبها الدولة السوفييتية وبالتالي القوانين السوفييتية، فإن من الطبيعي أن تحتل مركز الصدارة في كلية الحقوق. وكان على الطلبة ألا يقرؤوا باهتمام زائد أعمال ماركس ولينين بل وأن يتعمقوا في فهم نصوصها ويتقنوا تفسيرها.

لا شك أن العديد من الطلبة قد طالوا المديح لواضعي العقيدة الماركسية بهدف الحصول على علامات أعلى فقط، ومع ذلك فإن أثر معالجتهم المستمرة للمبادئ الماركسية واللينينية قد طبعهم مدى الحياة كما

شهد بذلك أحد الذين مروا بهذه التجربة فريدريخ نيزنانسكي وهو مهاجر سوفييتي حاصل على شهادة الحقوق من جامعة موسكو قبل غورباتشوف بعام واحد. وقد اجتمع بالزعيم السوفييتي مرات عدة، وقد صرح بقوله: «تخلق الماركسية اللينينية محيطاً ونمط تفكير وفهماً للعقيدة السوفييتية ومعرفة الحدود التي يسمح بها النظام وما يحظر عليك تجاوزه».

أما بالنسبة لكل من غورباتشوف وملينار فقد كانت الدراسة تشكل نوعاً من التحدي الفكري. دخل غورباتشوف كلية الحقوق في جامعة موسكو وهو شيوعي عن قناعة، وقد ساعدته سنوات الدراسة بتعزيز قناعاته العقائدية المسبقة، كما أتاحت له خبرته المكتسبة في التعمق بدراسة الجدلية الماركسية اللينينية باكتشاف نواة نظرية، وكما يقول هو نفسه «قاعدة روحانية» لمعتقداته وما زال متأثراً بها حتى الآن.

أما المواطن الغربي القليل الثقافة الذي يرى في الماركسية اللينينية خزعبلات غايتها تبرير كل قرار براغماتي، فمن الصعب إن لم يكن من المستحيل فهم هذا المنطق. ولم تقتصر دراسة غورباتشوف لحياة لينين على أفكاره النظرية ومبادئه بل شملت مهاراته في التكتيك السياسي، وقدراته على تقدير الوقت المناسب للتقدم أو للتراجع دون أن يغفل لحظة واحدة عن هدفه الوحيد، وهو ليس فقط إرساء قواعد السلطة الشيوعية في روسيا بل وامتدادها لتشمل العالم كله. ويستذكر نيزنانسكي حديث غورباتشوف الذي يشيد بقرار لينين بتوقيع معاهدة سلام مجحفة لروسيا مع الألمان في

بريست ــ ليتوفسك Brest-Litovsk عام ١٩١٨ إبان الحرب العالمية الأولى. وكان تبرير لينين لسياسته أمام رفاقه من البلشفيك المستائين، حسب مفهوم غورباتشوف بقوله: «متى نجحنا في تثبيت قواعد الثورة داخلياً، نصبح في موقف أقوى لنشرها إلى العالم الخارجي».

وامتد إعجاب غورباتشوف بلينين إلى المعاملة الإنسانية التي قابل بها خصمه المنشيفيكي يوليوس مارتوف Julius Martov رغم معارضة هذا الأخير العنيفة لقرارات لينين قبل وبعد ثورة اكتوبر عام ١٩١٧. ولكن هذه المشاعر تشكل خطراً كبيراً ولا يجوز لغورباتشوف التصريح بها حتى لأقرب أصدقائه، ذلك لأن التاريخ الرسمي للاتحاد السوفييتي كما كان يدرس في جامعة موسكو عام ١٩٥٢ ينص على أن كل من يعارض سياسة الحزب المفروضة من الأعلى يعتبر معادياً للحزب وهي جريمة تؤدي به إلى السجن لمدة طويلة إذا لم يحكم عليه بالإعدام. وأمثال هؤلاء كانوا بنظر السلطات في ظل الحكم الستاليني مجرمين قذرين يجب شطب أسمائهم من كتب التاريخ. ومع ذلك وتبعاً لأقوال ملينار فإن غورباتشوف قد قال له آنذاك: «لم يقم لينين بسجن مارتوف، بل سمح له بالهجرة خارج البلاد، وقد استنتج ملينار من ذلك أن مثل هذه التصريحات دليل واضح على أن صديقه الروسي لم يكن وصولياً.

بالإضافة إلى الدراسة المعمقة لمؤلفات ماركس ولينين كان على طلبة كلية الحقوق الإطلاع الكافي على القانون الروسي قبل وبعد الثورة، وعلى عدد

كبير من المواضيع الأخرى التي تساعد على فهم دور القانون في أنحاء العالم. فقد شمل المنهاج أكثر من أربعين موضوعاً تغطي النواحي القانونية والإنسانية على السواء. وفي مجال القانون السوفييتي أُعطيّ للطلبة مراجع من وضع الأساتذة بيونتوفسكي ومينشاغين بعنوان (دروس في قانون الجريمة السوفييتية) حيث وردت محاكم الثلاثينيات المسرحية كنماذج للشيوعية الاشتراكية الحقيقية. وكان تعبير عدو الشعب ما زال متداولاً، ولم يكن هناك أي إحراج في وضع المجرم العادي والسياسي في إناء واحد. واستناداً لأقوال نيزنانسكي Neznansky كان هناك بين الأساتذة المكلفين بمادة القانون السوفييتي من يخالف خط فيشنسكي الذي يعتبر اعتراف المتهم أساساً للحكم، ولكنهم كانوا حذرين في التعبير عن آرائهم متبعين أسلوباً علمياً بحتاً في تعريفهم للمواد القانونية أو في مناقشتهم لقانون الجرائم.

كانت أكثر المجالات التي أفادت غورباتشوف هي المواضيع الإنسانية التي تضمنها المنهاج الدراسي، الذي شمل حلقات دراسية في القانون الروماني وفي تاريخ القانون، والقانون الدولي والقانون المدني وقانون العمل. كما ناقش الطلاب قانون حمورابي، وتاريخ فلورنسا لميكيافللي، وأعمال توماس الأكويني وهوبز وهيغل وروسو، وحتى دستور الولايات المتحدة الأميركية. وفي إحدى المراحل كان على الزعيم السوفييتي المقبل أن يمضي فصلاً كاملاً يحل رموز اللغة اللاتينية لفهم القانون الروماني. وكان العديد من أساتذة هذه المواد من جيل ما قبل الثورة البولشفية الذين لم يتورطوا في النشاطات السياسية، ونجوا من ويلات الحروب وحملات التطهير ومخاطر الحياة

السوفييتية الأخرى، وتابعوا أبحاثهم ونشاطهم في مجال التـدريس. وكان معظمهم على مستوى عال جداً من حيث الكفاءة العلمية وبدرجة ممتازة على صعيد التدريس.

ويرى ملينار أن أروع ما في منهاج كلية الحقوق في جامعة موسكو هي دورة مدتها عامان لدراسة تاريخ الأفكار السياسية، وهي تفرض أربع ساعات مطالعة حرة وأربع ساعات تدريس أسبوعياً، وكان يشرف عليها البروفسور ستيبـــان فيودوروفيـــتش كيشيكيـــان Stepan Fyodorovich Kechekyan، وتعرّف الطلبـة وإن كان بأسلـوب حذر على عالم ثقـــافي وسياسي سبق العهد الستاليني وما زال موجوداً. وقد تلقى كيشيكيان تعليمه قبل الثورة البولشفية ونجح في نقل معارفه إلى طلابه بعيداً عن المفاهيم الستالينية الجامدة. ويقول ملينار إن أستاذه هذا كان ممتازاً ومحبوباً جداً، ويضيف أن غورباتشوف قد تأثر كثيراً بتلك الأفكار السياسية.

إلى جانب المعارف المتنوعة في مجالي السياسة والفلسفة أُعجب غورباتشوف بجمال التعابير اللغوية واتساع الآفاق الثقافية. ويذكر ملينار حديثاً بينه وبين غورباتشوف عن هيغل Hegel. وكان البروفسور كيشيكيان قد استخدم تعبير «لجم هيغل حصانه في مواجهـة بوابـة براندنبورغ Brandenburg» وهو يعني أن هيغل قد وعى العلاقة بين الفلسفة والسلطة السياسية، فعلق غورباتشوف بقوله: إن امتلاك ناحية مثل هذه التعابير المجازية تعطي فكرة عن نوعية الأستاذ. ويضيف ملينار قائلاً: لقد دهشت

فعلاً من اهتمام غورباتشوف الطالب القادم من قرية صغيرة بمثل هذه الصيغ الكلامية، خاصة عندما سمع مقولة هيغل بأن الصدق ظاهرة ملموسة نُحسُّ بها دوماً، وأخذ يستخدمها ليس كما كنا نفعل كلنا، بل كلما تنطّح طالب أو أستاذ للحديث عن المبادئ العامة متجاهلاً الواقع الفعلي. كما كتب ملينار في صحيفة يونيتا بعد شهر من تولي غورباتشوف السلطة عام ١٩٨٥.

لم يكن غورباتشوف يرى النظرية الماركسية مجموعة من التعابير المعدة للحفظ غيباً، كما كانت بنظر معظم الطلبة السوفييت، بل يجد أن قيمتها الفعلية كامنة في كونها وسيلة لفهم العالم ومتحولاته المستمرة بشكل أوضح.

لا نعرف العمق الحقيقي لما تعلّمه غورباتشوف عن العالم الخارجي وعن القوانين والسياسات الغربية. الكسندر ستروماس **Alexander Stromas** وهو طالب لتواني **Lithusnin** درس في جامعة موسكو، يرى أن المعلومات العامة المستقاة من المؤلفات السابقة لكارل ماركس كانت جيدة، ولم تكن قراءتها محظورة لأن ماركس نفسه استخدمها مراجع له. أما ملينار فيقول إن دراسة الدستور الأمريكي كانت تتم بواقعية وجدية رغم أن بعض الأساتذة كان ينوه بين الحين والآخر إلى سوء تطبيق هذا الدستور عملياً من قبل الحكومات الأمريكية. من جهة أخرى يفرض الاتحاد السوفييتي حظراً كاملاً على الكتب والمجلات والصحف الأجنبية ما لم تحظَ بموافقة السلطات المختص

التي لم تكن تسمح إلا بما يتماشى وسياسة الدولة. ويدّعي ليف يودوفيتش Lev Yudovich الذي درس القانون في موسكو قبل غورباتشوف بعامين، أن الحظر قد شمل المؤلفات الروسية وحتى البولشفية الموضوعة قبل الثورة، بل حتى العشرينيات. وأكثر من ذلك حسب قول يودوفيتش «كان من المستحيل على الطلبة الاطلاع على صحيفة «الشرارة» التي أسسها لينين عام ١٩٠٠».

كان المحيط السياسي في موسكو بشكل عام معادياً جداً للعالم الخارجي. إذ بلغت عبادة ستالين الزعيم الأوحد للاتحاد السوفييتي طيلة ٢٣ عاماً، أوجها في عام ١٩٥٠ وبخاصة بعد امتداد سلطاته إلى دول أوروبا الشرقية إثر الحرب العالمية الثانية، وفي عام ١٩٤٩ انضمت الصين إلى المعسكر الاشتراكي بزعامة الاتحاد السوفييتي، وأصبح ثلث سكان العالم خاضعاً للحكم الشيوعي.

اندلعت الحرب الكورية في شهر حزيران من نفس العام الذي وصل فيه غورباتشوف إلى موسكو، وأثر الهزائم التي أحاقت بقوات الأمم المتحدة والقوات الأمريكية، بدا وكأن الاهتراء قد أخذ ينخر القوة الأمريكية. في حين شهد العالم الاشتراكي تماسكاً ووحدة سياسية شاملة امتدت من برلين حتى شنغهاي ومن ارخانغلسك إلى كانتون، وتربع ستالين بسياسته الديماغوجية على قمة هذا المعسكر. وكان في عام ١٩٥٠ يملك من القوة السياسية ما لم يملكه أي حاكم آخر في التاريخ الحديث. ولم تكن وحدة المعسكر الاشتراكي قريبة من الواقع الفعلي كما كانت في ذلك العام، رغم

أنها حجبت الكثير من الخلافات الداخلية كالتي ظهرت في وقت لاحق عبر الخلاف السوفييتي ـــ الصيني.

كان ستالين في كل مكان لوحات زيتية، تماثيل نصفية وكاملة، صوره الفوتوغرافية تنظر إلى المواطن السوفييتي والبولندي والصيني والكوري الشمالي... إلخ، عند كل منعطف كلماته تزين جدران المدارس والمصانع والمزارع الجماعية وقاعات المحاضرات في طول البلاد وعرضها. وكان بالنسبة لسكان الاتحاد السوفييتي (أب الشعوب والزعيم الحكيم للشعب السوفييتي وراعي العلم والعبقري الأعظم في كل الأزمنة والشعوب) بل كان يوصف بزعيم الإنسانية التقدمية في صراعها المرير ضد قوى الشر المتمثلة بالامبرياليات الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية.

كانت مشاعر العداء لأمريكا قوية لدرجة أنه حتى أيامنا هذه ورغم سياسة الاسترخاء والوفاق من الصعب التخلص من آثارها. ذلك لأنها كانت مشاعر حقيقية، ولا يمكن لأي طالب درس في الاتحاد السوفييتي في الفترة التي تواجد فيها غورباتشوف في الجامعة، أن ينسى ذلك. أركادي شيفتشنكو Arkady Shevchenko الأمين العام المساعد للأمم المتحدة سابقاً، وهو سوفييتي لجأ إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٨، عاصر تلك الفترة إذ كان طالباً في كلية العلاقات الدولية الشهيرة وتخرج منها عام ١٩٥٤ أي قبل عام واحد من تخرج غورباتشوف. يقول أركادي إن أمريكا كانت الشيطان الأكبر وكان معظم الطلبة على قناعة تامة بأن الولايات

المتحدة الأمريكية هي المسؤولة عن كافة مشاكل العالم. وأضاف لقد تركت هذه الصورة تأثيرها الشديد على نفسي ولم استطع التخلص منها إلا بعد عدة سنوات حيث زرت الولايات المتحدة الأمريكية.

وللسيد فراتسلاف بيتشوتا ذكريات عائلية، ويقول «الجو السائد ثقيل، حرية العيش محدودة جداً، وقد بدت الحرب الكورية وكأنها نتيجة طبيعية للحرب الباردة». ويضيف زميله نيزنانسكي: «كنا نسمع ونحن طلاب في الكلية أننا على عتبة الحرب، وأن العدو الحالي هو الولايات المتحدة الأمريكية. وكان هذا الكلام يكرر على مسامعنا يومياً. كما قيل لنا مراراً ولطلاب الثانويات أيضاً إن الإنسان السوفييتي أعلى مستوى من الإنسان الغربي، وإن الصعوبات التي نواجهها ما هي إلا وقتية وعلينا تحملها لنكون مستعدين لمواجهة الصراع القريب».

لم يسجل غورباتشوف مشاعره تجاه الولايات المتحدة الأمريكية إبان وجوده في جامعة موسكو ولكن لا شك أن لهذه التوجيهات المتكررة التي تصف المجتمع الأمريكي بالشرير، صدى لديه. وقد سمع الغربيون الذين اجتمعوا إلى غورباتشوف في مطلع الثمانينيات، عندما بدأ يجتذب الاهتمام نقداً مستمراً منه وخاصة تجاه أسلوب الحياة الأمريكية. وفي الوقت الذي لا يتكر ملينار أثر هذه التوجيهات الستالينية في مطلع الخمسينيات فإنه يحاول إدراجها في إطارها العام أي بين ستالينية تلك الأيام واتجاه غورباتشوف نحو الإصلاح، ويقول: «كان ككل واحد منا ستالينياً ولكن

كي تكون مصلحاً شيوعياً حقيقياً لا بد وأن تكون ستالينياً حقيقياً في السابق».

لم تترك ساعات المحاضرات والتدوات الطويلة إضافة إلى الزمن اللازم للدراسة، فرصة للطلبة للتمعن في سيل المعلومات التي كانت تقدم لهم يومياً، ومعظمهم لم يجد الوقت الكافي سوى للدراسة والمراجعة والعودة بالقطار إلى غرفهم الواقعة شمال شرق موسكو.

ولم يكن في مبنى إقامتهم ما يغريهم بالعودة إليه. وما زال فندق الطلبة سترومينكا Stromynka قائماً حتى الآن. وهو بناء قاتم مربع الشكل واقع في نهاية شارع سترومينكا عند طرف جسر البحارة الممتد فوق نهر يوزا Yauza في ضاحية سوكولينكي Sokolniki المبنى حالياً لا علاقة له بجامعة موسكو وإنما هو مقر إدارة المعهد الاتحادي لصناعة المحركات.

أما النوافذ العريضة الحديثة فهي دليل على أن الطابقين العلويين قد أُضيفا لاحقاً، أما البناء الأصلي فهو أقدم بكثير يعود إلى عهد بطرس الأكبر (١٦٧٢ ــ ١٧٢٥) وكان ثكنة عسكرية. ثم أُضيف له طابقان، وفي مطلع الخمسينيات دُعي (القرية الطلابية) وأصبح أشبه بثكنة عسكريا تضم عشرة آلاف طالب.

الظروف الحياتية في هذا البناء كانت بدائية جداً، الطلاب والطالبات يعيشون في البناء نفسه وإن كان في غرف منفصلة، وكانت كل غرفة تستوعب بين ستة وخمسة عشر طالباً، وهناك مطبخ واحد في كل

طابق إضافة إلى غرفة مغاسل ومراحيض عامة دون أي حمام، وكان غورباتشوف وزملاؤه يذهبون مرتين في الشهر إلى الحمامات العامة، الغرف خالية من أي أثاث عدا الأسرَّة، وبالتالي يُبقي الطلبة أغراضهم الشخصية داخل حقائبهم ويضعونها تحت السرير، وفي المبنى صالة عرض أفلام تلقى فيها المحاضرات أحياناً. وكان غورباتشوف وملينار يستيقظان في الثامنة صباحاً وبعد ارتشاف قدح من الشاي مع قطعة من الخبز يسرعان إلى أقرب محطة للقطار باتجاه الكلية.

كانت المخصصات المالية قليلة تتراوح بين ٢٠٠ ــ ٣٠٠ روبل وهي بالكاد تكفي الطعام والضروريات. وتبعاً لقول أحد الطلبة آنذاك استمر الزعيم السوفييتي المقبل بارتداء البنطال نفسه عاماً إثر عام. حتى الشاي كان باهظ الثمن بالنسبة للطلاب. أما الوقعة الرئيسية فيتم تناولها في الكلية نفسها في مطعم يستوعب ١٥٠ طالباً وبالتالي كان مزدحماً باستمرار. والطعام سيّئ تبعاً لشهادة ملينار، ولكن بطاقات المسرح كانت زهيدة الثمن، وبالتالي كثيراً ما تردد الطلاب عليه. أيام الآحاد مخصصة عادة للتجوال في شوارع موسكو أو زيارة بعض الأصدقاء، أما العطلة الصيفية فهي للتدريب العسكري إذ كان الطلبة لا يساقون إلى الخدمة الإلزامية بل كانوا يشتركون في تدريبات لضباط الإحتياط خلال العطل الصيفية.

كانت التسلية الأكثر شعبية بالنسبة لكافة الطلاب السوفييت في مطلع الخمسينيات رغم الحديث عن حرب وشيكة الوقوع مع الغرب، هي

مشاهدة الأفلام الأمريكية. وإذ كانت القوات السوفييتية المنتصرة في الحرب العالمية الثانية قد جلبت معها آلافاً من الأفلام من المستودعات النازية في برلين والمدن الألمانية الأخرى: مارلين ديتريتش، ايرول فلين، وربما رونالد ريغان، شخصيات معروفة للطلاب السوفييت في السنوات الأخيرة للحكم الستاليني رغم الحظر. ولكن لم يكن يذكر للطلبة اسم المخرج أو الممثل ولا الدولة المنتجة، وأحياناً كان يشطب اسم الفيلم. وجل ما كان يقال: نعرض الآن شريطاً أجنبياً. هذا ما يذكره فراتسلاف بيتشوتا.

الأفلام الأكثر شهرة كانت أفلام طرزان للممثل جوني ويسمالر وقد تكرر عرضها مراراً في قاعة محاضرات (قرية الطلاب) وعادة يتناول الطلاب الشاي بعد العرض وأحياناً قطعة من الكعك ثم يخلدون للنوم.

فقدان الحرية الفردية والضغط الدراسي المستمر، والسكن المختلط، أدت إلى زيادة في جذب الجنسين إلى بعضهما البعض. ولكن العلاقات الجنسية خارج نطاق الزوجية خطرة سياسياً واجتماعياً في ظل الأخلاقية الستالينية، وكان هذا الوضع مرهقاً لطلاب دون أقارب ولا أصحاب ولا ترفيه. لذلك تعددت الزيجات رغم معرفة الطلبة بأنه قد تمر أشهر قبل أن تتاح الفرصة للزوجين العيش معاً. تعرّف ملينار على فتاة تشيكية مثله فتزوجها، وإن كان هذا الزواج لم يستمر طويلاً إذ طلقها قبل انتهاء مدة الدراسة، ومع ذلك كان لهذا الزواج أثره التاريخي. ففي نفس المهجع الذي

تقيم فيه زوجة مليونار تعيش فتاة مثقفة جداً تدرس الفلسفة وتدعى رايسا ماكسيموفنا تيتورينكو Raisa Maximovna Titorenko .

كانت رايسا طالبة ذات شعبية واسعة، جميلة وذكية. وقال مليونار لصديقه غورباتشوف: عليك أن تشق طريقك بالقوة عبر حشد المعجبين بها لتتعرف إليها. وهي أصغر من غورباتشوف بعام واحد، وابنة مهندس في السكك الحديدية، وبالتالي خبرت حياة المنزل والمحيط الثقافي. تقابلا في حصة رقص وكان غورباتشوف قد ذهب إلى هناك للسخرية من زميل له يدعى فلاديمير ليبرمان Vladimir Lieberman المداوم الدؤوب على رقص الفالس، وهو يكبر غورباتشوف بثماني سنوات، وعلى الرغم من كونه طالباً فإنه عقيد سابق في الجيش السوفييتي، وهو إضافة إلى ذلك يهودي مما خلق له بعض المشاكل في دراسته للحقوق في وقت لاحق. جذب غورباتشوف بوجهه اللطيف وشعره الأسود في العشرينيات من عمره انتباه رايسا الذكية المستقلة والجذابة. وعلى الرغم من كونها أكثر ثقافة منه فإن ذلك لم يؤثر عليه بل قد تكون ثقته بنفسه الظاهرة أحد الأسباب التي جذبتها إليه.

وفي فترة التعارف كانت رايسا تصطحب زميلها الجديد إلى المسرحيات والحفلات الموسيقية. زميلة غورباتشوف ناديزدا ميخاليفا Nadezhda Mikhaleva تذكرهما جيداً وقد قالت للسيد روبرت شير Robert scheerمن لوس انجلوس تايمز Los Angeles Times في أواخر عام ١٩٨٧

بمناسبة اجتماع طلبة جامعة موسكو القدامى: «كانت رايسا ذكية وجميلة وما زالت كذلك، فما المانع أن تلعب دوراً قيادياً؟».

ويعتقد ملينار أن ما أعجبها في غورباتشوف هو بعده عن الفظاظة، ومعاملته إياها كزميلة محترمة مشاركة في الإهتمامات والمناقشات. وذلك على النقيض من أسلوب التعامل التقليدي بين الشبان السوفييت مع الفتيات.

إلى جانب النشاطات المسرحية والموسيقية كانت هناك بعض اللحظات الجميلة أمضياها في مهاجع سترومينكا إذ كان الطلبة يساعد بعضهم بعضاً في توفير جو حميم عند الضرورة. وعلى جدار مهجع غورباتشوف علقت لوحة تحدد دور كل طالب بالحصول على ساعة حرة لنفسه، في حين يذهب الباقون إلى أماكن أخرى، اللوحة بالطبع كانت تنص على أن الوقت الحر هو للتنظيف، كم مرة استفاد غورباتشوف ورايسا من ساعات التنظيف هذه، لا أحد يعلم ولكنهما في مطلع عام ١٩٥٤ قررا الزواج.

جرت مراسيم عقد القران بصورة بسيطة جداً، زواج طلابي بأقل نفقات ممكنة، ولا شك أنها كانت قصيرة جداً ووفق القانون السوفييتي، وإثر الإجراءات الرسمية أقام حوالي ٣٠ من أصدقاء العروسين حفلة صغيرة في زاوية من مطعم فندق الطلبة، لم يكن هناك أي شهر عسل، أما ليلة الزفاف فقد أمضياها في مهجع غورباتشوف بعد أن وافق جميع زملائه على النوم في أماكن أخرى، ويقول ملينار: «كان على الجميع الاختفاء وقد فعلوا ذلك

ليلة واحدة، وفي اليوم التالي عادت رايسا إلى مهجعها في حين عاد زملاء العريس إلى أسرتهم، ومضت عدة أشهر قبل أن يتمكن العروسان من العيش معاً وذلك بعد أن أنجز بناء ناطحة السحاب الجديدة على تلال لينين حيث خصصت غرف للمتزوجين من الطلبة.

كانت لثقة غورباتشوف بنفسه، ونباهته ونضوجه بالإضافة إلى اهتماماته المتشعبة، أثرها لدى العديد من الطلاب الذين عرفوه، لم يحرم المشروبات الكحولية على نفسه لأن ذلك كان قد يبدو شاذاً، ولكنه كان نادراً ما يتعاطاها. وتبعاً لزميله ليبرمان فإن أهم صفاته القدرة على المزج بين الشيوعي المتفاني والكره الشديد للبيروقراطية.

وقد صرح ليبرمان لأحد الصحفيين بأن غورباتشوف كان على شفير الإنشقاق. ففي أحد الدروس اغتاظ غورباتشوف جداً لأن الأستاذ أصرَّ على قراءة كل صفحة من كتاب جديد لستالين وبصوت عالٍ بدلاً من تحليل النص، ومن ثم اشترك مع ليبرمان في كتابة رسالة مغفلة من التوقيع للمدرس، تقول بأن الطلبة كافة قادرون على القراءة، وعندما وجدها الأستاذ انفجر غضباً، وتلاها على الطلبة متهماً صاحبها بعدو الاشتراكية، توقف غورباتشوف بهدوء وقال إنه كاتب الرسالة، وذكَّر الأستاذ بقناعاته الشيوعية ودوره الطليعي كعضو كومسومولي، وأضاف إنه ما زال يرى أن أسلوب الأستاذ في تقديم كتاب ستالين غير صحيح، وعلى الرغم من أنه تعرض لتوبيخ رسمي بسبب موقفه هذا فقد تمَّ تبديل الأسلوب.

كان غورباتشوف استناداً لذكريات ملينار وسواه، ميالاً للإختلاط بالطلبة الأكبر منه سناً، وبخاصة العسكريون القدامى الذين شاركوا في الحرب العالمية الثانية أمثال ليبرمان دون أن يتبجح بإنجازاته السياسية، وكان باستطاعته فعل ذلك لو حمل شعار الوشاح الأحمر العمالي الذي سبق أن حصل عليه، بل إن هذا الوشاح إضافة إلى تفوقه في المجال الدراسي السياسي كان سيوفر له مساعدة من أساتذته. ولكن ملينار يعتقد أن مثل هذا الأسلوب بعيد عن طبيعة غورباتشوف الذي يفضل أن يحقق بنفسه ما يصبو إليه. وقد كتب ملينار واصفاً الزعيم السوفييتي المقبل بقوله: «كان متفتح الذهن، ذكياً دون أن يؤدي به ذلك إلى الوقاحة، يعرف كيف يصغي، ويتمنى لو كان الآخرون كذلك، نظيفاً وتواقاً للمساعدة وحسن النية، اكتسب سلطة طبيعية غير رسمية عبر تمسكه بكرامته، وكان إصلاحياً بالفطرة».ومع ذلك يعترف ملينار بالطبيعة المعقدة لزميله، ويعتقد بأنه إنسان ذو عدة شخصيات متراكبة تجمع بينها ثقة شديدة بالنفس، وهذه الصفة الأخيرة قد تشكل خطراً في المستقبل لأن غورباتشوف العصامي الذي كون نفسه بنفسه معرض للمبالغة في تقييم صفاته الذاتية، وكان واضحاً أنه يتوجه إلى ممارسة مهنة المحاماة بعد تخرجه مثلنا جميعاً.

الكسندر ستروماس الذي يعرف غورباتشوف جيداً رغم تخرجه من الكلية قبله بثلاث سنوات يصفه بالتصميم ورباطة الجأش والترتيب: «كان منظماً جداً، منضبطاً جداً، ومجتهداً» ويضيف ستروماس «إنه ممتن جداً لغورباتشوف الذي استخدم نفوذه السياسي كعضو نشيط في الكومسومول

لتخليصه من ورطة سياسية في الجامعة. أما نيزنانسكي الذي يوجه النقد لغورباتشوف عادة يعترف بأن هذا الأخير قد ساعده في استعادة منصب كان قد حصل عليه بجدارة بعد التخرج، ثم أُعطي لسواه لأسباب سياسية، فقد وجّه غورباتشوف احتجاجاً واستطاع بعد جهد من إعادة الحق لصاحبه. وفي مناسبة أخرى تبعاً لنيزنانسكي احتج غورباتشوف أثناء التدريب العسكري على أسلوب أحد المدربين الذي كان يجبر الطلاب على القيام بتمارين منهكة، دون راحة إثر انتهاء تدريب على العدو لمسافة ثمانية أميال، وقد نجح في تصحيح هذا الوضع.

ويذكر ملينار أن غورباتشوف انتقد أمامه تصرفات أجهزة الأمن واعتبرها غير منطقية. ففي صيف عام ١٩٥١ مع انتهاء العام الدراسي الأول عاد غورباتشوف إلى بريفولنوي للمساعدة في الحصاد، في حين ذهب ملينار إلى براغ ومنها أرسل بطاقة لزميله، وأدى وصول البطاقة إلى إرباك المسؤولين في وزارة الداخلية المسؤولة عن كافة القضايا الأمنية في الاتحاد السوفييتي. إذ أن كل ما يصل من الخارج هو موضع شبهة حتى لو أتى من دولة اشتراكية شقيقة. وقال غورباتشوف لصديقه لاحقاً إن مدير الشرطة قد سلمه البطاقة بنفسه بعد تقدير خطرها على الأمن والتحقيق معه حول مرسلها، وقد أمكن لغورباتشوف طبعاً إقناع المسؤول، وقد ضحك الصديقان من الكارثة التي كان يمكن أن تقع بسبب بطاقة بريدية بريئة.

أبدى بعض المواطنين السوفييت السابقين استغرابهم الشديد من طيبة غورباتشوف تجاه صديقه ملينار، وهم يعتقدون أنها كانت لرغبة الأول

بإقناع الثاني بوجهة نظره الخاصة . ولا يشكّون بأنه كان من المطلوب من غورباتشوف كتابة تقارير أمنية عن زميله لأنه أجنبي ، ومن غير الطبيعي أن يعرب سوفييتي عن أفكاره بصراحة تامة أمام أجنبي ما لم يكن ذلك لغاية ما . قد يكون غورباتشوف قد كتب تقارير إلى الجهات الأمنية حول صديقه لأنه في الواقع كان خلال سنواته الدراسية يتميز بنوعين مختلفين من التصرف ، الأول وعلى نطاق ضيق من الأصدقاء ، ومن بينهم ملينار ، انتقاده الصريح لبعض مظاهر السياسة الداخلية السوفييتية في ظل ستالين . ويؤكد زملاؤه السوفييت أن مثل هذا النقاش السياسي كان يدور فعلاً في حلقات ضيقة . أما المظهر الثاني المختلف تماماً ، فهو الجانب الرسمي الممثل بصلابة غورباتشوف كقائد كومسومولي حريص على خلق انطباع جيد لدى المسؤولين الذين يراقبون تصرفاته . ومن هنا اختلفت آراء زملائه حوله تبعاً لمن يعرفه عن قرب ، أو لمن يرى فيه القائد الكومسومولي المندفع .

واستناداً لذكريات ملينار أيضاً التي يؤيدها بعض الطلبة القدامى الذين ما زالوا في الاتحاد السوفييتي والموالين للحكم فيه ، كان غضب غورباتشوف حقيقياً على أسلوب الدعاية السوفييتية الداخلية . وقد ظهر ذلك واضحاً عندما تناقضت التصريحات الرسمية حول الحياة في المزارع الجماعية مع خبراته الشخصية فيها . وفي إحدى المناسبات كان الصديقان يشاهدان شريطاً سينمائياً من الأشرطة الدعائية الستالينية وعنوانه (قوازق كوبان) وكان نموذجاً صارخاً للإعلام الدعائي ، ويروي قصة المزارع الجماعية في الثلاثينيات ، والنجاحات التي حققتها ، ثم اجتماع الفلاحين الفرحين

مساءً حول مائدة عامرة بعد يوم شاق. وكان غورباتشوف قد خبر الواقع الفعلي في القوقاز الشمالي، وعرف مدى الحرمان الذي يعانيه الفلاحون هناك، فعلق بسخرية «هذا ليس صحيحاً مطلقاً».

ويضيف ملينار أنه يذكر فترة دراسة قانون المزارع الجماعية وانتقادات غورباتشوف له استناداً لخبراته الشخصية، وفشل هذا القانون في الواقع العملي وفي الحياة اليومية، وبأن العنف هو الوسيلة الوحيدة القادرة على ضمان سير العمل في هذه المزارع.

مثل هذه الأقوال تتطلب جرأة كبيرة من مواطن سوفييتي خاصة أمام شخص أجنبي. ربما كانت صراحة غورباتشوف مع ملينار بسبب كونه أجنبياً وبالتالي أكثر تعرضاً للخطر. وقام التشيكي بمنطقه الأوروبي ــ مجازفاً بنفسه ــ بإطلاع صديقه على بعض مظاهر العالم الخارجي التي كان ذُكرها مُحَرَّماً داخل الاتحاد السوفييتي. وهناك عامل آخر ساعد في تمتين الصداقة بينهما، وشجعهما على تبادل الأفكار بكل صراحة وحرية، وهو أن كليهما كان شيوعياً مؤمناً بأن الاشتراكية أي العقيدة السوفييتية هي السبيل الوحيد لوضع كافة الطاقات الإنتاجية بأيدي الدولة الموجهة من قبل الحزب الشيوعي الذي ينفرد بالسلطات السياسية، والقادرة على ضمان مستقبل الاتحاد السوفييتي. أخيراً وخلافاً لباقي الطلبة الذين كانوا يتجنبون التورط في النواحي السياسية، اهتم الصديقان اهتماماً شديداً بالسياسة لقناعتهما أنهما

قادرة على تبديل حياة الشعوب، وتطويرها. وكان كلاهما رغم كل المثالب متفائلين بمستقبل المجتمع السوفييتي.

كانت مناقشاتنا السياسية صريحة جداً، يقول ملينار وكان غورباتشوف واحداً من القلة الذين يتعرضون للنواحي السياسة، في حين تجنب معظم الطلاب مثل هذه المواضيع. عرفته شيوعياً متفانياً وكنا معاً على قناعة تامة بأن الشيوعية هي طريق المستقبل. كان متفائلاً دوماً ولكنه ميال للإصلاح بطبيعته. في إحدى الندوات كتب ملينار بحثاً لإلقائه على زملائه جاء فيه أن على الدولة أن تلعب دور المراقب على النشاط الاقتصادي لا دور المنظم لكل مظهر فيه، وعليها أن توزع المكافآت على مستحقيها. وقد جرت مناقشة حامية لهذا الطرح وقف في أثنائها غورباتشوف قائلاً: أنت على حق يجب أن تتناسب المكافأة مع الإنتاج ولكن الواقع ليس كذلك. وعلى العدالة الاشتراكية أن تطبق عبر التوزيع الاشتراكي للمكافآت المتناسب مع نوعية وحجم العمل المنجز.

هذه المناقشات الفكرية التي أمتعت غورباتشوف وملينار لم تكن سوى جانب واحد من نشاطات الأول خلال سنواته الجامعية. فإلى جانب اهتماماته النظرية ظهرت على غورباتشوف رغم صغر سنه دلائل واضحة على مهارته السياسية.

ففي منهاج كلية الحقوق تدريب عملي في قاعة محكمة على مهام المحامي الفعلية، وكانت طريقة ممتازة تبرز مهارات الطالب في إقناع القضاة

بوجهة نظره مع إعطائه ملء الحرية بإختيار الأسلوب المناسب، ثم تُوجَه له الملاحظات القيّمة من قِبل محترفين خبراء. وقد اكتسب غورباتشوف خبرة واسعة من هذه الطريقة، وأثبت اليوم أنه أكثر الحكام السوفييت مقدرة على مخاطبة الجماهير منذ لينين.

لم تقتصر نشاطات غورباتشوف السياسية في الجامعة على النواحي الجدلية والبلاغة الخطابية، بل تعدتها وبشكل رئيسي إلى التحرك الحماسي والناجح على صعيد النشاطات الشبيبية الجامعية. فهو عندما وصل إلى موسكو كان يحمل توصية قيّمة من لجنة كومسومول كراسنايا غفارديتسكي Krasnogvardeisky بمحافظة ستافروبول كراي. وقد أمنت له هذه التوصية على الأرجح مكاناً في جامعة موسكو. ويعتبر صديقه نيزنانسكي أفضل حكم على نشاطاته في الكومسومول لأنه كان يقوم بنشاط حزبي واجتماعي في نفس قطاع غورباتشوف كراسنايا بريزنيا Krasanaya Presnya وعملا معاً في مزرعة في ضواحي موسكو خلال سنوات الدراسة، وزامله في معسكر التدريب العسكري قرب كوفروف Kovrov على بعد ١٥٠ ميلاً شرقي موسكو. أما ملينار فإنه لم يتعرض إلى هذه النشاطات مطلقاً ربما لأنه لا يعتبرها هامة جداً في حياة صديقه سواء الطلابية أو المهنية.

في حين كان نيزنانسكي الذي هجر الاتحاد السوفييتي بشكل شرعي عام ١٩٧٨، أكثر انفتاحاً وصراحة.

لا شك أن غورباتشوف كان حذراً في نشاطاته الشبيبية خلال السنة الجامعية الأولى. وفي عام ١٩٥١ أُنتخب لمنصب كومسورغ Komsorg للدورة أي المسؤول عن التنظيم الكومسومولي في الصف. ثم أصبح أثناء فترة الدراسة أحد أعضاء اللجنة المسؤولة عن النشاط الشبيبي في كلية الحقوق والمؤلفة من أحد عشر شخصاً. ثم بين عامي ١٩٥٢ــ١٩٥٤ أصبح المنظم الكومسومولي لكلية الحقوق بكاملها.

ويَدَّعي نيزنانسكي أن انتخاب غورباتشوف لأول منصب كومسورغ قد تمَّ بصورة مشبوهة، إذ احتل هذا المنصب بدلاً عن شاغله السابق بعد أن دفعه لشرب الخمرة حتى السكر الشديد في الليلة السابقة للاجتماع، ثم عمد إلى توجيه النقد اللاذع له موضحاً أن تعاطي الكحول بهذا الشكل غير لائق بشاب شيوعي مسؤول. هذا الحدث لم يؤكد من باقي الطلبة إما لأنهم لا يذكرونه أو يفضلون عدم الخوض بالحديث عنه. ولكنهم يتذكرون جيداً أن الشاب القادم من الريف كان صارماً في تنفيذ واجباته الشبيبية ومتحرراً في تصرفاته بشكل غير عادي.

هناك تناقض ملموس في ذاكرة زملاء غورباتشوف إبان شغله منصب كومسورغ، حتى نيزنانسكي يعترف بأن غورباتشوف استخدم نفوذه السياسي لمساعدته في المرحلة النهائية من دراسته، وسعيه للحصول على أول وظيفة له خارج الكلية. كما أن ستروماس يذكر فضل غورباتشوف في تخليصه من ورطة سياسية، وفي حين لم يتنصل غورباتشوف من الحملة

اللاسامية التي شهدها الاتحاد السوفييتي عام ١٩٥٣ في الأشهر الأخيرة من حياة ستالين، ويؤكد ليبرمان اليهودي أنه كان يتصرف بحكمة ووعي غير طبيعي. من جهة أخرى يتذكر نيزنانسكي أن عدداً كبيراً من الطلبة وصلوا متأخرين على اجتماع كومسومولي لوجودهم في المسرح مما أثار غضب غورباتشوف ووبخ أفراد مجموعته بشدة، في حين اكتفى باقي رؤوساء المجموعات بالطلب من المتأخرين عدم تكرار ذلك.

المثير للقلق في تصرفات غورباتشوف كانت براعته في إقصاء الطلبة الذين لهم أقرباء مساجين في معسكرات العمل، أو لهم سمعة سياسية سيئة، عن المنظمات الشبيبية وأحياناً عن جامعة موسكو نفسها.

ويذكر ليف يودوفيتش جيداً نبرات صوت غورباتشوف عندما كان مسؤولاً عن منظمة الكومسومول في الجامعة وهو يطالب بطرد أحد الطلبة لكونه ألقى نكتة حول العمل في الكولخوز. ويضيف يودوفيتش الذي تخرج من كلية الحقوق قبل غورباتشوف بعامين، قائلاً: كنا أنا وزملائي نخشاه لبراعته العقائدية. وعندما التقيته لأول مرة في السنة الأولى نبهني أحد الزملاء بقوله كن حذراً معه. وكان بعضنا يعتبره بوجهين، فهو لطيف جداً مع زملائه تواق لمساعدتهم، ولكنه متى وقف على منصة تختفي طيبته، ويكتفي بتكرار الشعارات. أما نيزنانسكي فيقول إنه بينما كان غورباتشوف يكره التبجح ولم يسعَ مطلقاً إلى استغلال موقعه لمصالحه الشخصية المادية

أو المعنوية ، فإن اهتمامه بإظهار ارتباطه بخط الحزب علناً أفقده شعبيته لدى بعض الطلبة .

من هذا كله نستخلص صورة غورباتشوف الشاب الطيب الدقيق لواجباته الكومسومولية ، والمهتم بالمحافظة على نظافة غرفته . ومن بين الجوائز التي حصل عليها إبان وجوده في الكلية هي جائزة أنظف مهجع في حين يعود الفضل بذلك لرئيس المهجع الذي كان مساعداً سابقاً في الجيش . ما بين أهم واجبات غورباتشوف كرئيس الفرقة الكومسومول هي النشاط الدعائي في حي كراسنايا بريزنيا وكان على كل فرد من مجموعته مساعدة السكان على تنفيذ واجبهم الإنتخابي إذ إن المساهمة إجبارية ولا تقل عادة عن نسبة ٩٩ر٩٪ وكذلك مساعدة ساكني الحي في مشاكلهم اليومية كإصلاح السقف أو المجاري المنزلية وسواها . وكان غورباتشوف راغباً حقاً بمساعدة السكان ولكنه إلى جانب ذلك كان يسعى للحصول على أكبر عدد من الثناءات عبر براعته السياسية الملتوية . ويدّعي نيزنانسكي إن الإهتمام الأساسي لغورباتشوف لم يكن ضمان رفاهية سكان الحي ، بقدر ما كان السعي للحصول على درجة الامتياز لمجموعته من شباب الكومسومول .

في عام ١٩٥١ عام توليه منصب الكومسورغ أصبح غورباتشوف عضواً مرشحاً للحزب الشيوعي السوفييتي ، وبعد عام كامل من التحقيق والتحضير حضر خلاله اجتماعات الحزب دون أن يكون له حق المساهمة في

اتخاذ القرارات، قُبل الشاب كعضو نظامي في صفوف الحزب. وقد تمَّ ذلك قبيل الإجتماع الأخير للحزب في عهد ستالين أي المؤتمر التاسع عشر، وقد عُقد في جو عدائي جداً ضد الغرب وضد الأعداء الداخليين. على أية حال تبنّى غورباتشوف الخط الرسمي للحزب سواء من حيث المظهر أو من حيث قناعته الشخصية. وهذا ما أثار التساؤلات حول أحد مظاهر دور غورباتشوف في جامعة موسكو، ومن ثم توليه قيادة منظمة الكومسومول فيها عام ١٩٥٣ وخاصة تصرفه في الفترة التي جرت فيها (مؤامرة الأطباء) في الأشهر الأخيرة من حياة ستالين.

من الصعب جداً تقييم المدى الذي بلغته حالة الشك التي سيطرت على معظم سكان الاتحاد السوفييتي في السنوات والأشهر الأخيرة من حياة ستالين. كان الاتحاد السوفييتي قد امتلك حديثاً القنبلة الهيدروجينية في الوقت الذي بلغ به التوتر العالمي أوجه، والحرب الكورية ما زالت مستعرة، رغم أن الموقف العسكري فيها قد أصبح في وضع الجمود والترقب، والسياسة الخارجية لستالين قد أُصيبت بالنكسات في أوروبا ــ انهيار حصار برلين إثر الجسر الجوي ١٩٤٨ ــ ١٩٤٩، والفشل في قلب نظام الرئيس تيتو Tito في يوغوسلافيا وقيام حلف شمال الأطلسي عام ١٩٤٩، مما زاد في تصميم الزعيم السوفييتي على فرض إرادته السياسية عبر القارة. وقد أظهرت الوثائق السرية للحزب الشيوعي التشيكي التي كشف النقاب عنها في ربيع عام ١٩٦٨، أن ستالين قد فكر عام ١٩٥٢ وما بعده بالقيام بغزو عسكري لأوروبا الغربية.

داخلياً كان الشعب السوفييتي يعيش مرحلة تطهير جديدة استهدفت المثقفين الذين لم يتبعوا خط الحزب في الثقافة والفن. وقد أُطلق على تلك الفترة اسم جدانوفتشينا Zhdanovshchina نسبة إلى عضو المكتب السياسي أندريه جدانوف Andrei Zhdanov أداة ستالين في تنفيذ تدابير التطهير، وفرض إرادة الزعيم على صعيدي البحوث العلمية والمؤلفات الثقافية.

وعلى الرغم من وفاة جدانوف عام ١٩٤٩ استمرت هذه الحملة حتى وفاة ستالين عام ١٩٥٣. ومنذ عام ١٩٤٩ بدأت الحملة تتخذ اتجاهاً خطراً إذ بدأ النظام يصف الأعداء الداخليين بمن لا أصل لهم ولا دولة ولا قومية، وهذا دليل واضح على اتجاهها اللاسامي إذ كان هناك عدد كبير من المثقفين السوفييت البارزين من أصل يهودي. وتبنت وسائل الإعلام خطاً جديداً يفيد بأن كافة المخترعات الهامة في العصر الحديث هي روسية. وطرد عدد كبير من الباحثين والأساتذة اليهود من مناصبهم في الفترة ما بين ١٩٤٩ ــ ١٩٥٣. وفي شهر كانون الثاني عام ١٩٥٣ بلغت الحملة ضد (اللاقوميين) ذروتها، إذ بدأ ستالين يخطط لتنفيذ ضربة شاملة لتطهير الحزب والمجتمع من جميع الذين فقدوا ثقته. الجانب الرئيسي في مخططه كان القضاء على لافرنتي بيريا Lavrenti Beria مدير الشرطة السرية الذي بدأ ستالين نفسه يخشى قوته. وإن كان قد هدف أيضاً إلى التخلص من كامل أعضاء المكتب السياسي عبر ما سُمّيّ بمؤامرة الأطباء Doctors' Plot، وقد حاك خطته ببراعة وتتلخص بأن أطباء الكرملين ومعظمهم من اليهود قد

عمدوا إلى تسميم زعيم الاتحاد السوفييتي طيلة سنوات، وعلى الرغم من بطلان هذه التهمة فقد وجدت تصديقاً لها، خاصة بعد اعتراف بعض أطباء الكرملين اليهود بكافة التهم. وقد انتزع هذا الاعتراف بالقوة طبعاً. وكانت المرحلة الثانية لخطة ستالين هي إلقاء القبض على عدة آلاف من اليهود عبر الاتحاد السوفييتي، ونقل معظم أفراد الجالية اليهودية إلى سيبيريا.

في نهاية شهر كانون الثاني عام ١٩٥٣ اكتسبت حملة التطهير من اللاقوميين والصهيونيين مدى واسعاً وعمت المجتمع السوفييتي. وعقدت الاجتماعات في المنظمات الشبيبية ونقابات العمال وفي المصانع والمزارع الجماعية وسواها، ودعت جميعها إلى التخلص من أتباع الأطباء أينما كانوا في المجتمع السوفييتي. وتمّ طرد الأساتذة اليهود من جامعة موسكو ومن كافة المؤسسات التعليمية الأخرى. ويقول ديمتري سايمز **Dmitri Simes** وهو سوفييتي مهاجر يعمل حالياً كباحث في مركز كارينجي **Carnegie** للسلام في واشنطن: عرفت من والدي أن حملة معادية للسامية قد بدأت. وقد تمّ توقيف وإعدام أحد رفاقه.

أما ميشيل تاتو الفرنسي **Michel Tatu** الخبير في الشؤون السوفييتية ومؤلف كتاب عن حياة غورباتشوف نُشر في باريس عام ١٩٨٧ فيقول «كان على غورباتشوف أن يعوي مع الذئاب مثله مثل الآخرين، ومن المحتمل جداً أن يكون الكومسومولي الشاب قد شارك في إلقاء الخُطب مهاجماً اللاقوميين وخونة الطب والتحررية الفاسدة».

ملينار الذي كان مقرباً من غورباتشوف في تلك الفترة لم ينفِ أن زميله قد شارك في كافة النشاطات البلاغية اللاسامية، ولكنه يصر على أن غورباتشوف لم يكن مسؤولاً عن أية إساءة لطلبة الكلية أو الجامعة. في حين يقول ستروماس الذي يقدر لغورباتشوف مساعدته له في مشاكله السياسية: «أنا واثق من أنه لو طلب إلى غورباتشوف لعب دور في الحملة اللاسامية لنفذ ذلك دون أي تردد».

أخيراً فارق الرجل الواقف وراء مؤامرة الأطباء، الحياة في الخامس من شهر آذار ١٩٥٣. وتلقى العديد من المواطنين السوفييت، وليس اليهود فقط منهم، النبأ بمشاعر الراحة. ولكن ملايين السوفييت العاديين الذين كانوا ينظرون إلى ستالين نظرة طوباوية، وأباً للشعوب الذي لا يخطئ، ومنقذ الأمة وقائدها إلى النصر على الألمان إبان الحرب العالمية الثانية، تلقوا وفاة ستالين بحزن. وخرج الناس إلى شوارع موسكو يُعبِّرون عن مشاعرهم بشكل هستيري.

ثم وفي الوقت الذي توقف فيه الحديث عن مؤامرة الأطباء فجأة كما بدأ، اختفت صور بيريا **Beria** من الأماكن العامة منذ شهر حزيران، وعلم فيما بعد أن رئيس الشرطة السرية قد أُلقي القبض عليه، وأُعدم على أيدي أعضاء المكتب السياسي خوفاً من أن يصبح الديكتاتور السوفييتي الجديد. وخلال العامين التاليين شهد الاتحاد السوفييتي تبدلات هامة، وكانت أولى بوادر عهد ما بعد ستالين إعادة الإعتبار لضحايا ستالين السياسيين. ورفعت تهمة (أعداء الثورة) عن سكان الكولاك الذين بلغ عددهم ثمانية

ملايين، وأصبح بإمكانهم العودة إلى المدن السوفييتية. وفجأة شعر المواطنون السوفييت أن الأنظمة القانونية التي لقنت لهم على أساس أنها عادلة والأكثر إنسانية هي في الواقع مناقضة لما آمنوا به، وكانت الصدمة قاسية على الشباب الذين اعتبروا ستالين زعيماً منزهاً عن الخطأ. ويعلق المؤرخ السوفييتي روي ميدفيديف Roy Medvedev على ذلك بقوله: «من السهل علينا الآن التعامل مع تلك الفترة كأحداث أصبحت في ذمة التاريخ، ولكنها كانت ذات أهمية بالغة لكل إنسان آنذاك مؤمن بالشيوعية ومثاليتها، وخاصة لمن كان يتهيأ ليصبح رجل قانون، كانت ضربة قاسية لمفهوم العدالة الذي كان يلقن للطلبة».

تبعاً لشهادة نيزنانسكي تبدلت وجهة نظر غورباتشوف نحو ستالين بشكل جذري بعد وفاته، ظاهرياً على الأقل. ففي الوقت الذي كان فيه غورباتشوف يتجنب الحديث عن الزعيم السوفييتي خلال حياته، أصبح منطلق اللسان بعد آذار ١٩٥٣ يتحدث عن الظلم الذي تعرض له الفلاحون في الثلاثينيات، ويذكر كمثال على ذلك أحد أقربائه الذي تمّ توقيفه ظلماً.

وبدأ غورباتشوف بوصف عهد ستالين «بنصف أبيض ونصف أسود» ويعترف بأن ستالين قد ارتكب أخطاء في السياسة الداخلية خاصة في مجال الزراعة، كما أن العزل التام للاتحاد السوفييتي كان خطأً.

الواقع أن تبدل موقف غورباتشوف المفاجئ تجاه ستالين كان ظاهرياً

أكثر منه واقعياً، إذ أوضح ملينار بجلاء أن صديقه كان خلال محادثاته الخاصة يعرب عن تحفظاته تجاه خط الحياة في الاتحاد السوفييتي في ظل الديكتاتور وإن كان بدون ذكر اسم ستالين صراحة. ولكنه عندما تولى منصب كومسورغ كان عليه أن يشيد علناً بإنجازات الزعيم السوفييتي، وحرص على الاعراب عن شكوكه أمام أصدقائه الخلص فقط الذين يطمئن ويثق بهم جداً. ويضيف ملينار ولكن أقرب أصدقاء غورباتشوف كانوا معروفين للآخرين بكونهم ستالينيين مخلصين.

ورد في سيرة حياة غورباتشوف الرسمية أنه شغل وظيفة كومسورغ منذ عام ١٩٥٢ وحتى تخرجه عام ١٩٥٥. وفي حين هذا صحيح تقنياً، يدّعي نيزنانسكي أن وضع غورباتشوف (كقائد كومسومولي) في جامعة موسكو قد أصيب بنكسة عام ١٩٥٤ عندما دمج معهد الدراسات القانونية الذي كان مستقلاً مع كلية الحقوق في جامعة موسكو مما أدى إلى تواجد منظمتين للشبيبة. وبغية وضعهما تحت إدارة موحدة خلق منصب أمين عام كومسومولي للجامعة وبدأت منافسة شديدة بين الطرفين حول هذا المنصب. ورغم الدعم القوي الذي لقيه غورباتشوف من أفراد كليته فإنه واجه منافسة شديدة من قبل كومسورغ المعهد المدعو كوندراتنكو Kondratenko الذي أيده معظم المحاربين القدماء الذين خاضوا الحرب العالمية الثانية سواء منهم من كان في كلية الجامعة أو في المعهد، وبالتالي تغلب على غورباتشوف وربما كانت هذه الخسارة لصالح الأخير إذ سمحت له بمتابعة نشاطه السياسي عبر منظمة موسكو الشبيبية.

مع اقتراب موعد تخرجه عام ١٩٥٥ أيقن غورباتشوف بأنه لن يجد وظيفة ملائمة له في موسكو وسوف يضطر للعودة إلى ستافروبول. وكان قد قرر عدم امتهان المحاماة ربما لأنه لم يكن راغباً بعمل تقيد فيه حريته الأجهزة الأمنية. وهو على أية حال أكثر اهتماماً بالنشاط السياسي، وبما يمكن للسلطة أن تفعله لتبديل حياة الفرد والأمة. ولاشك أن منظمة الكومسومول في ستافروبول كراي التي ساندته في الدخول إلى جامعة موسكو، كانت ترغب بعودته إلى جذوره وتولي بعض الأعمال لديها ولو لفترة من الزمن.

ولم يكن القرار ــ لو كان هناك فعلاً مجال للاختيار ــ سهلاً عليه. فزوجته رايسا معتادة على حياة المدينة وخاصة في عاصمة الاتحاد السوفييتي حيث الحياة والنشاطات الثقافية أغنى من أية مدينة أخرى، وأفضل من الريف طبعاً، وكان غورباتشوف قد أبلى بلاء حسناً: إذ حصل على شهادة كلية الحقوق بدرجة امتياز، وقد دل على ثقة تامة بالنفس في المواقف العامة، وأرخى ذاته ورفاقه في تصرفاته الشخصية واكتسب احترامهم إبان توليه قيادتهم. وكان هذا إنجازاً كافياً لشاب ذي خلفية ريفية فقيرة. وأهم من هذا كله اكتشف غورباتشوف متعة الحياة السياسية: المداهنة والإقناع والمناقشة والتخطيط. ولكنه شعر بعدم اكتمال تصوره لما يكن أن تكون عليه السياسة المثلى للاتحاد السوفييتي. وربما تساءل كيف سيكون العالم آنذاك. وكان عليه أن يبدأ بتسلق سلم الجهاز السياسي الطويل، والمحفوف بالأخطار حتى يصل إلى موقع يملك فيه السلطة الكافية لتحويل الأفكار إلى وقائع.

لا شك أن غورباتشوف ورايسا قد شعرا بغصة في حلقهما عندما تحرك القطار من محطة كورسك مغادراً موسكو المدينة التي أمضيا فيها سنوات صعبة وشاقة. ولم يعودا إليها للإقامة الدائمة إلا بعد ٢٣ عاماً وجه خلالها غورباتشوف مهاراته ونشاطاته للعاصمة الريفية النائمة ستافروبول الواقعة على مسافة ألف ميل من موسكو.

الفصـــل الثالـــث

أعــوام ستـافروبــول

هبات قوية نشطة من الريح، بضع ثغر من سكان ستافروبول يسلكون طريقاً مختصرة عبر ساحة لينين، وهي ساحة عريضة واسعة مرصوفة تمتد من السبراتان Sparatan، مركز قيادة لجنة المنطقة للحزب الشيوعي وهي تتألف من خمسة طوابق، إلى الملعب الرياضي للمدينة (الستاد) البيضاوي الشكل. بعض النظرات على التمثال التذكاري للينين، الذي يمسك بإحدى يديه طية قبة سترته ويرنو بعينيه بكل ثبات وثقة إلى المستقبل المشرق من فوق القاعدة الغرانيتية للتمثال، والمقامة عند مدخل مبنى قيادة الحزب. ولا يكترث المارون من هناك أو يهتمون باللوحة الكبيرة المعلقة فوق بوابات الميدان الرياضي المكتوب عليها: ياأبناء ستافروبول: أعيدوا إلى الحياة بكل ثبات وعزم المنهاج المنظم في المؤتمر السابع والعشرين للحزب. بل إنهم ليسرعون إلى الاحتماء بالفناءات الأكثر حماية والتي تحف

بها المحلات التجارية، حيث توجد أبراج مخزن الإدارة المركزي ذي الصبغة العصرية، ورمزه المختصر تسوم TSUM، مرتفعة فوق الأبنية الغريبة المؤلفة من طابقين، والمدهونة بألوان أقلام الرسم الباستيل مع زركشة بيضاء.

إن طلبات الدعاية للمبدأين الحديثين: الانفتاح (غلاسنوست Glasnost) وإعادة البناء (بيريسترويكا Perestroika) تكون مبعدة إلى المكان الثاني أثناء ساعات البيع والشراء في هذه المدينة من جنوب روسيا، والتي تقبع على جانبي خط العرض ٤٥ درجة فوق بقعة أرض عالية تمتد ما بين القمم المغطاة بالثلوج لجبال القوقاز والسهوب المنحدرة باتجاه الشمال. فمعظم سكانها الذين يتجاوزون الـ ٣٠٠٫٠٠٠ نسمة منهمكون قبل ذلك بمضيف ذي مسائل أكثر علمانية أو دنيوية، قد يكون البعض متجهين إلى مسرح أكران Ekran ذي الشاشة الكبيرة العريضة الموجودة في الأسفل تماماً من ساحة لينين القريبة للحصول على تذاكر لرؤية عرض للفيلم الياباني (الفرسان الساموراي السبعة)، وسيعرض قريباً: (داندي الملقب بالتمساح)، المعروف بشكل أفضل على أنه الفيلم الاسترالي (داندي التمساح). كما قد يكون البعض الآخر مهتمين بتفقد أسعار اللحوم في مخازن المؤسسة التعاونية، مدمدمين تحت أنفاسهم متذمرين بسبب أن المساعدات المالية المقدمة من منتجات محلات الجزارة، المدارة من قبل الدولة، تذهب في الوقت الحاضر بصورة رئيسة إلى الناقهين من جرحى الحرب وإلى المحاربين القدماء. وقليل منهم قد يغريهم الوقوف أثناء سيرهم في طريقهم، وذلك للتفرج على صالة السوق الحديثة الطراز المغلقة، والتجمع حول باقة من

زهور اللؤلؤ الأقحواني البيضاء، التي قد بيعت بأسعار تضخمية من قبل بائعي الزهور الفلاحين.

إن المشهد يمكن حدوثه في أية واحدة من مائة مدينة ريفية في طول بلاد الاتحاد السوفييتي على امتداد رقعتها، إلا أن هذه العاصمة الإقليمية تدّعي لنفسها ميزة أساسية. إنها بلد غورباتشوف، المكان الذي بدأ فيه حياته السياسية. غير أن لائحة السياسيين الرسميين البارزين الذين لهم جذور في ستافروبول لا تتوقف عند هذا الحد. فهناك قائد سوفييتي آخر للحزب هو يوري أندروبوف Yuri Andropov، كان قد ولد في مدينة ناغوتسكانا وهي محطة للخطوط الحديدية في مقاطعة ستافروبول كراي بالإضافة إلى ذلك فإن ميخائيل سوسلوف، المفكر الايدلوجي للمكتب السياسي، كان قد استلم وظيفة رئاسة حزب ستافروبول كراي من عام ١٩٣٩ إلى عام ١٩٤٤. كما أن هناك سياسياً رسمياً آخر من الذين صعدوا إلى مواقع الشهرة من ذلك المركز هو فيودور كولاكوف Fyodor Kulakov، الذي كان خبير الكرملين في الشؤون الزراعية في أعوام الستينيات وأعوام السبعينيات من هذا القرن، وكان بمقدوره أن يلعب دوراً مصيرياً في دفع الشاب اليافع غورباتشوف إلى الأمام قبل أن تنتهي خدمة كولاكوف السياسية بصورة فجائية في عام ١٩٧٨. فبسبب هذه التقاطعات والتشابكات لكثير من خطوط القوى السياسية في قطاع بعيد من أراضي روسيا، كان مفكرو الكرملين وعلماؤه يتكلمون مراراً عن (علاقة وارتباط ستافروبول).

إذا كانت القلوب الآن تدق بسرعة أكبر عند ذكر اسم غورباتشوف في مدينة ستافروبول فإن مواطني هذه المدينة يبذلون جهدهم في عدم إظهار ذلك. ويمكن، على أبعد تقدير، أن يتجرأوا على التلفظ بتهكمات ودودة أو نكات لطيفة، أثناء تناول وجبة أكل في مطعم، حول ماذا يمكن أن يظن أو يفكر (ميشا) غورباتشوف، (المياه المعدنية) الأمين العام عن استمتاعهم بدورق زجاجي مزخرف من مشروب الفودكا. يوجد في مكتب صحيفة أخبار الحزب الشيوعي للقطاع، ستافروبول لسكايا برافدا، كتاب لحفظ الصور (ألبوم) يحتوي على صور الزوار البارزين، ويضم صورة بسيطة بالأبيض والأسود لغورباتشوف بصفته زعيماً لحزب ستافروبول كراي، أُخذت أثناء أحد اجتماعاته مع المحررين الصحفيين المحليين. وبعد أن تمَّ انتخابه لأعلى مركز في الحزب الشيوعي في شهر شباط من عام ١٩٨٥، فإن التغيير الوحيد الذي تمَّ حدوثه على العنوان الموجود على دفتر ملاحظاته هو إلصاق شريط من الورق مكتوب عليه لقبه وعنوانه الجديد فوق ذلك القديم الموجود سابقاً.

الإعلانات الكبيرة في زاوية الشارع، والمكتوبة بأحرف حمراء على أرضية بيضاء تعبر عن الرسالة السياسية الجديدة للكرملين: الديمقراطية الشيوعية المأثورة ليست هي نداء حرب فقط وإنما هي عطر البيريسترويكا. الشعارات الأدبية بنصوص مشابهة في مدن أخرى تعرضت إلى ذكر غورباتشوف بالاسم، أما في منطقة أهله وبلده فإن أفكار القادة السوفييت هي مشاركة بصورة أكثر تواضعاً في (المواد) من وجهات نظر وقواعد

الحزب. فستافروبول ليست مكاناً مناسباً لبناء وتشييد ضروح عبادة الشخصية.

خلال المهنة السياسية المحلية التي امتدت وشملت أكثر من عقدين من السنين، عمل غورباتشوف رحلة بطيئة السرعة متأنية غير ملحوظة دعائياً، مبتدئة من موقع متواضع بسيط في منظمة الكومسومول المحلية إلى أعلى وظيفة في القطاع وهي رئاسة منظمة حزب ستافروبول كراي، وذلك قبل ذهابه إلى موسكو في عام ١٩٧٨. إذا كان الشاب السياسي النشيط ذو الهمة العالية قد وضع عينيه على مركز في الكرملين خلال أعوامه التي عمل فيها في ستافروبول، فإنه كان حريصاً على عدم إظهار ذلك، وهذا بعيد الشبه عن حاكم طموح لإحدى الولايات الأمريكية الذي كان يستطيع أن يرمي قبعته في حلبة رئاسة الجمهورية بإعلانه إلى الرجال الصحافة بكل بساطة بأنه يريد ويرغب في وظيفة المكتب البيضاوي، أولئك الرجال الذين يصعدون إلى برج السلطة والقوة في الاتحاد السوفييتي يقدمون عرضاً مثالياً للمهارة في الستر والإخفاء، فيعرفون متى يتكلمون ويصرحون، ومتى يمسكون ألسنتهم ويصمتون. لم يكن غورباتشوف مستثنى من ذلك. أولئك الرجال من ستافروبول الذين واجهوا وقابلوا الأمين العام المقبل للحزب خلال الأعوام التي عمل فيها في وسطهم يعترفون بأن ظهوره وبروزه مؤخراً كمصلح إبداعي قدير وزعيم عالمي كبير أصابهم بالمفاجأة وأذهلهم. وحسبما قال أحد الصحفيين من ستافروبول: «كان غورباتشوف أميناً للحزب في القطاع بشكل مثالي يُحذى حذوه، وقد نهض وبرز بسبب معرفته وثقافته الواسعة،

لقد كان شخصاً من الواضح الجلي أنه فوق المستوى المحلي الريفي للمناطق، ولكننا لم نتوقع أبداً أن عصراً جديداً يمكن أن يبتدىء معه ».

عندما وصل غورباتشوف من موسكو في صيف عام ١٩٥٥، وكان عمره يومئذ ٢٤ عاماً، مع زوجته رايسا، بعد أن أمضى أعوام الدراسة الجادة في جامعة موسكو العائدة للدولة فإنهما لا بد قد وجدا صعوبة في تكييف وتنظيم حياتهما في ستافروبول.

يتذكر فلاديمير ماكسيموف Vladimir Maximov، وهو كاتب سوفييتي يعيش حالياً في باريس، وكان قد عمل في صحيفة الكومسومول المحلية في منتصف أعوام الخمسينيات من هذا القرن، أن عاصمة الإقليم التي كان عدد سكانها حينئذ حوالي فقط ١٢٠ ألف نسمة، أي أكبر قليلاً من (قرية زراعية متضمنة تتركز حياتها بصورة تامة على شارع واحد فقط).
منظر شارع كارل ماركس لا يزال له حديقة منحدرة مبهجة ومساكن أنيقة من طراز القرن التاسع عشر ولها سياجات من الحديد المشغول حول مداخلها، إن الشارع يُذكّر بالأيام الماضية البعيدة عندما كانت ستافروبول تلعب دور المضيفة لأولئك الروسيين اللامعين في الأدب والشعر وأمثال الشعراء: الكساندر بوشكين Alexander Pushkin وميخائيل ليرمونتوف Mikhail Lermontov والروائي لوي تولستوي Loe Tolstoy، ومع ذلك فإن شارع منظر كارل ماركس لا يمكن أن يذكر ويقاس بنفس المستوى مع شارع غوركي Gorky وكوزنتسكي موست Kuznetsky Most أو أي من

البوليفارات الأخرى الجليلة المهيبة، والمؤثرة في النفس، والتي تركها غورباتشوف خلفه في العاصمة السوفييتية.

إذا كان لدى غورباتشوف أي شكوك أو ريب حول تعيينه بوظيفته الجديدة، وهي العمل في إحدى الإدارات العائدة إلى كومسومول مدينة ستافروبول، فإنه من الواضح لم يتبين ذلك ولم يظهره.

وقد استلم أعباء الدعاية وبرامج التربية السياسية التي هي خبز وزبدة الذراع الفتي للحزب الشيوعي، ومع مثل هذه الرسالة المهمة التي اضطلع بها تحت ترقيته إلى منصب السكرتير الأول في منظمة المدينة بعد عام واحد فقط، وذلك في عام ١٩٥٦، إذا أخذنا في الإعتبار الدوامة والاضطراب والفوضى في مكاتب مفوضي الدولة الرسميين في مختلف أرجاء البلاد عقب توقيف وإعدام رئيس الشرطة السرية لافرنتي بيريا في عام ١٩٥٣، والانكسار الذي تبع ذلك لآلة ستالين في الرعب المخيف من سجون ومعسكرات اعتقال مع الأشغال الشاقة، فإن غورباتشوف قد اعتبر نفسه محظوظاً لوجوده خارج الوظيفة الرسمية.

غير أن هناك مزيداً من الكشوف عن الحقائق ستأتي مستقبلاً، ويمكن لأولئك إخفاء وستر أي أفكار وتنبؤات سياسية كان غورباتشوف لا يزال بإمكانه التمسك بها حول ستالين، ووضع اتهاماته وإداناته الشيوعية موضع الاختبار والفحص.

في صباح اليوم الخامس والعشرين من شهر شباط لعام ١٩٥٦ ألقى

نيكيتا خروتشوف خطاباً سرياً حول (عبادة الشخصية وملابساتها ونتائجها) وذلك أمام المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي، كان الخطاب حدثاً كبيراً ذا أهمية تاريخية عظيمة بحيث أن تأثيراتها لا تزال موجودة، وشعر بها الناس في الاتحاد السوفييتي حتى الوقت الحاضر رغم مرور أكثر من ثلاثة عقود من السنين على تاريخ إلقاء الخطاب.

بناء على ما كتبه المؤرخ روي ميدفيديف حسب تقديراته، فإن خروتشوف وبين يديه نص خطاب لم يعرضه مقدماً لإخذ الموافقة عليه من رفاقه في مجلس رئاسة الحزب، قد استغل الفرصة السانحة بين انتخاب اللجنة المركزية الجديدة للحزب وبين الإعلان الرسمي لأسماء أعضائها ليعرض ويفضح جرائم ستالين أمام المؤتمر، وبينما كان جمهور المشاهدين في قاعة الكرملين الكبرى، والمستورون بعناية وحذر عن أعضاء المؤتمر، يتابعون كلماته برعب مذهل، قدم السكرتير الأول عرضاً وكشفاً عن موجة الإرهاب العظيمة والتعذيب والتوقيف بالجملة والحبس، تطهيراً وتصفية بحيث وصلت تلك الموجة إلى أعلى المراتب في النخبة الحاكمة للكرملين، وانتزعت من اللجنة المركزية لعام ١٩٣٤ ثلثي أعضائها، وتجرأ خروتشوف أيضاً إلى تلويث وثلم سمعة وصيت سجل ستالين الحربي الفارغ كالطبل، واضعاً اللوم عليه عن سلسلة الإنكسارات والإندحارات في عام ١٩٤١ بحيث مكنت قوات هتلر النازية من التقدم إلى أبواب موسكو تقريباً.

لقد برهن خطاب خروتشوف السري على أن يكون أي شيء سوى

السرية ، إذ أصبح بعد زمن قليل يقرأ في كل مكان على سطح الكرة الأرضية بنص ترجمة انكليزية طبقها وسهلت تداولها إحدى الإدارات المفضلة لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية. مهما كانت المعارضة ، التي قد يكون الحرس الستاليني القديم أثارها ضد نشر نص التقرير عن (عبادة الشخصية) في داخل الاتحاد السوفييتي ، فإنها تعثرت كما يظهر بصورة جلية عندما نزل المؤيدون الغاضبون للدكتاتور المتوفى إلى الشوارع في بلدته بجمهورية جورجيا لإحياء الذكرى الثالثة لوفاته ، بعد شهر واحد من خطاب الخامس والعشرين من شهر شباط كان النص الكامل له متداولاً في طبعة خاصة على رجال الحزب الرسميين للقطاعات والمدن ، وهم بدورهم رتبوا اجتماعات في مختلف البلاد والمناطق حيث قرئت فيها تشهيرات خروتشوف بكل تفاصيلها.

كانت المناقشة أو المناظرة في الغالب عاصفة وانفعالية ، لأن الغضب والكبت اللذين تراكما على مر السنين في النفوس وجدا أخيراً منفذاً فانطلقا منه ، غير أن المؤرخ ميدفيديف يسترجع ويقول بأنه أحياناً لا تجدي أية مناقشة تقريباً على النص. كثير من العاملين في الحزب الشيوعي الذين كانوا أتباعاً مخلصين لستالين غادروا بسكوت وصمت مطأطئين رؤوسهم ، وهم بلا شك مذهولون جداً ، بل مصعوقون ومستحيون من أن يخاطروا بالنظر إلى عيني أي واحد من الناس. لا بد أن غورباتشوف ، وهو حينئذ شاب مسؤول فعّال في كومسومول ستافروبول ، قد وجد نفسه تحت ضغوط قاسية

لشرح انقلاب الأحداث وانعكاسها المذهل على العمال والطلاب ضمن منظمة الشبيبة الشيوعية.

ما كان يحدث في الماضي من عودة السجناء من الغولاغ إلا يسيراً ونادراً تقريباً أصبح بعد مدة وجيزة كأنه الطوفان، لأن لجاناً وهيئات خاصة شكلت وعينت في المعسكرات للبحث وإعادة النظر في قضايا وحالات الملايين من الناس الذين كانوا موقوفين بصورة تحكمية وتعسفية خلال حكم وتسلط ستالين الإرهابي المخيف. الشعب بتمامه قد مارس وجرب شعوراً جديداً رائعاً للحرية، العنوان الذي وضعه الكاتب السوفييتي إيليا أهرنبورغ Ilya Ehrenburg's لروايته (ذوبان الثلج) رسمت ربما الصورة المعبرة لعصر التغيير والتحول الذي تبع وفاة ستالين، والروائي فلاديمير دودينستوف Vladimir Dudintsev أشار إلى المفهوم الجديد للقيم الشخصية الإنسانية في كتابه (ليس بالخبز وحده) وبما أن القوانين القاسية المصاغة بمهارة فنية والتي كانت على عهد ستالين قد ذابت وتلاشت، فإن الإنتقادات قد ناقشت وجادلت مبحث وموضوع (الأمانة والإخلاص في كتابة الأدب) على صفحات جرائد وصحف موسكو الأدبية، وبين ليلة وضحاها ظهر على المسرح جيل جديد من الشعراء ــ أندريه فوزينستيسكي، وينفني يفتوشينكو، وبولات اوكودزهافا ــ الذين سوف يعيرون أصواتهم التي تترنم بالشعر الغنائي، بعد ثلاثة عقود من السنين، لتأييد ودعم سياسة غورباتشوف في الانفتاح والصراحة. المزاج الجديد المبتهج انتقل بالعدوى إلى جميع أرجاء موسكو في صيف عام ١٩٥٧، عندما فتحت العاصمة

السوفييتية أبوابها، التي كانت مغلقة لزمن طويل، أمام العالم لتستقبل وترحب بالزائرين الأجانب الذين جاؤوا للمشاركة في المهرجان السادس للشبيبة العالمية.

حتى إقليم ستافروبول الريفي فإنه كان مكتسحاً بتيارات التغيير القادمة من العاصمة. فالكاتب المهاجر ماكسيموف يتذكر مقابلته مع غورباتشوف، وكان يومها الأمين العام الأول لمدينة ستافروبول، في مكتب التحرير لصحيفة الكومسومول المحلية، حيث كان المسؤول الرسمي الشبيبي يأتي إلى هناك لمناقشة التطورات المثيرة الجارية في موسكو. وبناء على أقوال ماكسيموف فإن غورباتشوف كان حذراً دائماً بالتمسك في خط الحزب، إلا أنه رحب بالتحول والتبدل في الحياة السياسية السوفييتية. رغم أن غورباتشوف قد اكتسب فيما بعد سمعة وشهرة بأنه أحد المهاجمين المتحمسين الحاملين على الرزانة، فإنه لم يكن كارهاً ولا رافضاً للمشاركة في كأس أو اثنتين من الشراب مع بعض الأصدقاء في أثناء حدة المناقشة وارتفاع حرارتها. ويسترجع ماكسيموف الذاكرة فيما بعد فيقول: «كان يجلس معنا بطريقة عفوية، فيرفع سدادة قنينة النبيذ، ويتكلم عادة في الأمور السياسية. وظهر حديثاً تقرير خروتشوف عن الجرائم التي نسبت إلى عهد الستالينيين. كانت البلاد بكاملها لا تزال ترزح وتتمايل تحت ثقل الصدمة في توقع خاطئ وأمل زائف، ربما يمكن لفجر من الحرية والديموقراطية أن يبزغ ويظهر».

إذا كان ذلك البصيص الأول من الضوء قد برهن على أنه سابق لأوانه، فإن تجارب وخبرات سني الذوبان قد تركت بصمة ثابتة لا تُمحى على التفكير السياسي لغورباتشوف ومعاصريه، الذين لا يزالون يطلقون على أنفسهم أحياناً لقب (أطفال المؤتمر العشرين).

كان غورباتشوف في بعض المناسبات يأتي على ذكر هذا الاختيار الحزبي لمفترق الطرق، وذلك أثناء تنقيح وتطوير خطته السياسية الخاصة بالبيريسترويكا أو إعادة البناء. خلال اجتماع مع أعضاء الحزب العاملين في الحزام الزراعي لقطاع موسكو في شهر آب من عام ١٩٨٧، أجرى غورباتشوف حديثاً شخصياً حول أعوام خروتشوف، ذلك كان مشطوباً من سجل الاجتماع عندما تبين وظهر في الجريدة اليومية الناطقة باسم الحزب الشيوعي (برافدا)، وعندما كان واقفاً يطل على جمهور المشاهدين وكلهم آذان صاغية، لاحظ أن جميع الموجودين، باستثناء البعض منهم، كانوا من جيله وأمثاله، رجال سياسة فعالين نشيطين من الذين بدأوا مهنتهم السياسية في زمن انعقاد المؤتمر العشرين للحزب. «لقد خبرناه كله وإننا نعرف الزوائد والنواقص، الأرباح والخسائر» وقال وصوته يجلجل ويرن بالانفعال: «دعونا نجدد أنفسنا»، وبدا لوهلة وجيزة، أنه تحول وانقلب إلى واعظ ديني إحيائي روسي.

لقد قام الشبيبي غورباتشوف، حتى في أيامه التي عمل بها مع الكومسومول، بإظهار غيرة وحماس تشبهان إلى حد ما غيرة وحماس المصلح

الديني أو الاجتماعي، كأنما هو يستطيع تصحيح أخطاء الماضي بتفانيه الشخصي لصالح القضية. إنه لم يكن كسائر الآخرين من الشبيبيين الموجهين في رابطة الشبيبة، الذين يقومون بزياراتهم التربوية إلى مواقع العمل بأسلوب عدم الاهتمام. وعندما سأل صحفي محلي منذ مدة قريبة طاقم البناء والإنشاء في أحد مشاريع الري في منطقة ستافروبول عما إذا كانوا يستطيعون تذكر أي من أسماء أعضاء الكومسومول الذين جاؤوا لتشجيعهم ورفع معنوياتهم في الاجتماعات الدعائية المتكلم عنها، فإن اسم غورباتشوف قد علق في أذهانهم، لقد تذكروا شخصاً يدعى (ميشا) الذي ظهر في موقع القناة وأمضى اليوم بكامله معهم. عندما شنَّ خروتشوف حملة في شهر تموز من عام ١٩٥٨ (عن تقوية وتمتين رباط الوصل بين المدرسة والحياة) وفق نص العبارة التي وردت في مذكرته إلى اللجنة المركزية، وجد في غورباتشوف مؤيداً وداعماً متحمساً، ومما لا شك فيه أن تَذَكُّره لأعوامه المقسمة بين صفوف الدراسة وحقول القمح في بريفولنوي، ومساعدة قائد الكومسومول في تنظيم برامج الدراسة والعمل لأطفال المدارس الذين أطلق عليهم اسم (ألوية ستافروبول التعليمية) جعل ذلك بعد فترة وجيزة نموذجاً صالحاً للتطبيق في جميع أرجاء الدولة.

إن مهارة غورباتشوف الواضحة الجلية في تطوير سياسات الحزب على مستوى مدينة ستافروبول أكسبته تعييناً لوظيفة إدارة الدعاية والأنباء في كومسومول ستافروبول كراي في عام ١٩٥٨، وبعدها بقليل ترقى إلى السكرتير الثاني الإقليمي، ومن ثم في عام ١٩٦٠ إلى مركز السكرتير الأول

مع كرسي في اللجنة الحزبية لستافروبول كراي. وخلال حضوره الاجتماعات في مركز قيادة الحزب، قابل غورباتشوف المهندس الزراعي الطموح فيودور كولاكوف، الذي عانى منذ وقت قريب من تنحٍّ وعزل سياسي، وتمّ نقله من وزارة إنتاج الحبوب في موسكو ليصبح رئيساً لمنظمة حزب ستافروبول كراي. كان كولاكوف سكرتيراً أولاً للكومسومول في قطاع بينزا Penza ويمكن أن يكون قد شعر وأحسّ بوجود ميل وارتباط خاص مع القائد الشبيبي لكومسومول ستافروبول الذي كان قد تخرج من جامعة الدولة بموسكو. إن الصداقة هي التي بإمكانها، في أي حدث من الأحداث، أن تساعد وتدعم المهنة السياسية لغورباتشوف.

كان العضو العامل لرابطة الشبيبة الشيوعية من بريفولنوي يتعلم أيضاً بعض الدروس حول استعمال وإساءة استعمال أو نبذ التأثير والايحاء، وهي أداة يمكن أن تخدمه جيداً في تقدمه وترقيه من خلال الحكم الاستبدادي البيروقراطي السوفييتي. فلاديمير ماكسيموف يحكي ويخبر كيف أن غورباتشوف كان مرة ملتقياً بشاعر من ستافروبول الذي سأل قائد الكومسومول فيما إذا كان لا يمتنع عن استعمال وسائط اتصالاته ومعارفه للحصول على سيارة فولغا للكاتب الشاعر، وافق غورباتشوف على شد بعض الخيوط القليلة فأصبح الشاعر قادراً على شراء سيارته، ولكنه ما لبث أن باعها في السوق السوداء وعاد فرجع ليسأل صديقه الوثيق الصلة عن واحدة أخرى. «غورباتشوف لا يفقد عادة أعصابه وسيطرته على نفسه»

كما يقول ماكسيموف «لكنه بدأ في تلك المناسبة بالصراخ، وقذف بالشاعر إلى خارج المكتب، آمراً إياه بأن لا يريه وجهه هناك أبداً».

فريدريك نيزنانسكي Fridrikh Neznansky الذي هو في المهجر لاحظ أيضاً جانباً فولاذياً ذا حد قاسٍ لزميله القديم في مدرسة الحقوق عندما كان يعمل كمحقق جرائم في قطاع ستافروبول سنة ١٩٥٦. وباعتبار غورباتشوف رئيساً لرابطة الشبيبة الشيوعية التابعة للمدينة فإنه كان في وضع يسمح له بإبداء النصيحة إلى المسؤولين الرسميين عن المدينة حول فيما إذا كان يجب على أعضاء الحزب العاملين الضالين أن يخضعوا للمحاكمة والمقاضاة الجزائية، ومع أن غورباتشوف لم يثر أي اعتراض أو يرفع أي احتجاج على توقيف عضو من الكومسومول الذي قد أُتهم بجريمة الاغتصاب، لكن السكرتير الأول لمدينة ستافروبول اتخذ وجهة نظر مختلفة عندما بحث نيزنانسكي في تقديم اتهامات ضد سكرتير في الكومسومول الذي كان قد استغل مكتبه ومركزه لاختلاس وسلب الاستحقاقات والديون. قام غورباتشوف باستقباله بطريقة ديموقراطية مهذبة، حسبما يتذكر نيزنانسكي، غير أنه عارض واحتج على أي توقيف على اعتبار أن ذلك سوف يدمر ويعطب كرامة وعزة رابطة الشبيبة الشيوعية، كان قراراً موقوفاً ومدعوماً من قِبل قادة حزب المدينة.

إذا كانت حملة خروتشوف لفك وإسقاط خرافة وأسطورة ستالين قد أرسلت موجات من الصدمات تدمدم وتقعقع عبر مؤسسات الحزب، فإن

اقتراحاته لإلغاء إساءات الاستعمال والإفراط في منح امتياز الحزب وحقه الخاص وإعادة ترقيع وإصلاح الحكم الاستبدادي تخص الحرس القديم ودفعه إلى الثورة العلنية الصريحة. في اجتماع خاص للقيادة في شهر حزيران من عام ١٩٥٧ حاول أعضاء من المجلس الرئاسي للسوفييت الأعلى وهم فياشيسلاف مولوتوف Vycheslav Molotov وجيورجي مالينكوف Georgi Malenkov ولازار كاغانوفيتش Lazar Kaganovich أن ينحوا السكرتير الأول عن منصبه، كان الانقلاب معداً ومبرماً حينما ذهب خروتشوف من فوق رؤوس أعضاء هيئة السوفييت الأعلى، واستحصل على المساندة والدعم في جلسة غير عادية للجنة المركزية للحزب، وحصل خروتشوف على انتقامه بطرد هذه الفئة التي سميت بالطغمة المضادة للحزب من الستالينيين المتفككين إلى خارج مجلس الرئاسة للسوفييت الأعلى. الطريق أصبحت مفتوحة خالية لتوجيه ضربة ثانية ضد ميراث ستالين المتجهم الكالح في المؤتمر الثاني والعشرين للحزب في شهر تشرين الأول من عام ١٩٦١، كان من بين المندوبين الحاضرين السكرتير الأول للكومسومول ستافروبول كراي ميخائيل غورباتشوف.

ذهب الاجتماع إلى أبعد مما حدث في المؤتمر العشرين من فضح وإدانة جرائم ستالين وتوسيع دائرة اللوم والمسؤولية لتشمل أعداء خروتشوف في الفئة المناوئة للحزب. يجب أن يكون غورباتشوف قد جفل وانتفض عندما انقلب الهجوم واتجه نحو المدعي العام السابق أندريه فيشينسكي، الذي كان الذكاء الموجه من خلف القضاء والعدل لعهد ستالين، والذي

تطرقت أفكاره إلى تربية وتعليم جيل كامل من المحامين السوفييت، وبغيرة وحماس محطمي التماثيل المقدسة والأصنام الصادقين، قام الـ ٥٠٠٠ مندوب الحاضرون في القاعة الكبرى للكرملين بإسدال الستار ووضع حدتها في الآثار المتبقية من عبادة الشخصية الفردية. فالمدينة البطلة ستالينغراد أُعيدت لتسميتها السابقة فولغوغراد، وآلاف من المدن والنواحي والقرى والمدارس والمصانع والشوارع والساحات العامة قد تمّ سحب اسم الديكتاتور منها. اللحظة الحقيقية للدراما الجادة جاءت عندما تمّ تحرير قرار بنقل جثمان ستالين من مقبرة الزعماء الشيوعيين (ماوسوليوم) **mausoleum** في الساحة الحمراء حيث كانت مدفونة بجانب ضريح لينين.

غير أن الشاعر يافنجي يافتاشينكو **Yavageni Yevtashenko** عبَّر عن مخاوفه ومخاوف كثير من طبقة المثقفين السوفييت بأن تعويذة ستالين لم تذهب بعيداً بما فيه الكفاية، وذلك في قصيدته الشعرية (ورثة ستالين) ترجى والتمس من الكرملين أن يضاعفوا ثلاث مرات عدد الحراس فوق ضريح القبر، وذلك كي لا يستطيع ستالين أن ينهض من مثواه الأخير فينهض الماضي معه.

بسبب ما يبثه خروتشوف في النفوس من شكوك وريب عن جناح الستالينيين القدماء في الحزب، تمّ إخبار غورباتشوف ورفاقه المعاصرين له بأنهم يعتبرون أمل المستقبل المشرق للأمة والشعب. ونظراً لولع وميل رئيس الوزراء السوفييتي إلى الخلط والمزج والتلاحم بين الحزب والمنظمات

الحكومية قام بفتح الطريق أمام العدد الكبير من خريجي الجامعات الكثر وأمام الحاملين لشهادات أعلى ليلحقوا أو لينتقلوا إلى مناصب ووظائف مماثلة في الدرجة والأهمية لشهاداتهم ضمن مؤسسات ومنشآت الحزب. في شهر آذار من عام ١٩٦٢ كشف خروتشوف النقاب عن خطة مماثلة أخرى لتأسيس وإنشاء منظمات جديدة إدارية للزراعة التي بإمكانها أن تحتل مرتبة اللجان الموجودة حالياً في المناطق والعائدة للحزب والحكومة. اللقب الذي أُطلق على المنظمات الجديدة وهو ــ وحدات الإنتاج الزراعي الأقليمية ــ كان مربكاً ومعطلاً، وكذلك كان استغلالهم وعملهم، اطلعت هذه الوحدات في تجوالها على أعمال أكثر من ٢٥ إلى ٣٠ مزرعة حكومية وتعاونية جماعية في رقعة من الأرض غطت وشملت أحياناً اثنتين أو ثلاثة من المناطق الإدارية القديمة، كانت النتيجة في حالات كثيرة عبارة عن فوضى استبدادية.

أما بالنسبة إلى غورباتشوف فإن الوقت قد حان ليقوم بعمل قفزة من الكومسومول إلى أجهزة الحزب، فقبل وظيفة منظم حزبي في واحدة من الست عشرة وحدة التي قسمت ووزعت من الستافروبول كراي.

لقد احتاج غورباتشوف لأجل وظيفته الجديدة تدريباً نظرياً ليتماشى مع ما كان قد تعلمه أثناء عمله بيديه في حقول بريفولنوي، ولهذا فإنه انتسب إلى دورات تعليمية بالمراسلة في المعهد الزراعي لمدينة ستافروبول. وقبل انتهاء العام كان قد ترقى إلى الإدارة التنظيمية للحزب العائدة للجنة

ستافروبول كراي، وتعتبر مفتاح التوظيف مما سمح له بالتأثير على الترقية والترفيع، أو الحط من القيمة والعزل لعمال الحزب في (النومانكلاتورا nomenklatura)، وهي لائحة بالوظائف والمراكز التي يسيطر عليها الحزب ويراقبها.

إن اهتمام خروتشوف التملكي بالمحاصيل الزراعية المعززة وتدخله المستمر في مسائل ذات ألغاز مثل دورة الغلال لم تجعل الحياة سهلة ميسورة على عمال الحزب في هذه المنطقة من جنوب روسيا المسماة (سلة الخبز). فأحياناً يواجهون أوامر توجيهية مبهمة ومريبة بأن يفلحوا ويحرثوا حقولاً مستحالة (متروكة حولاً بلا زرع)، وأحياناً أخرى يقاسون ويعانون من خطط ومشاريع غير واقعية ولا معقولة مصممة لكي تتفوق على الولايات المتحدة الأمريكية في إنتاج اللحوم ومنتجات الألبان.

وعندما سمح خروتشوف بتعديل الأسعار بما يعادل ٣٠٪ تقريباً بالنسبة لمنتجات اللحم والزبدة في شهر حزيران من عام ١٩٦٢ كوسيلة لتشجيع زيادة الإنتاج، ونظراً لعدم الاقتناع عند الناس، والتبرم من جذوة الإصلاحات لدى القائد السوفييتي سبب الانفجار بشكل علني مكشوف في شمال القوقاز. وفي نوفوشيركاسك Novocherkassk، وهي مدينة في جوار قطاع روستوف Rostov، فتح جنود سوفييتيون النار على جمهرة من الغوغاء يمشون بمسيرة نحو مبنى بلدية المدينة.

كان خروتشوف يخطط أيضاً لإصدار مشروع خطة أخرى تقضي

بهدم وتفكيك ثم إعادة تنظيم الزراعة السوفييتية ، في فصل الخريف من سنة ١٩٦٤ ، ولكن ذلك لم يتحقق أبداً . لقد عزل وطرد في اليوم الرابع عشر من شهر تشرين الأول من مناصبه كأمين أول للحزب الشيوعي وكرئيس للدولة ، متهماً بكل شيء ابتداء من تهمة التصرف تجاه مجلس رئاسة السوفييت الأعلى الحاكم تصرفاً شائناً ومعاملته بتحقير ، إلى تهمة منح تكريمات وتشريفات غير لائقة وغير مناسبة لزعماء دول موالية من العالم الثالث .

وتمَّ تعيين ليونيد بريجنيف Leonid Brezhnev كأمين أول جديد للحزب الشيوعي ، واليكسي كوسيغين Alexei Kosygin اتّخذ منصب رئيس الحكومة ، وكرئيس لمجلس الوزراء . وقد اكتمل الثلاثي الحاكم في عام ١٩٦٥ عندما أصبح نيكولاي بودغورني Nikolai Podgorny رئيساً للجمهورية ـــ أو بشكل أكثر رسمية ـــ رئيس مجلس السوفييت الأعلى . ووفقاً لأقوال المؤرخ ميدفيديوف ، فإن هناك دليلاً بأن طبخة الحزب قد تمَّ تخطيطها في منطقة ستافروبول قبل شهر واحد من سقوط خروتشوف ، وذلك عندما اجتمع نخبة من أعضاء مجلس السوفييت الأعلى ونخبة من أعضاء اللجنة المركزية للحزب بدعوة من زعيم الحزب المحلي كولاكوف لتمضية بضعة أيام (في القنص البري وصيد السمك) بالقرب من بحيرات مانيخ . إنه ليس من المحتمل أن يكون غورباتشوف ، الذي كان لا يزال يعمل في دائرة التنظيم لحزب ستافروبول كراي ، قد لعب أي دور في المخطط . إن ارتقاء كولاكوف إلى مصاف النخبة الحاكمة المستنيرة قد تأكد في ملء شواغر الحزب في شهر تشرين

الثاني من عام ١٩٦٤ ، عندما وُضع في مركز المسؤول عن دائرة الزراعة العائدة للجنة المركزية للحزب .

كان غورباتشوف يترقى أيضاً ويرتفع في مراتب الحكم البيروقراطي المحلي في ستافروبول . وتمّ تعيينه سكرتيراً أولاً في لجنة الحزب الشيوعي لمدينة ستافروبول في شهر أيلول لسنة ١٩٦٦ . وانتقل إلى مكتبه في مبنى الحاكم القديم الواقع في الرقم ٩٤ من شارع منظر كارل ماركس ، وهو بناء مؤلف من ثلاثة طوابق تمّ بناؤه بالآجر الأحمر ، وزركشته بالحجر ، ومدخله محروس بأربعة عواميد كل واحد منها بشكل تمثال امرأة ترتدي أثواباً إغريقية .

حراس النظام الجديد ، ماركس ولينين ، يراقبون باستمرار من منصات قواعدهم في الحديقة العامة عبر الشارع . مهما كان مظهر مقر قيادة حزب مدينة ستافروبول أنيقاً ورشيقاً رشاقة بورجوازية كما يبدو ، غير أنه لم يستطع الحصول على وثائق اعتماد ثورية تعصمه أكثر من غيره . هناك قرب المدخل الرئيسي يوجد لوحة معدنية تنبئ المارّين بجواره جميعاً أن هذا المبنى كان في عام ١٩١٨ مقراً لقيادة المجلس الأول لمفوضي الشعب ، وهو الفرع المحلي للهيكل الوزاري الحكومي في إقليم ستافروبول .

لما كان غورباتشوف معتبراً رئيساً للبلدية بصورة فعلية واقعية فإنه كان من المنتظر منه ليس فقط التأكد من أن سيارات الباص العامة تسير في أوقاتها المحددة ، بل أيضاً القيام بالتنبيه والإرشاد عن آخر وأحدث البلاغات والتعميمات الصادرة من موسكو والمتعلقة بالخطة السياسية الريفية ومحاولة تطبيقها وتنفيذها . حتى في هذه الفترة من حياته المهنية ، أظهر غورباتشوف

ولعاً وميلاً لإيجاد حلول غير متزمتة للمسائل والمشاكل. لقد قرر بأن ستافروبول محتاجة إلى إشادة سيرك دائم لسد حاجة الطلب المتنامي على العروض الترفيهية المسلية من قِبل شعب يتزايد شبابه يوماً بعد يوم. حمل طلبه والتماسه إلى موسكو، ليجد فقط أن الأبواب تغلق في وجهه. لقد أخبروا غورباتشوف أن مدينة بحجم ستافروبول لاتحتاج ـــ ولا تستطيع تحمل النفقة المالية ـــ لسيرك خاص بها. قام غورباتشوف بطريقة سرية خفية، بجمع تمويل للمشروع من منظمات ومعاهد مختلفة متنوعة، وأقدم على مجازفة ومخاطرة تعاونية لإنشاء سيرك خاص لستافروبول. لقد برهن للقائلين «لا وكلا» في موسكو على خطئهم. الخرسانة المسلحة، (القمة الكبيرة) مثل الطبق الطائر، التي ساعد هو في سرعة إشادتها إلى أن اكتملت نتيجة زياراته المتكررة إلى مواقع البناء، وهي الآن تقف شامخة على شارع منظر كارل ماركس.

في أواخر فصل الربيع من عام ١٩٦٦، عندما كان غورباتشوف لا يزال في وظيفته المعين بها في دائرة تنظيم الحزب الإقليمية، جرى إعطاؤه أخيراً لمحة عن العالم الخارجي، فقد قام برحلة لمدة أحد عشر يوماً إلى جمهورية ألمانيا الديموقراطية لكي (يدرس تجارب وخبرات) الرفاق الألمان الشرقيين. الزائر اللطيف الخفيف الظل القادم من ستافروبول تفقد منشآت مزرعة كبيرة لتربية الخنازير، واطلع على لوحة الشرف للطلاب في مدرسة (هويرسويردا بوليتيكنيال Hoyerswerda Polytechnical) للصنائع والفنون المتعددة، وتقبل باقات الورد من أطفال مدرسة الحضانة، وكذلك وجد وقتاً

لتبادل الأنخاب مع مضيفيه الألمان الشرقيين وذهب على طوف يمخر عباب جداول الغابة في سبريوالد Spreewald رجل السياسة العالمي المقبل وأحد زعماء القمة العالمية في المستقبل. زار أيضاً قاعات في قصر سيسيليانوف Cecilienhof في بوتسدام Potsdam حيث قام الرئيس هاري ترومان Harry Truman بالتحضير للقائه المنتظر مع ستالين في عام ١٩٤٥.

إن أول نظرة لغورباتشوف على العالم الرأسمالي أتت أيضاً في عام ١٩٦٦، عندما سافر برحلة إلى فرنسا كفرد من الوفد السوفييتي. كانت نفقات المجموعة مغطاة من قبل جان باتيست دومانغ Jean-Baptiste Doumeng، رجل أعمال يساري فرنسي كان يدعى في بعض الأحيان (بالمليونير الأحمر). عندما سأل ميشال تاتو ــ وهو الخبير بالشؤون السوفييتية ــ غورباتشوف، في عام ١٩٨٥، عن تلك الزيارة، قال الزعيم السوفييتي بأنه قد قضى عدة أسابيع متنقلاً في طول فرنسا وعرضها مرتحلاً في سيارة رينو، قاطعاً ما يقارب من ٥٠٠٠ كيلو متر على عداد السيارة. لقد كانت رحلة غير عادية بالتأكيد لمسؤول رسمي شيوعي. ولكن إذا كان غورباتشوف قد فهم وتوهم أية أفكار جديدة حول المناوئين عقائدياً للاتحاد السوفييتي فإنه احتفظ بها لنفسه.

الحياة في القسم الجنوبي من روسيا القريب من المياه يجب أن تكون قد بدأت تثقل كاهل الزوجين ذوي التعليم والثقافة الموسكوفية. لقد تابع غورباتشوف دوراته بالمراسلة مع المعهد الزراعي في ستافروبول، مُصرّاً على

إجراء امتحاناته تماماً مثل أي تلميذ آخر يفعلها، بالرغم من مركزه كمسؤول أعلى للمدينة، واستلم شهادته كمهندس زراعي ـ اقتصادي في سنة ١٩٦٧، أما زوجته رايسا فقد منحت مرتبتها كمرشحة للعلوم الفلسفية من معهد الدولة بموسكو لفن التعليم والتدريس في نفس السنة، وتابعت مهنتها التعليمية الأكاديمية في ستافروبول، تُعلّم وتُدرّس في معهد فن التعليم والتدريس التابع للمدينة، الذي كان مقره في مبنى قديم لتعليم اللاهوت لا يبعد سوى مقدار بضعة أبنية عن ساحة لينين.

لكن عائلة غورباتشوف كانوا قد وصلوا من قبل إلى الحدود القصوى التي بإمكان الحياة في ستافروبول أن تعرضها عليهم أو تقدمها لهم. لا بد أن الفكرة خطرت على بال وتفكير ميخائيل بأنه خلال قيامه بإدارة عاصمة إقليمية ذات مرتبة من الدرجة ١١٠ بين مدن وبلدان الاتحاد السوفييتي من حيث عدد السكان، فإن صديقه القديم من أيام مدرسة الحقوق زيدينيك ميلينار سبق وترقى إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي.

جاء ميلينار ليزور غورباتشوف في عام ١٩٦٧، وقد وصل بالطائرة إلى كاميني فودي Kamenny Vody، وهي منتجع صيفي في ستافروبول كراي، كان غورباتشوف موجوداً هناك، وهو يضع على رأسه قبعة باناميه، لملاقاته مصطحباً معه سيارة، تعانق الاثنان وغادرا المطار في جولة للمنطقة، تحادثا معاً وشربا بضعة كؤوس خلال فترة ما بعد الظهر وإلى وقت متأخر من المساء، عبّر غورباتشوف عن تأييده ودعمه لحملة إسقاط الستالينية التي قام بها الرئيس المعزول المنحى عن الحكم خروتشوف، ولكنه ناقش واستنكر

التمايل والترنح الضال المخطئ في السياسة الزراعية، تابع غورباتشوف يقول لصديقه التشيكي:

إن بريجينيف كان أفضل من خروتشوف بالنسبة إلى هذا المجال، ولكن قائد حزب ستافروبول لا يزال يشتكي ويتذمر من التدخل المستمر من قبل موسكو في الشؤون الإقليمية المحلية.

لقد بدا على غورباتشوف ما يدل على التشوق والتفكير عندما شرح له ميلينار عن الطريقة التي يعتزم التشيكيون السير بها لتنفيذ برنامجهم الخاص بهم لإسقاط وزحزحة الستالينية، وذلك بتنظيف البيت ابتداء من القمة العليا للحزب الشيوعي في حركة إصلاحية سوف تكون معروفة في المستقبل باسم (الربيع البراغي)، قال غورباتشوف معلقاً: «ربما يكون هناك امكانيات واحتمالات نجاح في تشيكوسلوفاكيا لأن الأحوال والشروط مختلفة».

وعندما عاد الاثنان أخيراً ووصلا إلى شقة غورباتشوف في وقت متأخر من الليل، كانت رايسا غاضبة جداً بسبب كثرة الضجر والملل الذي أنهكها، وكانت هذه آخر مرة أمكن لغورباتشوف وميلينار أن يلتقيا فيها، جاء الربيع البراغي إلى نهاية فجائية مبتورة مع غزو حلف وارسو في شهر آب من سنة ١٩٦٨، وعندما زار غورباتشوف تشيكوسلوفاكيا كأحد أعضاء وفد سوفييتي في عام ١٩٦٩، كان ميلينار في خزي سياسي شائن، وهكذا لم يكن الاثنان بقادرين على رؤية أحدهما الآخر.

لقد أخبر زعيم حزب مدينة ستافروبول رفيقه التشيكي الشيوعي أنه نظر إلى بريجينيف على أنه بمثابة صورة سياسية انتقالية فقط لا غير، إلا أن الواقع برهن على خطأه، فبعد الأيام المحمومة لخروتشوف جلب بريجينيف الاستقرار والنظام إلى الحكم البيروقراطي الاستبدادي السوفييتي.

غير أن هناك لم يعد يوجد ابتداعات واختراعات جريئة متطاولة لتهدد الأمن الوظيفي لأجهزة الحزب، كم من المعايير الإصلاحية قدمت لتنخس وتدفع اقتصاداً مركزياً بليداً وكسولاً بشكل متزايد، قد أثبتت بالبرهان تمفصلها وعدم فعاليتها على نطاق واسع. إن عهد بريجينيف سيأتي عليه الزمن فيما بعد فيُقيّم ويعتبر (زمن الركود والكساد)، ولكنه كان ملاحظاً ومميزاً بخطوات تقدمية ثابتة في مهنة غورباتشوف السياسية. في عام ١٩٦٨ قفز قفزة ضفدع من مركز سكرتير ثالث ليصبح سكرتيراً ثانياً في لجنة حزب ستافروبول كراي، وهو مركز يضم إليه الملف الزراعي للقطاع. بعد سنة من ذلك التاريخ، تمّ انتخابه للمرة الأولى نائباً إلى السوفييت الأعلى، وهو مجلس شعب الاتحاد السوفييتي، وعين في اللجنة البرلمانية المشكلة لحماية الضواحي والأرياف، وكان ذلك موضوعاً هاماً لأجل قطاع ستافروبول، حيث كان الجدب والجفاف وتفتت التربة وتآكلها هي المسائل والمشاكل الأساسية لمدة طويلة.

الخطوة الكبيرة الهائلة الثانية في تقدم وارتقاء غورباتشوف نحو موسكو جاءت في شهر نيسان من سنة ١٩٧٠، وذلك عندما تمّ تعيينه

أميناً أولاً في ستافروبول كريكوم، وهي لجنة الحزب للقطاع كله. فأصبح غورباتشوف، حقيقة وفعلاً، حاكم مقاطعة ستافروبول، وهكذا فقد ضم لديه بشكل ملحوظ قوة أو سلطة أكبر مما لدى حاكم ولاية أمريكية. وبالرغم من المركزية القصوى السياسية أو التمركز الكثيف لصانعي القرار السياسي والاقتصادي في موسكو، فإن زعماء الحزب في القطاعات يشكلون كتلة ذات قدرة تفتح الأبواب أمامها في المستوى المتوسط في الزعامة العقائدية السوفييتية، ولها الخيار والنفوذ في تقديم أو كسر القرارات المتعلقة بالخطة السياسية والمصنوعة في الكرملين. ولما كان الهيكل الحزبي يعكس بشكل تام طريقة توزيع القوى في موسكو، فإن السكرتير الأول للحزب في الإقليم، الذي هو غورباتشوف، ترأس المكتب السياسي المحلي وسكرتارية الحزب واللجنة المركزية للقطاع، كأنه يمثل تماماً حلفاً مصغراً مع بريجينيف.

إقليم ستافروبول قدم إلى المسؤولين في الحزب المحلي مسائل ومشاكل كانت فريدة في نوعيتها بين القطاعات الريفية في الاتحاد السوفييتي. إن أوهام الجغرافيا وتخيلاتها واختلاف الأجناس والسلالات وتعددها تركت هناك طابعها وبصمتها المتميزة على أولئك الذين حكموا القطاع. حقاً إن أهالي ستافروبول يخاصمون وينازعون ذلك الذي كان مدة قائداً وجرى اختطافه وسرقته من قبل شروط ومقتضيات الحياة في ستافروبول، إنه مادة وبضاعة موسكو، وكما عبر عن ذلك قول خبير سياسي محلي «أنها تقريباً مثل عملية الانتقاء التي تحدث في الطبيعة. الضعيف لا يستطيع البقاء، فقط القائد النشيط المفكر الذي يكون أكثر جسارة وجرأة في قراراته يستطيع أن ينجح

هناك ويبقى». كان على غورباتشوف أيضاً أن يتخرج من أكاديمية ستافروبول ذات الضربات واللكمات القاسية القوية.

هذا الإقليم، الذي يغطي مساحة من الأرض تعادل بصورة تقريبية حجم واتساع أراضي بلجيكا وسويسرا وثلاثة أمثال اللوكسمبورغ إذا وضعت كلها مجتمعة، يحتوي ويضم نموذجاً ومثالاً لكل نوع وشكل من الأراضي والمناظر والمناطق المناخية يمكن وجودها في الاتحاد السوفييتي، من الأحراش الألبية والحزامات دائمة الصقيع والجليد إلى الصحارى والسهوب المشوية بأشعة الشمس الحارة. غير أن ستافروبول تحتاج إلى عنصر واحد يلزمها: فرغم وجود موقعها على الممر الممتد بين البحر الأسود وبحر قزوين، هي أرض مغلقة وجافة، وكما جاء في نكتة أو مزحة قديمة: يوجد أنهار كثيرة في مقاطعة ستافروبول ولكن لا يوجد ماء.

يستثنى من ذلك، طبعاً، الينابيع المعدنية المشهورة في منتجعات العناية الصحية مثل مينيرالناي فودي Mineralnye Vody (مياه معدنية) وكيسلوفودسك Kislovodsk، حيث كان يستمتع فيها قادة الكرملين بالماء بصورة مستمرة تقريباً، وأسهم قادة الحزب المحليون كالذين يأتون للقائهم في المطار أو محطة القطار لأجل الترحيب بهم، والتأكد من أن إقامتهم ستكون مريحة وسارة، ستكون مرتفعة ومعاييرهم تقاس بمثل هذه البادرة.

مهمة التأكد من أن جميع أجهزة نظام الحكم البيروقراطي للإقليم تعمل بسهولة ونعومة يمكن أن تكون حقل التجارب أو منطقة النفوذ للجنة

الحكومية المحلية . غير أن غورباتشوف ، بصفته الـزعيم الـ (كرايكـوم) Kraikom ، كانت لديه صلاحيات ومسؤوليات الاثنين : ضابـط التنفيـذ الرئيسي والزعيم الروحي العقائدي لكامل الإقليم ، وهذا يقتضي إلقاء مئات من الخطابات إلى جماعات الحزب وفئاتهم عن أحداث وآخر التوجيهات والتخطيطات الصادرة عن موسكو ، وتقارير شفوية عما يرشح ويتسرب من أخبار في جمهورية روسيا وفي اجتماعات الحزب الشيوعي المركزية . كان غورباتشوف مختلفاً عن المسؤولين العاملين الآخرين في الحزب ، لقد قاد هذه الجلسات التعليمية التوجيهية بحيوية ونشاط وبروح مرحة ، وتكلم ، كما قال أحد الصحفيين السياسيين من ستافروبول ، « كأنه كان شخصاً حياً يتنفس » . غورباتشوف سافر أيضاً وتجول في طول إقليم ستافروبول وعرضه ليزور مزارع تعاونية ، وتفقد عطل وخراب الزرع والمحصول ، ودفع إلى الأمام أعمال بناة قناة ري لتلافي نقص المياه الشديد المزمن في القطاع ، وشجع على ابتـداع وتقـديم تقنيـات جديـدة للإنتـاج وإدخـالها في المصـانـع ، والإصلاحات التي أشارت إليها فيما سبق ودلت عليها بعض التجارب والاختبارات في الإدارة الذاتية الاقتصادية والتي سوف تظهر ، وتبرز بعد عقد من السنين مع إعادة البناء (بيريسترويكا) .

قد يبدو غورباتشوف كأنه انبثق وتفجر كامل النمو والتطور ، وأطل على العالم من حيث لا أحد يدري ، غير أن هناك ومضات تنبئ عن نوع جديد لقائد وزعيم سياسي في مرحلة الصنع والإعداد خلال أعوامه في ستافروبول . قبل أن تصبح الانفتاح (غلاسنوست) كلمة عائلية ، كان

رئيس حزب ستافروبول قد سبق وأظهر اهتماماً كبيراً في الصحافة كما يتبين ذلك من تضحيته بقسم من وقته الصباحي ليتصفح الجرائد المحلية فقط. ذلك كان الوقت، على الأقل، عندما كان دائماً يجري مكالماته الهاتفية إلى مكاتب رئاسة التحرير لصحيفة (مولودوي لينينتس) Molodoi Leninets، والجريدة الشبيبية المحلية، مع تعليقات على طبعة اليوم واقتراحات بصدد المواضيع المستقبلية. الكساندر ماياتسكي Alexander Mayatsky، وهو مدير تحرير سابق لجريدة (ستافروبول سكايا برافدا Stavropol-Skaya Pravda)، يتذكر كيف كان غورباتشوف يأتي أحياناً نحوه وهو في الشارع، فيمسك به من قبة سترته ويشن عليه حملة مناقشة حول عموده الأخير الذي كتبه في الجريدة، مشجعاً إياه على معالجة بعض المواضيع والأبحاث مثل إنتاج الحليب الذي كان في أغلب الأحيان مبحثاً خارجاً عن ميدان الصحفي. يقول ماياتسكي: «إذا وجد غورباتشوف شيئاً ذا أهمية، فيتكون لديك انطباع بأنه سيشغله كلياً نهاراً وليلاً ماشياً ونائماً».

لقد ارتأى غورباتشوف أن وثائق كاملة من اجتماعات الحزب في الإقليم يقتضي العمل على تمكين الصحافة من الحصول عليها، ونظم لذلك مقابلات شهرية منتظمة مع رجال الصحافة من المحررين في جريدة إقليم ستافروبول، وفي هذه الاجتماعات والمقابلات، كان هو أو أحد المسؤولين الرسميين في الحزب يشرح لهم برامج جديدة، وأسئلة ميدانية عن سلسلة طويلة من المباحث والمواضيع. لقد كان الأسلوب التقليدي للعمل في مكان آخر بالنسبة للمحررين، هو بالتعاون بأن توافى أخبار صحيفتهم والمقالات

الافتتاحية من المسؤولين الرسميين للحزب المحلي، لكن غورباتشوف لم يشجع هيئة إدارة صحيفة (ستافروبول سكايا برافدا) على الركض دائماً إلى مكاتب قيادة الحزب قبل اتخاذ القرارات. وفي اجتماعاته مع محرري الصحف، ليس مثل تلك التي أقامها مع الصحفيين الموسكوفيين، تَعَوّد غورباتشوف أن يتطرق مباشرة إلى النقطة التي كانت غير سهلة بما يكفي لكتابة مقالات صحيحة عقائدياً، يلزم أيضاً أن تكون ذات أهمية. هل هناك أحد يقرأ ما تكتبه؟ يمكن أن يسأل، متعجباً بصوت عالٍ إذا كان هناك أي نقطة أو فائدة في القصص المطبوعة التي لا أحد يرغب في قراءتها.

كان رجل المستقبل العظيم للكرملين لطيفاً، أنيس المعشر، وله شعبية كبيرة جداً حتى في أيامه التي قضاها في ستافروبول، فخلال جولة داخل إحدى القرى في مقاطعة ايزولبيلينسكي Izolbinynsky، سأل زعيم حزب الإقليم القرويين المجتمعين كم عدد الأطفال الذين لديهم. عندما كانت الحكومة تقوم بحملة نشيطة لرفع معدل نسبة المواليد، ابتهج غورباتشوف عندما وجد امرأة واحدة لها ستة أولاد، فسألها كيف تدبرت أمرها مع عائلة كبيرة كهذه، أخبرت المرأة الفلاحة غورباتشوف بأن الحياة لم تكن سهلة ميسورة، وأنها تضيّع عمل يوم كامل لكي تجد مواد رخيصة وقوية ومتينة لتصنع منها ألبسة، وحكت له كيف أن مديراً لأحد المخازن طردها ونهرها عندما سألت إذا كان بإمكانها أن تشتري عشرين متراً من القماش، قائلاً لها: بما أنه لم يجبرها على أن تنجب ستة أطفال فعليها هي إيجاد طريقة تستطيع بها إكساءهم وإطعامهم بنفسها. المحادثة أثارت غضب

غورباتشوف بحيث أنه لم يتكلم عن أي شيء آخر في إجتماعه اللاحق مع المسؤولين الرسميين للمنطقة، وقد وبخهم وعنفهم على خشونتهم وقساوة قلوبهم. كما تمّ طرد مدير المخزن من وظيفته. وخلال لقاء آخر دوري مع الشعب، كان غورباتشوف مدعوّاً إلى بيت عائلة أحد العمال المحليين الذي كان قد كرّم كبطل للعمل والخدمة الاشتراكية. ألغى غورباتشوف فوراً عشاء أكثر رسمية مع موظفي الحزب، ليشارك في وجبة متواضعة مع ناخبيه.

خلال احتلال غورباتشوف لمنصب قائد الحزب الإقليمي، كان في العادة يذهب إلى العمل ماشياً على رجليه كل صباح من مسكنه المتواضع ذي الطابق الواحد من طراز القرن التاسع عشر في شارع دزيرزينسكي Derzhinsky. لم يمض وقت طويل حتى أدرك أهالي ستافروبول الحقيقة بأنهم يستطيعون تفادي عمل ترتيبات موعد رسمي في مكتب غورباتشوف الموجود في ساحة لينين، وذلك بأن يناقشوا بكل بساطة أشغالهم وحاجاتهم معه أثناء مسيرته القصيرة نحو مقر قيادة حزب ستافروبول كراي. عائلة غورباتشوف نادراً ما يستقبلون أحداً في بيتهم بزيارة، ولا كانوا معروفين بترددهم إلى المجتمعات العديدة في بيوت أهالي ستافروبول الشهيرين البارزين، غير أن قائد الحزب وزوجته كان لهما سمعة وشهرة بأنهما متعطشان ولهانان بالعروض المسرحية، فكانا نادراً ما يفوتهما حفل افتتاح في مسرح (ليرمونتوف ذي الأعمدة الوردية) للدراما، وموقعه مقابل الحديقة العامة من الطرف الآخر لمقر قيادة حزب ستافروبول كراي على ساحة لينين. وخرج غورباتشوف أيضاً ليثبت ويدعم فريق كرة القدم المحلي في

ملعب ستافروبول الرياضي وفقاً لأقوال ماكسيموف: مهما كانت المناسبة أياماً وطنية أو استعراضات عسكرية، كان غورباتشوف «دائماً في الصف الأول مع المشاهدين» حتى لو عدنا إلى أيامه في الكومسومول.

بدأ غورباتشوف يكتسب شهرة ومعرفة في موسكو، وقد ترقى إلى عضوية كاملة في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في عام ١٩٧١، وتمّ إعادة انتخابه إلى السوفييت الأعلى في سنة ١٩٧٤، وعين رئيساً للهيئة الخاصة بشؤون الشبيبة، تقديراً لعمله في الكومسومول، ولما صعد غورباتشوف في وراثة الحزب، كان متاحاً له فرص أكثر للسفر خارج الاتحاد السوفييتي، ففي شهر تشرين الأول من عام ١٩٧٢ سافر إلى بروكسل مع وفد من المسؤولين الرسميين السوفييت الذين كانوا مدعوّين من قبل الحزب الشيوعي البلجيكي، وفي شهر أيار من سنة ١٩٧٥ قام بزيارة إلى ألمانيا الغربية الاتحادية لحضور احتفال بمناسبة الذكرى الثلاثين على انتهاء الحرب العالمية الثانية، في شهر تشرين الثاني من عام ١٩٧٦ عاد غورباتشوف إلى باريس مرة ثانية كعضو في وفد من أمناء الحزب الشيوعي للمدن والأقاليم، مع الحزب الشيوعي الفرنسي كمضيف.

في أثناء انشغال غورباتشوف في تطوير أسلوب جديد للقيادة في ستافروبول كراي، كان هناك سياسي إقليمي آخر يصعد للأعلى وله مستقبل، وكان يتبع خطاً موازياً على الجهة الجنوبية من جبال القوقاز في جمهورية جورجيا **Georgian** . بدأ ادوارد شيفاردنادزه **Eduard Shevardnadze**

أيضاً مهنته في منظمة رابطة الشبيبة الشيوعية، واستلم مركز السكرتير الأول لكومسومول جورجيا في نفس الوقت الذي استلم فيه غورباتشوف المركز المشابه في ستافروبول كراي المجاورة، وهكذا فإن من المحتمل أن يكون غورباتشوف قد قابل الرجل، الذي سيلتقطه فيما بعد ليكون وزير خارجيته، في أحد المؤتمرات الإقليمية للكومسومول. لما كان غورباتشوف زعيماً للحزب في منطقة جنوب روسيا المسماة (سلة الخبز) ، فقد تابع باهتمام بالغ تجارب الأسلوب الهنغاري في تنظيم عمال المزرعة إلى فرق تعاقدية، وهو النظام الذي قدمه شيفاردنادزه في منطقة أباشا من جمهورية جورجيا في عام ١٩٧٣ ، عندما كان السكرتير الأول في الحزب الشيوعي لجورجيا. النجاح الذي كلل مثل هذه الجهود، والذي شجع كثيراً من المبادرات الفردية بين المزارعين الجورجيين أعطى تأثيراً حسناً واضحاً على السكرتير الأول لحزب ستافروبول كراي. وبعد أن عمل غورباتشوف حركته الانتقالية إلى سكرتارية اللجنة المركزية في موسكو، كان يقوم باستمرار بجولات بحث عن الحقيقة إلى جمهورية موطن شيفاردنادزه. كما أثنى أيضاً على منظمة حزب جورجيا في عام ١٩٨٤ بخطابه عن (الإدارة والقيادة بتشبث ومثابرة) وهو بحث هام لأجل الوصول إلى أفضل شكل صالح لإدارة الإنتاج الزراعي.

إن سمعة وشهرة شيفاردنادزه على أنه خصم قوي وصلب للفساد لدى المسؤولين الرسميين، ورغبته الأكيدة في استعمال مثل هذه الطرق غير المستقيمة، كما يراقبها ويمسحها الرأي العام وبرامج التلفزيون، ليستأصله من

جذوره ويكشف ويفضح المخالفين والمنتهكين للـ(الشرعية الاشتراكية)، يقتضي أن تكون أيضاً قد أكسبته احترام زعيم حزب ستافروبول كراي. غير أن شيفاردنادزه وغورباتشوف كانا استثناء من القواعد السائدة في السلوك السياسي في أعوام حكم بريجينيف الراكدة والخامدة.

لو أن بريجينيف راقب أفق جنوب روسيا من أجل نجوم سياسية ناهضة مرتفعة، لكان من المحتمل جداً أنه لاحظ سيرجي ميدونوف Sergei Medunov، زعيماً حزبياً في المنطقة المجاورة لكراسنودار Krasnodar، الذي يدير منطقته كأنها ملك خاص له. ميدونوف وأصدقاؤه القدامى مارسوا إشراقاً وسيطرة مريحة وصارمة على أبنية ورخص وتصاريح بالملكية في هذه المنطقة ذات المنتجعات والتي تزداد كبراً ونمواً على شاطئ البحر الأسود، إذا كانت الرشاوي والإكراميات عن خدمات وقضاء مصالح في مناطق أخرى من البلاد تحسب وتقدر بورقة نقدية من فئة العشر روبلات، فإنها تجري وتثب إلى مئات الروبلات في كراسنودار، حيث يجب أن تدهن باطن الكف بإسراف لكي تحصل على أي شيء، من غرفة في فندق، إلى ترفيع وترقية في وظيفة. الرسائل والاحتجاجات والشكاوي إلى السلطات المركزية لم تأت بأية نتيجة. وعندما جاء المفتشون إلى القطاع استقبلوهم ورحبوا بهم بترف وبذخ وقدموا لهم (خدمات كرم الضيافة) في بيت للدعارة سرّي خاص بالمسؤولين الرسميين ذوي الأهمية الكبيرة.

استطاع ميدونوف الاعتماد بصورة جلية واضحة على ولاية ورعاية وحماية عالية المستوى في موسكو. يوم أن اجتمع مؤتمر الحزب الخامس

والعشرون في موسكو في شهر شباط من عام ١٩٧٦ ، كان ميدونوف من بين الخطباء المدعوين ، أما غورباتشوف فلم يكن من بينهم . « فالسكرتير الأول للإقليم الذي كان ذكياً ولطيفاً مجانساً يمكن أن يكون معتبراً ومحسوباً على أنه غير نموذجي وغير تقليدي » ، هذا ماشرحه المؤرخ ميدفيدوف ، وتابع القول « لو أن غورباتشوف كان يزعق ويصرخ ويشتم ويسب وكان سكيراً كبيراً أو عائشاً حياة راقية مترفة وله بيت للإستراحة خارج المدينة حيث يمكن للمسؤولين الكبار الحضور للترفيه عنهم من قبل مضيفات ونادلات جميلات ، ذلك يمكن أن يحسب ويعتبر سلوكاً طبيعياً عادياً لزعيم حزب القطاع في ذلك الوقت ، ومن الغريب كما قد يبدو ويلوح أن غورباتشوف لم يكن مظهره يوحي كثيراً بالخوف والرهبة والاحترام في نفوس العاملين في الحزب مثل نوع قليل من الاستخفاف والاحتقار ، إنه كان ذكياً جداً .

لم يكن غورباتشوف معدماً أو محروماً من المؤيدين له والمتأثرين به ضمن النخبة الحاكمة في الحزب ، وبينما كان بريجينيف ورفاقه القدامى السياسيون في عصابة (دنيبروبيتروفسك مافيا Dnepropetrovsk mafia) يتمتعون بكرم ضيافة ميدونوف على سواحل وشواطئ البحر الأسود ، كان غورباتشوف يستقبل أعضاءً آخرين بارزين من المكتب السياسي في حمامات وينابيع منتجعات ستافروبول الشهيرة ، مثل تلك المعروفة والمشهورة باسم (مينيرالتي فودي) وباسم (كيسلوفودسك) . الرئيس كوسيغين والمفكر العقائدي سوسلوف كانا يأتيان ، متفرقين كل بمفرده ، من أجل المعالجة نظراً لظروفهما وحالاتهما القلبية . رئيس المجلس يوري أندروبوف ، وكان

ضحية مرض وعلة التهاب الكلاوي المزمن، يمكن أن يبقى هناك أيضاً لمدة عدة أسابيع ليستعيد نشاطه وانتعاشه في الطقس الدافئ بعيداً عن دوامة وضوضاء موسكو. وحقاً ما لاحظه كريستيان شميدن هوير Christian Schmidt-Hauer، وهو صحفي ألماني غربي وكاتب تراجم حياة مشاهير الرجال، بأنه لو كان غورباتشوف رئيساً لحزب في مكان آخر، مثل مورمانسك Murmansk، في أقصى شمال البلاد لما أمكن أن يصبح الأمين العام، ولكن في ستافروبول كراي كان تحت متناول اليد يستقبل ويرحب بالشخصيات الكبيرة والرؤوساء العقائديين العظام الذين يزورون الإقليم.

أركادي شيفشينكو، الدبلوماسي السوفييتي ومعاون سابق للسكرتير العام للأمم المتحدة والذي التجأ إلى الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٧٨، قام بزيارة إلى كيسلوفودكس في سنة ١٩٧٧، ووفقاً لما قاله شيفشينكو، فإن سمعة وصيت غورباتشوف بالشرف والأمانة وبالقدرة والحيوية كانت معصومة عن الخطأ. هذه الصفات لفتت بلا شك انتباه هؤلاء الذين يترددون بانتظام على المنتجعات الصحية، إلى غورباتشوف على أنه قنوع بسيط متقشف، وهم سوسلوف وأندروبوف الذي لا يقل عنه جنوبية. ويلاحظ صديق معهد الحقوق ملينار: «أعتقد أن أحد مفاتيح غورباتشوف للنجاح هو أنه عاش ببساطة، وأن أندربوف كان متأثراً ومعجباً به». استناداً إلى شيفشينكو، فإن الرئيس كوسيغين حقّق أيضاً اتصالاً وترابطاً بزعيم حزب ستافروبول الصاعد الواعد، وربما كان لديه انطباع وتأثر

ثقافي عنه أكثر عمقاً من الانطباع والتأثر اللذين لدى أندربوف ولدى سوسلوف.

هذان الاثنان مالا ورغبا في البقاء لوحدهما في مقصوراتهما الخاصة، لكن كوسيغين أصر على البقاء في المبنى الرئيسي والاختلاط بحرية مع الضيوف. «كوسيغين قابل غورباتشوف عدة مرات»، كما يقول شيفشينكو «كان كوسيغين مهتماً جداً في كل شيء، وكان غورباتشوف معروفاً بأنه لا يمكن أن يكون فاسداً ولا راشياً أو مرتشياً».

عندما كان غورباتشوف يستجوب في سنة ١٩٨٥ من قبل صحفي هندي حول من كان وليه وراعيه السياسي، انقلب وأصبح دفاعياً بصورة ملحوظة، وخرج عن طريقته ليصرف وينفي كل الإشاعات الأجنبية المتداولة عن الارتباط المتصل بين ستافروبول وأندربوف وسوسلوف، فالزعيم السوفييتي اتبع خطوات صعوده عن طريق الترقي والارتفاع خطوة خطوة في مراتب الحزب حتى تمَّ انتخابه إلى اللجنة المركزية في عام ١٩٧١، «لقد اتصلت واحتككت مع غيرهم من القادة والزعماء، ليونيد بريجينيف، ميخائيل سوسلوف، يوري أندربوف، وغيرهم»، قال غورباتشوف «أنا لا أفكر بأن اللائحة يجب أن تقتصر على هذين الرجلين بالتحديد، من المؤكد أن تجربتي وخبرتي السياسية قد استفادت منهما، كل واحد منهما كان لديه شيء يشاركني فيه، وهذا طبيعي وعادي».

وتلقى رئيس حزب ستافروبول كراي أيضاً تعزيزاً من كولاكوف،

الذي كان قد ترقى إلى المكتب السياسي للحزب الشيوعي في سنة ١٩٧١ واستلم مفتاح حقيبة الشؤون الزراعية العائدة لسكرتارية اللجنة المركزية، ولما قرر كولاكوف إجراء تجربة التقرب الاختباري لحصاد الحبوب في عام ١٩٧٧، لجأ إلى غورباتشوف. الفكرة التي أتت وهي المعروفة باسم (طريقة اباتوفسكي Ipatovsky)، على اسم منطقة في ستافروبول حيث تمّ تطبيقها هناك لأول مرة، كانت تامة وأصلية في بساطتها. فرق مؤلفة من ثلاثة أو أربعة و خمسة جموع وكتل يمكن أن تتحرك وتنتقل من مزرعة إلى مزرعة جالبين معهم الورديات. ماكينة إضافية واقفة كاحتياط في حالة تعطل أي من الماكينات التي تعمل، وفرق العمل كانت مصحوبة بميكانيكي تصليح، ومطابخ قابلة للتحميل والنقل، وحتى فئات «الخدمة الثقافية» التي يمكن أن ترفه عنهم وتطربهم في الحقول والمزارع. هذا الجيش أو الأسطول من مجموعات العمل اكتسح وشق طرقه في الحقول والسهول المزروعة لمنطقة أباتوفسكي في تسعة أيام فقط، مما يعتبر أسرع من المعتاد. كان غورباتشوف فجأة في الأضواء. وفي ١٦حزيران من عام ١٩٧٧، تمّ نشر مقابلة مع (بطل) حصاد اباتوفسكي على الصفحة الأولى من جريدة البرافدا.

كان غورباتشوف لا يزال يستدفئ ويتشمس في وهج وبريق النجاح بعد مضي سبعة أشهر، وفي الأول من شهر آذار من عام ١٩٧٨، قبل يوم من ذكرى عيد مولده السابع والأربعين، تمّ منحه وسام أو ميدالية «ثورة اكتوبر» تقديراً لإنجازاته في ميدان الزراعة، كما تلقت أيضاً مدينة ستافروبول

في ذلك العام تقديراً رسمياً وتكريماً مع زينة عامة لإحياء ذكرى مرور قرنين من الزمان على تأسيسها وإنشائها، والضيف الذي حضر يجب أن لا يقل شهرة وبروزاً عن المفكر العقائدي سوسلوف، جاء إلى المدينة في شهر أيار لأجل احتفال التقديم والتكريم، وقد شوهد الاثنان وهما يحييان أحدهما الآخر بحرارة ودفء، وخلال جولة في الإقليم، استذكر سوسلوف بلا شك ما يتعلق بفصله الخاص به من تاريخ الإقليم، يوم أن كان مسؤولاً عن مقاتلي المقاومة المحلية ضد الغزاة المحتلين أثناء الحرب العالمية الثانية، وتبين أن خطوط الإمداد بالقوة من ستافروبول إلى موسكو كانت في أكمل وأدق نظام عمل.

لما كان غورباتشوف في مركز أو منصب السكرتير الأول لمنظمة حزب إقليمي، فلم يكن من الممكن أن يطلب منه مراراً وتكراراً أن يطبق الأشكال الناخرة الهدامة من النفاق والمداهنة التي سببت في دمار رجال طموحين موهوبين قريبين قاب قوسين أو أدنى من كرسي القوة والسلطة، لكنه برهن على أنه ماهر بارع، مثل أي موظف في عهد بريجينيف، بالتشدق والتفوه بالإطراء والمديح المزيف الخادع الذي كان يتوقعه القادة السوفييت القدامى الباطلون وكبيرو السن من أتباعهم ومواليهم. وعندما نشر مجلد من مذكرات بريجينيف عن الحرب وعنوانه (الأرض الصغيرة)، في عام ١٩٧٨، انضم غورباتشوف إلى جوقة المدح والثناء التملقي والتزلفي على ما كان من مجهود صارخ في تمجيد الذات، «نظراً لعمق الأفكار المعبرة عن محتواه الفكري العقائدي، والشمول العريض في تعميماته والآراء التي بيَّنها

وعبَّر عنها الكاتب، (الأرض الصغيرة) أصبحت حدثاً رئيسياً في حياة الناس العامة» هذا ماقاله غورباتشوف في شهر أيار من سنة ١٩٧٨ في خطابه، وتابع يقول: «إن الشيوعيين وجميع العمال والشغيلة في ستافروبول يعبرون عن امتنانهم اللامحدود إلى ليونيد ايليتش بريجينيف على هذا العمل والجهد الكتابي الأدبي».

لقد أخذت إحدى أكثر المراحل شذوذاً وغرابة في تواريخ سياسات الكرملين لقذف غورباتشوف إلى داخل مركز القوة في موسكو، فبعد ما يقرب من مرور سنة واحدة على يوم الانتصار على حقول وزروع منطقة أباتوفسكي، مات كولاكوف، ووفقاً للوصف الرسمي لسبب الوفاة، فإن قلب كولاكوف قد (توقف عن الخفقان)، وهي عبارة أو جملة قد توحي إلى كثيرين من مراقبي الكرملين الموسميين بأنه لم يستكن ويخضع للأسباب الطبيعية.

أما كيف مات كولاكوف فإنه يبقى لغزاً محيراً، غير أن الافتراض المقبول على نطاق واسع هو أنه أقدم على الانتحار عن طريق قطع شرايين رسغيه.

لقد أصبح واضحاً في موسكو أن كولاكوف، الذي حمل لقب الـ(الفلاح من بينزا)، على اسم المنطقة الزراعية التي رأسها مرة وتقع في الجنوب الشرقي من جمهورية روسيا، كان في مشكلة سياسية عويصة وعميقة، ورغم كنيته ــ المشتقة من الكلمة الروسية التي معناها القبضة ــ

فكولاكوف قد ارتفع في صفوف الحزب لتواضعه ودمائته أكثر منه لخشونته وصلابته، كان لاعباً في فريق، راغباً للاضطلاع والقيام بالمهمات والوظائف الصعبة، بما فيها حقيبة الزراعة التي ليس فيها ثواب أو شكر. بسبب هذه الصفات الشخصية القوية وبسبب شبابه النسبي ـــ حيث كان عمره ستين عاماً حين وفاته ـــ وكان اسمه مرسوماً ومرقماً بسمو وارتفاع بين أولئك المرتبين في الصف الذين سيخلفون بريجينيف المريض العليل، ولكن وظيفة الشؤون الزراعية كانت سيئة السمعة بسبب إنهائها لمهنة الذين يشغلونها، أما في حالة كولاكوف فإنهاؤها للحياة نفسها.

إذا كان سكرتير الشؤون الزراعية قد أقدم على الانتحار، فيكون ذلك من المحتمل وعلى الأرجح بسبب أدائه وأسلوب عمله في الوظيفة، فكان يتعرض لضغط الهجوم، وخاف من أنه على وشك أن يعزل وينقل من المكتب السياسي.

يبدو أن كولاكوف كان مع الطرف الخاسر في قضية أساسية للمكتب السياسي، على السطح في ظاهر الأمور أن الصراع يتركز كما يبدو على الحصاد المزيل الذي توافق وتطابق مع التزامه في المكتب، وقبل أسبوعين فقط من موت كولاكوف، قام بريجينيف أثناء خطابه في اللجنة المركزية فهاجم بانتقاد لاسع قارص الإنجاز وأسلوب إدارة القطاع الزراعي للبلاد. لكن هناك يمكن أن يكون أكثر من عنصر شخصي للقضية يتعدى مسألة غلة القمح ومنتوج البطاطا. لقد أُعد لكولاكوف جنازة رسمية حكومية

للحفاظ على مكانته ورتبته في المكتب السياسي للحزب، ولكن عندما كان رماد جثته يلصق بالأسمنت على جدار الكرملين في اليوم العشرين من شهر تموز، كان بريجينيف غائباً بشكل شاذ، وربما بشكل قاسي وقح، وكان أيضاً ــ بإجازة طويلة ــ مساعده الرئيسي الأول وخليفته المنتظر كونستانتين تشرنينكو، وكذلك رئيس الوزراء اليكسي كوسيغين ومفكر الحزب العقائدي سوسلوف. أما غورباتشوف فبقي مخلصاً، على كل حال، ووفياً لراعيه ووليه في موته، أضاف المسؤول الرسمي الشاب نغمة أصيلة من العواطف والإنفعال وسط الرثاءات التأبينية المتباهية بافتخار، عندما قال وداعاً (آديو) إلى (صديقه ورفيقه)، ولأول مرة شاهد شعب الاتحاد السوفييتي، وسمع الرجل الذي سيكون أمينهم العام في المستقبل على شاشة التلفزيون القومي.

وفاة كولاكوف فتحت بشكل فجائي شاغراً في المكتب السياسي وفي سكرتارية اللجنة المركزية، كما أزاحت عضو المكتب السياسي الوحيد، الذي وهو في الستين من عمره، كان شاباً فتياً بما يكفي ليعتبر خليفة لبريجينيف، لم يجرِ حالاً صنع قرار لملء الثغرات، ربما بسبب أن المكتب السياسي لم يستطع الموافقة على ما هو يمكن أن يكون أقل إزعاجاً لميزان القوى في الهيئة الحاكمة للحزب الشيوعي. أندربوف وسوسلوف يمكن أن يكونا قد رميا وصوّتا لصالح غورباتشوف، فإنه كان خبيراً زراعياً مؤهلاً بشهادة وعدم خبرته النسبية والافتقار إلى قاعدة قوية خارج إقليم ستافروبول كفلت وضمنت بأنه لن يكون في وضع يمكنه من استلام زمام السلطة في

وقت قريب من الحرس القديم للمكتب السياسي ، غير أن بريجينيف ، كما هو واضح ، كان لديه شكوك وتحفظات حول ترفيع شخص لا يزال شاباً فتياً إلى المركز الزراعي الحساس في السكرتارية .

في شهر أيلول من عام ١٩٧٨ ، أقلع بريجينيف ومساعده المخلص له دائماً كونستانتين تشيرنينكو Konstantin Chernenko في رحلة بالقطار مخترقاً القوقاز الشمالي إلى باكو ، عاصمة أزربيجان Azerbaijan ، وتقدم القائد السوفييتي إلى روستوف ومن ثم إلى ناحية منطقة كراسنودار للالتقاء مع المسؤولين الرسميين المحليين ، بما فيهم ميدونوف ، وعندما مرَّ بريجينيف من خلال منطقة ستافروبول ، كان غورباتشوف منتظراً لاستقباله والترحيب به في المحطة عند مينيرالتي فودي ، مصطحباً معه رئيس المجلس أندروبوف ، الذي كان يرتاح في منتجع للمياه المعدنية قريب من المحطة . اللقاء الذي تمَّ في محطة مينيرالتي فودي أثبت أنه كان لحظة فريدة في التاريخ السوفييتي التي لم يتمكن ولا واحد من هؤلاء الحاضرين أن يتنبأ بها . فهناك على الرصيف الضيق وقف أربعة رجال سيحكمون الاتحاد السوفييتي بالتتابع : بريجينيف ، أندروبوف ، تشيرنينكو ، وغورباتشوف .

التوقف القصير في مينيرالتي فودي يجب أن يكون قد أقنع بريجينيف بأن غورباتشوف كان المرشح الصحيح المناسب ، بعد كل ذلك ، للمركز الخالي بموت كولاكوف في السكرتارية . ففي جلسة تشرين الثاني للّجنة المركزية ، حدث أن الأجزاء السياسية التي كانت مهتزة ومفككة بسبب

موت كولاكوف غير المنتظر وفي غير وقته قد عادت إلى مكانها الصحيح في ترتيب وتدبير جديد.

قام بريجينيف بتقديم تشيرنينكو لشغل عضوية كاملة في المكتب السياسي، فاتحاً المجال أمام إشاعة متداولة أن البيروقراطي الذي لا لون له كان هو الوريث الظاهر للزعيم السوفييتي، وصديق قديم آخر لبريجينيف، نيكولاي تيخونوف **Nikolai Tikhonov**، تمَّ انتخابه كعضو مرشح، كما تمَّ في نفس الوقت انتخاب وافد جديد إلى دوائر موسكو السياسية، هو زعيم حزب جورجيا ادوارد شيفاردنادزه. الترقية التي أذيعت في آخر النشرة تماماً في صحيفة البرافدا عدد يوم الثامن والعشرين من شهر تشرين الثاني من عام ١٩٧٨، كانت بكلمات مختصرة موجزة كما يلي:

«هيئة اللجنة المركزية قد انتخبت الرفيق ميخائيل س. غورباتشوف كسكرتير للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي». إن عامل أو مشغل الحصادة الدراسة في أحد الأوقات والآتي من ستافروبول قد تمَّ وضعه الآن في مركز المسؤولية عن شؤون الزراعة في الاتحاد السوفييتي. فبعد غياب دام ثلاثة وعشرين عاماً، يمكنه الآن العودة إلى موسكو.

الفصل الرابع

دعوة إلى موسكو

وصل غورباتشوف إلى موسكو في وقت خلت فيه من الإدارة، مدينة متقلبة غريبة الأطوار، مكتظة إلى حد الإفراط بالشعارات المدونة بأحرف حمراء، وبصورة ضخمة للزعيم الراحل بريجينيف وبصور بقية رجالات الكرملين القدماء، فهم قلّما كانوا يظهرون أمام الجمهور، فهم كتماثيل بارزة كئيبة بقبعات فراء، لا حراك بهم وقد علت وجوههم تكشيرة طفيفة، إلى الأعلى من ضريح لينين. حكم هؤلاء الرجال البلاد التي كانت تنجرف بلا حول ولا قوة أو بلا دفة توجيه، بعد فترة اتسمت بالنشاط في التوسع الاقتصادي والسياسي في الستينيات وأوائل السبعينيات، حيث أن بعضاً من هذا التوسع كان على حساب الولايات المتحدة، التي كانت في حالة اضطراب وانهماك، إلى أن استقر الاتحاد السوفييتي في فترة جمود.

انتشر بين عمال الدولة شعار ساخر يقول: «هم يتظاهرون بأنهم يدفعون لنا، ونحن نتظاهر بأنا نعمل». فقد كانت الروبلات التي يكسبها العمال بازدياد نسبي، في حين لم يكن هنالك الكثير ليشتري بهذه الروبلات، أي شيء ذي قيمة كان يبدو متوفراً خلسة فقط.

فقد ازدهرت السوق بكل أنواع السلع، بدءاً من مساحات الزجاج الأمامي للسيارة، إلى حبوب منع الحمل، فالبنطال المصنوع من اللغيز (القماش الأزرق...) يمكن الحصول عليه مقابل (٢٠٠) دولار.

الجميع، من البواب وحتى الوزير كانوا يتحينون الفرص، وحتى أوسمة البطولة الحربية بالإمكان الحصول عليها مقابل كمية مناسبة من النقانق، أو مقابل جزء مناسب من مفحم السيارة، أو بهمسة ناعمة في أذن وزير.

كانت الشوارع في موسكو والمدن الرئيسية الأخرى، تغطى بالمشاة الذين كانوا يتنقلون من طابور طويل إلى آخر خلال أوقات العمل الرسمية، كانت النساء يحملن حقائب التسوق الكبيرة (سومكا)، بشكل دائم، وكان الرجال يحملون حقائب منتفخة (بورت فيل)، محتوية لأي شيء عدا الأوراق الرسمية، كان العديد من السوفييت يتعمدون التهرب من العمل تحت أي مبرر، ويقضون أوقاتهم في أرتال، أو باحثين عن صفقات خارجية في أي سوق سوداء متوفرة، فعندما يقع نظر رجل روسي على رجل آخر ينتعل حذاء عالي الساق، أو يحمل كيساً من الليمون، يسأله: «من أين حصلت عليه؟»، إن مفهوم هذا التساؤل كان يعني أن البضائع النادرة لم تكن

لتشترى بالطريقة العادية ، أي بشكل مشروع ، بل على العكس كان يتم الحصول عليها من خلال الدعم ، الصفقات السرية والسوق السوداء ، إذ كان العمال السوفييت يقومون بأعمالهم الصعبة في الأوقات الإضافية ، والأشخاص المسؤولون عن الخدمات كانوا يتوقعون أن يدفع لهم أجراً إضافي لقاء العمل العادي ، وحتى الأطباء وأطباء الأسنان كانوا بشكل اعتيادي يتوقعون ويقبلون زجاجة كونياك أو روبلات قليلة إضافية من مرضاهم ، فالدفع لمثل هذه الخدمات غالباً ما كان يتم بالفودكا ، المشروب المسكر الكلي للروس ، فأرباب البيوت الفطنون لم يكن يستدعون السباكين وعمال الكهرباء كي يأتوا بعد منتصف اليوم ، لأنه في هذا الوقت يكون أولئك يترنحون ثملين باحتساء ما ابتاعوه بنقود البقاشيش التي تقاضوها صباحاً . في مثل هذه الظروف ، ليس من الغرابة بأن يصبح الإدمان على الكحول وباءً قومياً ، كان العمال الضجرون يشربون أثناء العمل وخارجه ، يحتسون الفودكا في الساحات والأزقة وفي حانات البيرة الحقيرة ، وأصبح من العادات المألوفة في الشرب هو تبادل زجاجة المشروب بين ثلاثة رجال ، غالباً ما يكونون غرباء يلتقون خارج الفودكا ، ويشترك ثلاثتهم بشراء زجاجة ويشربونها ، بلا متعة ، على الفور خلسة في أقرب زقاق أو مدخل بناء ، والنساء كن يشربن بتكتم ، ولكن بإفراط شديد إلى الحد الذي عزا فيه ، بعض الديمغرافيين الغربيين ، أن النسبة المرعبة لوفيات الأطفال من الاتحاد السوفييتي ــ النسبة الأعلى في العالم الصناعي ــ للإدمان الكحولي بين النساء الحوامل ، أو بسبب ضعف الصحة العامة ، أو بسبب سوء التغذية ــ وربما بسبب

الاكتئاب السائد الناجم عن سوء الأحوال المعيشية ــ كان الاتحاد السوفييتي البلد الصناعي الوحيد في العالم ذا متوسط أعمار للرجال آخذاً بالتدني، ففي القسم الأوروبي من الاتحاد السوفييتي كانت عمليات الإجهاض أكثر من الولادات، فالنساء في هذا القسم كن يجرين، وسطياً، خمسة إجهاضات خلال فترة حياتهن وينجبن طفلاً واحداً، واحدة من ثلاث زيجات كانت تنتهي بالطلاق، فبالرغم من إنكار ذلك رسمياً وعدم ذكره علناً، فقد أصبح استخدام المخدر مشكلة بين الشباب السوفييت إضافة لعصابات العنف ولممارسة الجنس غير المشروع بين المراهقين. لقد كان الاتحاد السوفييتي أثناء فترة حكم بريجينيف أمة على شفير الهاوية.

بقي الاتحاد السوفييتي مركز قوة عظمى، بالطبع، ولكن كان هناك علامات تدهور في الشؤون الخارجية. العالم الشيوعي كان في حالة فوضى (تشوش). ففي الشرق، اتجه الصينيون إلى اليابان وإلى الولايات المتحدة لأجل التنمية الاقتصادية، متجاهلين عملياً زملائهم الماركسيين في الاتحاد السوفييتي. وإلى الغرب، فقد أصبحت الشيوعية الأوروبية الاتجاه الجديد للماركسيين، فكراً واستراتيجية، تلك التي لم تعتمد على الاتحاد السوفييتي سواء بالإلهام أو الزعامة (القيادة)، كانت حركة التضامن على وشك أن تكتسح بولندا المتململة، فبعد وصول غورباتشوف بوقت قصير إلى سدة الحكم وجد الجيش السوفييتي نفسه متورطاً بالحرب في أفغانستان، يقاتل في حرب مربكة لأهداف غير معلومة وبدون نهاية تلوح في الأفق.

في مثل هذه الظروف أعير انتباه قليل في الوطن أو خارجه، لتقليل بريجينيف من أهمية كولاكوف بعد وفاته، وبالإضافة إلى أبعد من ملاحظة الجمهور، كان ظهور غورباتشوف عضو اللجنة المركزية المغمور، من منطقة ستافروبول الذي لعب دوراً هاماً لكونه عضواً في لجنة الجنازة، والذي ألقى كلمة تأبينية اعتبرت أول خطاب له في الساحة الحمراء، ومع ذلك فإن حضور غورباتشوف يمكن اعتباره من خلال نظرة تأملية لأحداث ماضية كواحد من الملامح (الجوانب) الأكثر أهمية في تلك الجنازة الكئيبة، كان يمثل بداية صراع طويل وحذر بين مقاومة التجديد الجامدة لبريجينيف والطموح القلق للجيل الأحدث من القادة، في ذلك الوقت كان غورباتشوف في السابعة والأربعين من العمر، يمثل نموذجاً للصفوة من جيل ما بعد الحرب في صفوف الحزب، ذا ثقافة عالية، غير راضٍ عن الركود الاقتصادي، مستاء من حالة الكسل والفساد التي سادت الأمة، وعلاوة على ذلك، متحمساً لفعل أي شيء لمعالجة ذلك.

لم يكن لدى غورباتشوف الوقت الطويل للانتظار، ففي شهر تشرين الثاني كان يجلس في الكرسي الذي كان يشغله كولاكوف في مقر قيادة اللجنة المركزية، في ساحة ستاريا، ذلك المنصب أظهر قليلاً ما هو موقع غورباتشوف ضمن القوى المسيطرة في الكرملين، فقد بيَّن المنصب بشكل أكيد أن القادة المسيطرين مثل بريجينيف، كوسيغين، أندريه كيريلينكو Andrei Kirilenko عضو المكتب السياسي، ساسلوف، وتشيرنينكو ــ كانوا ينظرون إليه نظرة تقدير أو أنهم على الأقل قد وثقوا به

على أنه لم يفعل بهم كما فعلوا هم بخروتشوف ، ولكن لو أنهم أخفوا مخاوفهم من جموح غورباتشوف الذي هو في منتصف العمر ، لكانوا قد ضمنوا سلامتهم بإعطائه العمل السياسي الأسوأ والأخطر في موسكو ، فإن أصبح يشكل تهديداً لهم فسيفعلون به كما فعلوا بكولاكوف .

كانوا على حق في افتراضهم بأن غورباتشوف لن يستطيع أن يقوم بعمل وسط لتسيير الشؤون الزراعية للبلاد ، وكان ذلك فعلاً . إن تضافر عاملي المناخ ومبدأ الجماعية يجعلان من الزراعة السوفييتية مغامرة صعبة ، حتى في الأوقات الحسنة ، مع جميع الأراضي الزراعية الواقعة على خط عرض شمال ولاية مينوتا الأمريكية ، فإن تقلبات الطقس تقلل من القدرة الزراعية السوفييتية إلى مستوى أقل منه في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية ، فإذا لم يكن الطقس عاملاً مفسداً للأمور ، فإن النظام سيكون هو المفسد . ففي المناسبات النادرة ، عندما يتعاون الريح والمطر لإنتاج محصول غزير في الاتحاد السوفييتي ، فإن النقل السيِّئ والتخزين غير الملائم ، سرعان ما يحيل هذه الوفرة إلى أكوام من الفضلات المتعفنة ، ومع ذلك ، لم يكن يوجد الرجل السياسي الإقليمي السوفييتي الذي يفوت أية فرصة للذهاب إلى المركز ، حتى ولو لإنجاز عمل زراعي غير مشكور عليه .

إن غورباتشوف ، على أية حال ، لم يكن السياسي الإقليمي العادي في أيامنا هذه ، فإن السكرتاريين الأوليين الأقليميين للحزب كانوا عادة متقدمين في السن كالشيوخ المسنين في الكرملين ، إلا أن غورباتشوف كان

بالكاد في منتصف العمر فلا يمكن القول بأنه كان أول من جاء بعجالة الشباب إلى الكرملين ، كان ذلك هو القاعدة في الماضي . فقد كان الجيل الأول من القادة السوفييت حديثي السن أقوياء عندما استلموا السلطة ، إذ أن لينين الذي وصف على أنه الرجل العجوز من قبل زملائه البلاشفة المتهيبين منه قبل بلوغه الثلاثين ، وعندما استلم السلطة عام ١٩١٧ بلغ من العمر ٤٧ عاماً ، وعندما تغلب ستالين على كل منافسيه لاستلام عباءة الحكم من لينين في ١٩٢٧ ، كان في أواخر العقد الخامس من عمره (٤٨ عاماً) ، أما خروتشوف فكان عمره ٥٨ عاماً حين توفي ستالين عام ١٩٥٣ ، وحتى بريجينيف ، بالتعاون مع كوسيغين استوليا على السلطة من خروتشوف عام ١٩٦٤ ، كان عمره (٥٧ عاماً) إذن فإن معدل أعمار أعضاء المكتب السياسي في ذلك العام كان (٥٩ عاماً) .

في دراسة لأسلوب القيادة السوفييتية تحت عنوان نومينكلاتورا nomenklatura (عام ١٩٨٤) أعاد الكاتب السوفييتي ميخائيل فوهلينسكي إلى الأذهان صفات بريجينيف في الستينيات على أنه رجل حيوي سريع الخاطر في الكرملين ، ذو عينين يقظتين في وجه مهيب ، معتد بنفسه بأسلوب نومينكلاتورا ، بما يتصف به الجنوبيون من الجنرال المعهود واستمرار التعابير والاعياءات التي تدل على السخرية ، ذلك الوصف لم يكن ليختلف كثيراً عن تلك التي نسبت مؤخراً لغورباتشوف .

وبحلول خريف عام ١٩٧٨ ، عندما وصل غورباتشوف إلى موسكو

كعضو شاب في سكرتارية اللجنة المركزية، بترتيبه العشرين بين قادة الاتحاد السوفييتي، كان بريجينيف على وشك إتمام الثانية والسبعين من عمره، وبذا فإن معدل سن أعضاء المكتب السياسي قد ارتفع إلى سن السبعين. في سن الـ ٤٧ عاماً، ما يقارب من ربع قرن أصغر من السن المتوسط لمنافسيه السياسيين، في أوج عافيته، كان يمكن لغورباتشوف أن يتحرك قدماً معتمداً فقط على قدرته على الاحتمال، ومن الواضح أنه كان بحاجة لما هو أكثر من القدرة على التحمل، ليصعد ما أمكنه لأعلى سلم جهاز الحكم، وأن يستمر بالحركة بالممرات السرية والخطرة الخاصة بمقر اللجنة المركزية في موسكو، بناء على معلومات الذين عرفوه وهو في طريق صعوده السياسي، بأنه كان ذكياً، نشيطاً، دؤوباً، ولديه القدرة على الكلام، وثقة متأصلة لسياسي بالفطرة، إن خلوّه من النقائص يضاهي أهمية الفضائل التي كان يتحلى بها. كان من الواضح أن غورباتشوف تنقصه ميزتان تحلى بهما البيروقراطيون السوفييت الكبار في هذا العصر: فهو لم يكن متعجرفاً ولا فاسداً، ففي الحقيقة وعلى النقيض من معظم الساسة السوفييت، فقد كان مهذباً على الدوام، خصلة لازمته وأصبحت إحدى مصادر قوته الرئيسية باعتباره واحداً من الساسة العالميين. إن شخصيته الجذابة كانت ذات تأثير في تجريد خصومه المناهضين ضمن الاتحاد السوفييتي، وبدت أنها مصدر قوة للدبلوماسية السوفييتية على الصعيد الدولي، منذ أن أصبح غورباتشوف الأمين العام للحزب الشيوعي.

وهكذا ففي خريف ١٩٧٨، حزم غورباتشوف وعقيلته رايسا

أمتعتهم وغادروا إلى المدينة حيث التقيا لأول مرة ، بعد أن قضيا أكثر من عقدين في الجو الريفي الخانق للستافروبول ، لقد كان التذوق المتوقع ، مرة أخرى لجو موسكو الغني ، الصاخب ، المثير ثقافياً ، ممتعاً ، وكخطوة أولى ، فور وصولهم انتقل الزوجان إلى شقة مريحة من شقق اللجنة المركزية في الكسي تولستوي Alexei Tolstoy . وبعد عام ، انتقلا ثانية إلى مسكن أكثر فخامة في شارع غرانوفسكي Granovsky ، حيث يقيم هنالك العديد من أعضاء المكتب السياسي ، وقد تمّ الانتقال الأخير في تشرين الثاني ١٩٧٩ ، عند بلوغه سن الـ٤٨ عاماً ، عين غورباتشوف عضواً مرشحاً للمكتب السياسي السوفييتي . وفي أقل من عام ، فيما بعد ، أي في شهر تشرين الأول عام ١٩٨٢ ، أصبح عضواً أساسياً في المكتب ، في الوقت الذي لم يزل تحت سن الخمسين ، حيث لم يكن فقط أقل بـ١٨ عاماً من العضو التالي الأصغر في المكتب السياسي غريغوري رومانوف Grigori Romanov ، بل كان أصغر بـ ٢١ عاماً من معدل أعمار تلك الهيئة السياسية .

هناك مظاهر أخرى للحفاوة والتكريم في الوقت الراهن ، تنتظر هذا الشاب الديناميكي (النشيط) . في عام ١٩٨٠ ، كان غورباتشوف عضواً مرشحاً لمجلس السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتي ، الهيئة التشريعية الرسمية والتي تمثل نظرياً أعلى جهة لسيادة الدولة في الاتحاد السوفييتي . اتبع السوفييت التقليد البريطاني ، الذي يقتضي أن يختار الساسة الكبار دوائرهم الانتخابية بغض النظر عما إذا كانوا يقيمون فيها أم لا ، ولكن خيار غورباتشوف كان به شيء من الخدعة (الدهاء) .

فقد اختار أن يمثل مقاطعة (ألتـاي Altai) حيث تعتبر الوحـدة الإدارية للأقلية القومية في سيبيريا، حيث توافق، أن رايسا غورباتشوف ولدت في روبت سوفسك Rubt Sovsk في المقاطعة نفسها.

إن السنوات السبع التي قضاها غورباتشوف وهو يرتقي المراتب بعد وصوله إلى موسكو شكلت فترة قيمة من الصقل السياسي له، إذ كان يتلقى المعرفة عن روافع القوة (السلطة) للسياسة السوفييتية. أما عن المشاكل الضخمة للاقتصاد السوفييتي، وعلى الأخص في الزراعة، فكان يحصل على خبرته الأولى في الاتصال الدولي على مستوى المكتب السياسي. وبنفس الوقت فقد بدا أنه يتحمل الآلام ليكون بشكل غير عادي بعيداً عن الأضواء. لم يظهر في الواقع كشخص قومي حتى عام ١٩٨٣.

لقد كانت هناك أسباب سياسية لتحفظه، فقد كانت، من الوجهة السياسية، فترة جيدة للبقاء بعيداً عن الأضواء، فكانت الفترة ١٩٧٨ ــ ١٩٨٢ فجر سنوات بريجينيف، الفترة التي بدا أن الركود الاقتصادي والحذر السياسي سيولدان الفساد والمكائد في المراكز العليا، فالمناورة لخلافة ذي الوجه المنتفخ، القائد المغمغم، والعاجز تقريباً، خرجت من طي الكتمان إلى الظهور.

فقد أصدرت جريدة لينينغراد الأدبية مقالة تهكمية بمناسبة عيد ميلاد بريجينيف الخامس والسبعين، تضمنت وصفاً كاريكاتورياً متدنياً وتقييماً تهكمياً للمدائح التي انهالت عليه قائلة: «يظن به الكثير من الناس

على أنه توفي منذ زمن بعيد، فقد كان التبجيل عظيماً جداً لمواهبه، لن ننتظر طويلاً قبل أن نسمع الثناءات تنهال كالرذاذ على الكاتب عند وفاته».
فقد كانت، غالينا، ابنة بريجينيف، محفوفة بالمخاطر، من خلال علاقاتها الشخصية بفضيحة تهريب الالماس المتورط بها مدير سيرك موسكو ونائب مدير الاستخبارات السوفييتية، ونتيجة لهذه الفضيحة فقد انتحر الموظف المسؤول الأخير عندما اشتدت تلك الفضيحة، فقد كانت هناك شكوك قائمة بأن الفضيحة كشفت بتعمد من قبل أندروبوف كوسيلة لتشويه سمعة سلالة بريجينيف الحاكمة، ممهداً الطريق ليكون خليفته في الزعامة القومية. غورباتشوف، باعتباره تحت رعاية أندروبوف. اهتم بأن لا يورط نفسه في مثل هذه المكائد، ولكن مناصرته لأندروبوف ساعدت بضمان خلافة المسؤول الأكبر عندما توفي بريجينيف في تشرين الثاني ١٩٨٢.

ما إن تولى أندروبوف، حتى خلّص غورباتشوف من مسؤولياته المرهقة نحو الزراعة، وأعطي منصب عضوية المكتب السياسي، وأمين سر اللجنة المركزية المسؤول عن الأيديولوجية، منصب ذو سلطة لا يستهان به، ذلك المنصب الذي تولاه ساسلوف لفترة طويلة حيث اضطلع به أندروبوف بعد وفاة ساسلوف في كانون الثاني ١٩٨٢، إذ اعتبر هذا المنصب هو المركز الثاني غير الرسمي في الحزب. فعندما منح أندروبوف هذا المنصب إلى غورباتشوف، اعتبر ذلك تلميحاً لثقة جديدة في نصير موثوق، ذلك

المنصب كان المفتاح لترقي غورباتشوف نحو القمة، فقد منحه المنصب المكانة البارزة ضمن المكتب السياسي، حيث زادت هذه المكانة خلال عام ١٩٨٣، عند بداية سريعة في محاولة من أندروبوف لإحياء النظام في المجتمع السوفييتي، تلك المحاولة التي خبت بسبب مرضه الأخير.

تلك الفترة كانت أيضاً فترة مهمة في العلاقات السوفييتية الأمريكية لأشهر قليلة من عام ١٩٨٣، أصبح معروفاً في الولايات المتحدة على أنه محب متستر للأمريكيين، يشرب الويسكي الفاخر، ويقرأ للكاتب كورت فونيغوت Kurt Vonnegut ويستمع لإذاعة صوت أمريكا سواء كان ذلك الانطباع ناجماً عن تفكير أمريكي تواق، أو تضليل من قبل الاستخبارات السوفييتية أو كليهما، وعلى الأرجح فإن ذلك الانطباع كاذب، فنادراً ما كان أندروبوف يغامر خارج البلاد، فهو لم يسافر أبعد من الكتلة السوفييتية، بغض النظر عن تقرير من وسيط ثالث، من مهاجر رفيق دراسة لابن أندروبوف، بأنه لا يوجد مؤشر على أن رئيس الاستخبارات السوفييتية المتزمت قد مارس أياً من تلك الميول المنسوبة إليه، وعلى أية حال، فقد كان دائم المرض في حين كان من المفروض أن يبدي للعيان أنه رجل سوفييتي من عصر النهضة، ومع ذلك، فربما كانت تلك الأحداث تسلط الأضواء على غورباتشوف، فمنذ ذلك الوقت فقد أظهر نفسه على نحو ممتاز كخبير في استغلال الرأي العام الغربي والأمريكي على وجه الخصوص، ومن المؤكد أنه من المبالغة أن نعزو إلى غورباتشوف خلق صورة أندروبوف المحب للأمريكيين، ولا بد أنه تعلم جيداً من الظاهرة.

من المحتمل أن الدروس الأكثر قيمة التي تعلمها غورباتشوف خلال فترة حكم أندروبوف أتت من المساعدة في إدارة بلاد مترامية الأطراف كثيرة المشاكل كالاتحاد السوفييتي. تفاقم مرض أندروبوف إلى درجة أنه أمضى شهوره الأخيرة في جناح خاص في مشفى بمجمع الكرملين، في كونسنيغو، إلى الغرب من موسكو، حيث كان يرى أفراد عائلته فقط وبعض المسؤولين المهمين الذين كانوا ينقلون المعلومات إليه، ويتلقون القرارات منه. أهم أولئك المسؤولين كان غورباتشوف، بصفته متدرباً على منصب قلَّ أن يحظى به نائب سلطة في الغرب، حتى نائب رئيس جمهورية الولايات المتحدة.

وبصفته النائب الأول لزعيم مريض فقد كان مجبراً ليضطلع بمسؤولية مدبر أزمة سياسية مثل إسقاط طائرة الركاب الكورية في أيلول ١٩٨٣، ومن المؤكد أن غورباتشوف كان رئيساً للمجموعة الفرعية في المكتب السياسي التي تعاملت مع الكارثة، أظهر التعامل مع تلك الكارثة، بشكل أكيد، بعضاً من تلك الميزات التي كان عليه أن يطورها في التعامل مع الرأي العالمي.

كان المبدأ الأساسي في التعامل مع هذه الكارثة هو تأزيمها، الأمر الذي كان بذاته غير عادي بالنسبة للاتحاد السوفييتي. تبنت لجنة الأزمة، كغطاء أساسي للقصة إثباتاً بأن الولايات المتحدة كانت تستخدم طائرة الخطوط الجوية الكورية طراز KAL (007) كطائرة تجسس، وبقي ذلك الخط الجوي لم يتبدل حتى يومنا هذا، الأمر غير المألوف بالتعامل مع المشكلة هو

المحاولة للحصول على تفسير لتلك القصة، مقبولة أم لا، أمام المجتمع العالمي وفقاً لمفاهيم الكرملين، عوضاً عن جعلها ببساطة إدّعاء بأنها طائرة تجسس ومن ثم التزام الصمت، أرسلت مجموعة غورباتشوف رئيس هيئة الأركان نيكولاي أوغاركوف Nikolai Ogarkov إلى ذئاب الصحافة الغربية لعرض المسألة بواسطة خريطة ومؤشر على أجهزة التلفزة في العالم، وقد نجح هذا التكتيك إلى حد ما. إن رغبة السوفييتي حتى بتقديم تفسير علني، إن لم يكن اعتذاراً، اعتبر في الغرب على أنه تحسن بالنسبة للممارسات السابقة.

لم تكن هناك أية فرصة للسوفييت أن يكسبوا الرأي العام، ولكن الممارسة أظهرت أن غورباتشوف كان جيداً مثل أي شخص في المكتب السياسي في استغلال الأوضاع السيئة لصالحه.

في الوقت الذي استمر فيه حكم الشيوخ بالانحدار، توفي أندروبوف في شباط عام ١٩٨٤، وكان غورباتشوف من بين المرشحين المذكورين لخلافته في الحكم، ولكن الوقت لم يحن بعد، فقد واجه غورباتشوف منافساً قوياً على المنصب ألا وهو غريغوري رومانوف، الذي كان زعيماً للحزب في لينينغراد لفترة طويلة وسكرتير الحزب المسؤول عن الصناعات الدفاعية، وهو الرجل الذي اعتبر مسؤولاً عن الهجوم السفيه ضد بريجينيف المحتضر، وبالأخص التلميح العابر في صفحة لينينغراد الأدبية، إضافة لذلك، كان يوجد توتر بين الجناح المحافظ في الحزب والجناح المجدد، أولئك التابعون

للراحل بريجينيف والرجال الذي أتى بهم إلى المكتب السياسي إبان فترة حكم أندروبوف.

ضمن السياسات الشيوعية السوفييتية، كانت القرارات تتخذ عادة بنوع من الإجماع البدهي، تعبر عن نفسها باجماعية التصويت بالرغم من أنها لم تكن كذلك دائماً. في مثل هذه الظروف، فإن الأصوات الفعلية نادراً ما كانت تؤخذ، أو أن التصويت يتم عندما يوجد تأكيد بأن مشهد الأيدي المرفوعة سيكون إجماعياً، وبمرور الوقت بنتيجة النقاش النموذجي يتم الوصول إلى قرار، فالمعنيون يعلمون مسبقاً بالنتيجة فيذعنون لها، في فترة القلق السياسي التي أعقبت وفاة أندروبوف لم يكن من الواضح أي من رومانوف أو غورباتشوف حاز على أصوات أكثر لتولي منصب الأمانة العامة. لذلك فإن المكتب السياسي واللجنة المركزية أرجأت بحذر، قرارها حتى صفت الأجواء ومن ثم انتخبت تشيرنينكو. كان القرار أيضاً مكافأة لرجل محنك ولكنه سياسي عجوز متمرس، كان يأمل بريجينيف بأن يخلفه، ولكنه أبعد بمناورة من أندروبوف، والأمر الأخير الأكثر أهمية كان ذلك تصويتاً لرجل لن يمكث طويلاً في السلطة، فقد كان تشيرنينكو يعاني من مرض عضال، بسبب ضعف في صحته وبالأخص إصابته بمرض انتفاخ الرئة، كان منهكاً وضعيفاً إلى حد كبير أثناء جنازة أندروبوف حيث لم يستطيع أن يرفع يديه ليمسك بالتابوت عندما كان محمولاً إلى داخل الساحة الحمراء، فهو بالكاد كان يستطيع المشي ضمن الغرفة بدون مساعدة.

ومهما يكن، فإن غورباتشوف جعل منها نقطة لعرض قوته على الملأ، في نهاية الجلسة العامة التي انتخب فيها تشيرنينكو، لم يكن غورباتشوف هو الأمين العام الجديد، ولا هو رومانوف، وليس أحداً من أولئك الراضين عن تلك الزعامة، إنما هو الذي ألقى كلمة الختام. والأمر الأكثر غرابة، هو أن غورباتشوف كان الوحيد من بين أعضاء المكتب السياسي الذي هبَّ واقفاً لتقديم تعازيه إلى تاتيانا Tatiana أرملة أندروبوف المفجوعة، أثناء مراسم الدفن. تلك المرأة التي لم تكن معروفة على الصعيد الخارجي قبل جنازة زوجها، تلك اللفتة الإنسانية الدافئة كشفت النقاب عن مدى قرب غورباتشوف من الزعيم السوفييتي الراحل.

لقد كان غورباتشوف مقرباً أيضاً من الزعيم الجديد، تلك العلاقة أصبحت مطردة على الصعيد العام عندما تدهورت الحالة الصحية لتشيرنينكو في نيسان ١٩٨٤، ألقى غورباتشوف خطاباً أمام مجلس السوفييت الأعلى يقترح فيه تعيين تشيرنينكو زعيماً للبلاد. لقد أقام غورباتشوف حجة قوية لدمج دور رئيس الدولة، أو على التحديد، رئيس مجلس السوفييت الأعلى مع الأمانة العامة للحزب الشيوعي، مقدماً البرهان أن الدور الفعال الأساسي للأمين العام في صياغة السياسة الخارجية، يجعل من هذا الدمج ضرورة ماسة، (ومما يسترعي الانتباه، أن غورباتشوف قدم عكس ذلك البرهان عام ١٩٨٥ عندما رفض وظيفة رئيس مجلس السوفييت الأعلى ومنحها لأندريه غروميكو Andrei Gromyko، إما كمكافأة على تأييده له، أو كوسيلة لإبعاده عن الشؤون الخارجية).

من المحتمل أن الفائدة التي سيجنيها غورباتشوف بترشيح تشيرنينكو، كان يقصد بها البريجنيفيين من الجناح المحافظ للمكتب السياسي كوسيلة للتباهي باستمرارية أغلبيتهم في المكتب السياسي، على الأقل طيلة فترة بقاء تشيرنينكو، تلك الفائدة كانت كإشارة واضحة عن وجود عمليات موازنة بين أمور لا يمكن تحقيقها جميعاً في وقت واحد. لقد جعل الرجل العجوز من نفسه مقبولاً لدى زمرة الشباب بالموافقة على عدم قلب سياسات النظام، والحد من مبادرة أندروبوف لتطهير الحزب من الأعضاء غير المرغوب بهم خلال فترة حكمه القصيرة. لقد كان غورباتشوف، على أية حال، في موقع يمكنه التأكد من ذلك، فقد كان بالحقيقة (السكرتير الثاني) لتشيرنينكو كما كان لأندروبوف، حيث اضطلع بالمسؤولية في فترات اشتد فيها مرض الأمين العام، بحيث لم يستطيع الظهور أمام الاجتماعات السياسية. تناوب غورباتشوف مع منافسه غريغوري رومانوف في ترأس جلسات المكتب السياسي، إلا أنه أصبح واضحاً، من خلال تصريحات لاحقة لمسؤولين سوفييت، بأنه فيما يتعلق بالسياسة الاقتصادية والخارجية وأحياناً في بعض الأمور الأخرى، كان غورباتشوف يقوم فعلياً بدور الأمين العام خلال الأشهر الأخيرة من حياة تشيرنينكو، وعلاوة على ذلك، فقد قبض غورباتشوف على عصا اتخاذ القرارات، التي كانت على الدوام غير فاعلة في الاقتصاد السوفييتي، ولا بد أن ذلك التدرب على العمل كان حاسماً بتأكيد تعيينه كأمين عام في ١١ آذار ١٩٨٥، عندما قضى تشيرنينكو نحبه.

إذا كان هنالك أية شكوك حول مهارات غورباتشوف السياسية غير العادية ، فإن مقدرته في البقاء بمركز السيطرة على الاقتصاد السوفييتي ، بعد الفشل الذريع للزراعة السوفييتية في السبعينيات ، تبدد هذه الشكوك . كان غورباتشوف ، على مدى خمسة أعوام ، هو الزراعة السوفييتية ، والعضو المنتخب في اللجنة المركزية المسؤول عن الشؤون الزراعية ، ولقد احتفظ بمنصبه هذا حتى عام ١٩٨٣ ، عندما انتقل إلى عمل سياسي أكثر فائدة بالإشراف على الشؤون الذاتية للأعضاء . ومع ذلك وفي الواقع ، فقد تسلم الرئاسة خلال أسوأ الأعوام للزراعة السوفييتية منذ المجاعة العظمى في الثلاثينيات .

وعلى الأغلب ، فور وصوله إلى موسكو سارت الأمور نحو الأسوأ لأسباب ليس مسؤولاً عنها . كان عام ١٩٧٨ جيداً للزراعة السوفييتية مسجلاً (٢٣٠) مليون طن متري من الحبوب (محصول ، ولسخرية الأقدار ، نضج في نفس الوقت الذي أكره فيه كولاكوف ، سيّئ الحظ ، على الانتحار بسبب التهجمات على سوء إدارته للزراعة) . ولكن الإعداد غير الملائم لموسم البذار التالي ، إضافة للأمطار الغزيرة ، أديا إلى تلف محصول عام ١٩٧٩ ، وقد بلغ مقدار ذلك المحصول (١٧٩) مليون طن ، أي بزيادة نسبية ٢٠ ٪ من محصول العام المنصرم . ففي عام ١٩٨٠ سجل المحصول (١٨٩) مليون طن ، ولكن المحصول عام ١٩٨١ سجل نقصاً مفزعاً لدرجة أن الأرقام الرسمية اعتبرت سرية للغاية . قدرت وزارة الزراعة في الولايات المتحدة الأمريكية هذه الخسارة بما مجموعه (١٥٥) مليون طن في

كارثة ذلك العام. لقد تحسنت الأحوال قليلاً عام ١٩٨٢ حيث عاد رقم المحصول إلى (١٧٥) مليون طن حسب تقدير الولايات المتحدة، (فقد ظل محصول الحبوب السوفييتي معتبراً من أسرار الدولة حتى عام ١٩٨٧).

وبالطبع فإنه بالكاد يمكن إلقاء اللوم على غورباتشوف، وذلك لرداءة الطقس وللغباء المتأصل في مبدأ الجماعية الستاليني في الريف السوفييتي. ولكن بصفته قبطاناً لسفينة كانت على وشك الغرق، فقد كان هو الرجل الذي تشير إليه الأصابع باللوم نتيجة لذلك.

والذي حدث، هو أن غورباتشوف كان قادراً أن يحمي نفسه لدرجة مقبولة وراء بريجينيف شخصياً. ففي أيار ١٩٨٢، عرض بريجينيف برنامجاً غذائياً دالاً على الطموح، الذي يمكن نظرياً أن يضع حداً للمخزونات الزراعية المزمنة في الاتحاد السوفييتي، وتحسين التغذية السكانية، وقد دعا البرنامج إلى بنية تحتية ريفية متطورة وتحسين ما أصبح يدعى بمعضلة الصناعة الزراعية، كما دعا لاتخاذ الترتيبات بتقريب المخزون الناتج ونقله، وإلى تسهيلات المعالجة اللازمة للتداول الكلي للمحصول السوفييتي، إلى المزارع. والأمر الذي لم يدع إليه هذا البرنامج هو عقد تأمين الزراعة الأسرية الذي طوره غورباتشوف تحت البرنامج الرائد في إقليم ستافروبول، الذي تمّت تجربته مع بعض النجاح في أجزاء أخرى من الاتحاد السوفييتي، (على الأخص في جورجيا بإدارة ادوارد شيفاردنادزه). لقد سمح نظام العقد باستقلالية أ للمزارعين وللأسر الزراعية والتنظيمات الجماعية الزراعية، تحت

البرنامج، كل أولئك، استطاعوا لأول مرة الحصول على مكافأة عينية للإنتاجية العالية، التي هي عبارة عن حوافز نقدية فعلية عوضاً عن مناشدات معنوية لعمل أكثر جدية.

كان اهتمام غورباتشوف، في وضع سياسة نظام العقد وتقريب المؤسسة الزراعية أقرب ما يمكن إلى المزارع، جلياً منذ تقلده لمنصب أمانة اللجنة المركزية في موسكو، وقد أراد، مثل بريجينيف، تحويل الإشراف على الزراعة إلى مراكز صناعية ـ زراعية محلية، التي يمكن أن يكون لديها فهماً أكثر عمقاً للاحتياجات والشروط المحلية الضرورية، من أولئك البيروقراطيين القابعين في موسكو، وفي الوقت ذاته، وجد من الضروري أن يبعد نفسه عن خطة أباتوفسكي التي تبناها، والتي ترمز إلى تركيز أعداد كبيرة من آلات الحصاد المكننة على رقع محدودة . وقد لقي هذا النظام نجاحاً ملحوظاً في بعض المناطق، ولكنه فشل عندما عُمِّم على كامل البلاد. لا بد أنه كان محرجاً لغورباتشوف أن يضع نهاية للمشروع الذي كان نجاحه الأساسي فيه المصدر الأول لبروزه القومي عام ١٩٧٧.

لقد لقي حماس غورباتشوف لتوسيع نظام العقد، على الأغلب، معارضة آنية والتي استمرت بشكل ملموس لعدة أعوام. ومهما يكن، ففي آذار ١٩٨٣ أعلن غورباتشوف في كلمة له أن المكتب السياسي قد صادق على إدخال نظام العقود الجماعية في المزارع الجماعية ومزارع الدولة، كانت هذه العقود مبرمة لأمد طويل، ويمكن أن تشمل عمل جماعات مستقلة. ولكن قرارات المكتب السياسي كانت شيئاً، والتنفيذ بواسطة آلاف المزارع

الجماعية وسلطات الحزب المحلية على امتداد الاتحاد السوفييتي كان شيئاً آخر. وبحلول عام ١٩٨٨، سار نظام العقد المتنامي بخطا وئيدة في معظم أنحاء الاتحاد السوفييتي بسبب معارضة من قبل المزارع الجماعية وسلطات الحزب المحلية الذين قلقوا من تناقص محتمل لسلطتهم.

إن عدم تأثر سيرة غورباتشوف السياسية بشكل ملحوظ بسبب النكسات الزراعية التي حلّت إبان توليه مقاليد السلطة، ما هو إلا انعكاس لعلاقته الفريدة مع أندروبوف، الذي بدأ أغلب الأحيان يصقل شخصية غورباتشوف للزعامة بإعطائه حرية التعلم من خلال أخطائه بدلاً من أن يكابد منها. علاوة على ذلك، فمن الواضح أن مسؤوليات غورباتشوف كانت أكثر من كونها محض مسؤوليات زراعية امتدت عبر سلسلة الأمور الاقتصادية. وحتى عندما كانت المحاصيل تتلف بسبب الجفاف أو تتعفن بنتيجة الأمطار الغزيرة، فقد شغل غورباتشوف نفسه في التنمية الاقتصادية السوفييتية، تاركاً تفصيلات الأعمال الزراعية لرئيس الدائرة المختصة في اللجنة المركزية. ومما يجدر الاهتمام به أنه عندما انتقل لإدارة الأمور الاقتصادية والذاتية عام ١٩٨٣، لم يعين سكرتيراً آخر ليحل محله مباشرة، فراغ يوحي بأن عمل الإشراف الرئيسي قد استمر على مستوى الدائرة بشكل دائم.

لقد انبثق ولاء غورباتشوف لأندروبوف من شعور بكون الأخير رئيساً سابقاً للإستخبارات السوفييتية، الذي حظي الاتحاد السوفييتي أثناء

زعامته، ولأول مرة، بقائد تفهم بعمق فداحة المشاكل الاقتصادية التي واجهت البلاد.

أكد أندروبوف بأن النظام في العمل هو المفتاح لإنتاجية متطورة، قرار محبب بشكل جلي، لمؤيديه المعتدلين والدؤوبين، لكن أفكار غورباتشوف لم تحدد بالأبعاد الإنسانية، فقد شغل نفسه بغير طائل في الأمور الاقتصادية الدقيقة، مراقباً الأسلوب الذي كان من المفترض أن يسير بموجبه العمل، وباحثاً عن أسبابه المنهجية عوضاً عن الفشل الإنساني، كما فعل في الأمور الزراعية، وخلال الفترة ١٩٨٢ ــ ١٩٨٥، متزامناً مع حكم أندروبوف ــ تشيرنينكو، أشرف غورباتشوف على (برامج خمس وزارات) حول اللامركزية والتجديد التقني. لقد كانت مع ذلك محاولة أخرى لكسر الطوق المكبل لحرية العمل بالمبادرة والاستقلالية، هذه المرة في مجال الصناعة الذي ما يزال يميز الاقتصاد السوفييتي.

لقد كانت أساليب غورباتشوف في تعليم نفسه حول الواقع السوفييتي، على أي حال أكثر أهمية من المبادرات العامة. فبعد أن أصبح أميناً عاماً للجنة المركزية بوقت قصير، وحسب ما قاله كبير مستشاريه الاقتصاديين آبل آغانبيغيان Abel Aganbegyan بدأ غورباتشوف بتنظيم حلقات بحث استطاع من خلالها الاقتصاديون وخبراء آخرون مناقشة مشاكل الأمة الاقتصادية بحرية وبشكل بعيد عن الرسميات.

«أيها الرفاق، كان غورباتشوف غالباً ما يستعمل هذه الكلمة عند

لقائه بالاقتصاديين لمناقشة المشاكل الاقتصادية معهم»، يتذكر آغانبيغيان قائلاً «الشخص الذي قابله في معهدنا (القسم الاقتصادي في أكاديمية العلوم) كانت الأكاديمية (تاتيانا) زاسلافسكايا. لقد كنت أقابله عادة لمناقشة المشاكل الاقتصادية العادية، وكان غالباً ما يجمع الاقتصاديين لمناقشة المشاكل وأساليب الإدارة، وكيفية دفع عجلة الاشتراكية والتنمية الاقتصادية قدماً، والتغلب على مشساكل التوزيع. لقد كانت تلك اللقاءات مثمرة جداً. وبالطبع كل شخص قال رأيه». وربما عقدت تلك الجلسات في مبنى اللجنة المركزية في موسكو، أو في منتجع ريفي خارج المدينة من وقتٍ لآخر.

وبالنسبة لزاسلافسكايا Zaslavskaya المميزة، وهي عضو في أكاديمية العلوم ورئيسة المؤسسة الاجتماعية أيضاً، فإنها إلى حد ما أكثر تواضعاً فيما يتعلق بدورها في تشكيل أفكار غورباتشوف الاقتصادية. ففي حديث لها لمراسل جريدة التايمز ترودل ليسننغ Traudl Lessing في فيينا عام ١٩٨٧، قالت زاسلافسكايا إنها لم تقابل غورباتشوف على انفراد أبداً، ولكنها قابلته خمساً أو ستَّ مرات فعلياً، مع مجموعة من الناس دائماً. «كنت أتكلم أمامه في تلك المقابلات»، قالت «وكان يصغي إليّ بانتباه ـــ وهو مستمع جيد ـــ وأنا أعرف أن علاقاتنا ممتازة»، ومضت قائلة، «خلال إحدى مقابلاتي جلست بجانبه، إنه من المستحيل وصف مقدار القوة والحماس اللتين تصدران عن السيد غورباتشوف، حتى يخال للشخص كما لو أنه

حقل جبار من الطاقة ، إن حيويته غير عادية وعلى الرغم من أنك تشعر بذلك التوتر فهو مستمع جيد ، وينتظرك حتى تتم كلامك » .

وحتماً ، لم تكن زاسلافسكايا مراهقة ذات أحلام رومانسية ، فهي تبلغ من العمر الثانية والستين ، وقد تعرضت لمخاطر سياسية لابأس بها لكونها رائدة في البحث الاجتماعي في الاتحاد السوفييتي منذ عشرين عاماً خلت ، عندما لم يكن يوجد حتى مجال معروف للبحث العلمي في البلاد . ومن العجيب أن نظرتها حول الطبيعة الإنسانية لاماركسية . فعلى مدى العقود السبعة الماضية من التاريخ السوفييتي ، أكدت الدعاية الرسمية والقطرية ، وكما فعل ماركس ، أنه لا يوجد هناك شيء يدعى الطبيعة الإنسانية ، لكن هناك فقط الطبيعة الطبقية ، وكنتيجة حتمية لهذه النظرية كان المجتمع السوفييتي ، وكان في طور خلق الإنسان السوفييتي الجديد بناء على مبادئ اقتصادية غير استغلالية مفترضة ، والذي يتصف بأنانية أسطورية وشجاعة ونشاط وحكمة . تقول زاسلافسكايا معارضة : « بما أننا قد أعطينا الطبيعة الإنسانية ، فإننا لن نخلق كائناً بشرياً مختلفاً ، وينبغي أن نقبل بالإنسان كما هو » .

إن الجملة الأخيرة ، حول الحاجة إلى « تقبل الإنسان كما هو » ، قد لا تكون مثالاً دقيقاً على الأسلوب الغورباتشوفي في حل المشكلة الاقتصادية ، لكنها أقرب ما تكون لهذا الأسلوب . فغورباتشوف يظل ماركسياً ملتزماً . إن ما يبدو أنه قد حدث بينما كان يقترب من واقع

الاشتراكية في بلاده هو أنه حقيقة كان مرتاحاً بالتخلص من الجوانب السرية والغامضة من الفلسفة الماركسية. وبالتأكيد فإن هذا لم يجعل منه شيئاً كما جعله رجلاً عملياً، كما تستخدم تلك الكلمة غير الدقيقة بشكل خطر غالباً، وشخصاً في طريقه لإعادة اكتشاف الرأسمالية. وهذا ما جعله مقتنعاً بالمفارقات الاقتصادية والفلسفية. لذا فإنه قادر على متابعة النتائج الاقتصادية لأجل تلك المفارقات دون أن يبدي قلقاً بشأن التعريفات الرسمية للمبدأ المقرر للماركسيين اللينيين. لم يتمتع أحد من القادة السوفييت الآخرين منذ عهد لينين بهذه الميزة، التي من الأفضل تسميتها (بالمرونة الدياليكتيكية).

كان لغورباتشوف فقط خبرة محدودة بالشؤون الخارجية عندما أصبح عضواً فعلياً في المكتب السياسي، في تشرين الأول من عام ١٩٨٠. كان بالطبع قد سافر قليلاً إلى فرنسا وإيطاليا وبلجيكا وألمانيا بشطريها وتشيكوسلوفاكيا، وكان أيضاً في سن مبكرة صديقاً حميماً لشخص أجنبي، هو زدينك ملينار، لذلك فقد أدرك الاختلاف بين الأفكار التي اشترك مع ملينار فيها، والأصول القومية والعواطف، لكنه لم يتفاوض مع أي من المسؤولين الأجانب على المستوى الرسمي، ولم يتعرض لصدام مباشر في الإدارات والرؤيات في تفسير العالم، وقد كان من الواضح أنه ليس جاهلاً بالغرب، كان على العموم قارئاً جيداً، ولكونه عضواً في اللجنة المركزية كان لا بد له أن يلم بالأمور الخفية التي كانت تحدث في العالم الخارجي أكثر من أي مواطن سوفييتي عادي.

لذلك فإن ما يدعو للغرابة، أن المرة الأولى التي ربما جلس فيها غورباتشوف وتحدث مطولاً مع شخص أمريكي لم تكن قبل حلول عام ١٩٨١، في موسكو. ذلك الرجل الأمريكي كان جون كريستال John Chrystal والذي كان في عامه السابع والستين آنذاك، وهو رائد للاتحاد السوفييتي لفترة طويلة، فهو مزارع ومدير بنك (بحلول عام ١٩٨٨ أصبح رئيساً لبنوك التروست، في دي موانس)، الذي وصف نفسه بأنه ديمقراطي حر، وقد قابل مسؤولين سوفييت رفيعي المستوى مروراً بـ نيكيتا خروتشوف وغيره منذ الخمسينيات. ففي كل سنة تلو الأخرى كان يزور الاتحاد السوفييتي لمدة طويلة ليرى عن كثب الإنجاز الزراعي في قسمين مختلفين من البلاد، وليسدي نصائحه الودية حول إمكانية تطوير الإنتاج، وبما أنه كان من الواضح أنه غير مهتم على الإطلاق بالأمور التقليدية المتعلقة بالكرملين ولكونه على خلاف مع أسلوب التشدد الأمريكي تجاه موسكو، كان السوفييت ممتنين ومرحبين. ففي عام ١٩٨١، وأثناء زيارته الاعتيادية للاتحاد السوفييتي أظهر مضيفوه اهتماماً كبيراً لحقيقة أنه سيزور مسؤولاً حزبياً شيوعياً هاماً ورفيع المستوى في اللجنة المركزية. لم يكن هذا المسؤول في الواقع سوى غورباتشوف الاسم الذي كان يعني شيئاً ضئيلاً بالنسبة لكريستال آنذاك.

وقد عقد الاجتماع في ما كان يسمى بالواقع مكتب غورباتشوف الركني، والذي كان على النقيض من مكاتب معظم المسؤولين السوفييت الممتلئة بالأثاث الفيكتوري الفاخر، بل مفروشاً بالأثاث الأسكندنافي

المريح والحديث ذي الألوان الفاتحة، كان هناك تغييران واضحان لما هو مألوف عن السوفييت عند لقاء الشخصيات الأجنبية، أولاً فيما عدا المترجم، لم يكن في الغرفة سوى كريستال، وثانياً فقد خلت الطاولة من الأدوات ومن قوارير المياه المعدنية وعلب السجائر، والأواني الزجاجية المتنوعة وغيرها التي كانت تميز الأسلوب التقليدي للمباحثات السوفييتية، لقد أدهش كريستال مدى اختلاف غورباتشوف عن المسؤولين السوفييت الذين قابلهم. «لقد كان ذا حضور متميز». تذكر كريستال قائلاً. «وهو يعطي انطباعاً بكونه رجلاً يشكل رؤية، ومثابرة، ذو ثقة قوية بنفسه. وهو لا يبدأ بحديثه حتى تنتهي من كلامك».

وقد تحدث الرجلان طوال فترة بعد الظهر، مستعرضين سلسلة كاملة من المسائل الزراعية وقضايا أعظم تتعلق بالإدارة الاقتصادية. إن كريستال الذي كان موقفه الأساسي تجاه الاتحاد السوفييتي دائماً ودياً، كان مشدوهاً لدرجة أنه لم يعِ كم كان غورباتشوف قاسياً في إدراكه للولايات المتحدة. إلا أنه بدا لكريستال أن غورباتشوف يؤمن حتى آخر كلمة من مقالات افتتاحية جريدة البرافدا أن المجتمع الأمريكي مؤلف من جيوش ضخمة توشك أن تموت جوعاً. يعلق كريستال «وهو يعتقد، لم يسبق له أن كان هنا، أن في الولايات المتحدة فقراً يدعو للشفقة إلى حد كبير، وفي اعتقادي أنه يظن أن هناك مدناً كاملة تعاني نوعاً من الفقر المدقع». كريستال الذي يقر بعدم الاهتمام الخاص بالأيديولوجية، يقول أيضاً بأنه أذهل بتصميم غورباتشوف على التزامه بالنظام الذي خدمه «أنه ماركسي

ملتزم » يقول كريستال بصراحة. ومن ثم يترجم كلمة (غلاسنوست) تلك التي لم تكن شائعة الاستعمال إبان اللقاء مع غورباتشوف عام ١٩٨١. ينوه كريستال « غلاسنوست، ليست غلاسنوست الأمريكية، إنما هي نتاج مختلف ».

الكندي يوجين ويلين Eugene Whelan الذي زار غورباتشوف في خريف ذلك العام وله نفس الانطباعات حول وجهة نظره عن الولايات المتحدة وهو وزير الزراعة في حكومة رئيس الوزراء بيير ترودو Pierre Trudeau للأحرار. أمضى عشرة أيام في موسكو مع بعثة رسمية من الكنديين، وقد ساد الجلسة جو من السرور والود إلى أن فتح موضوع الولايات المتحدة، كان يتحدث، استرجع ويلين قائلاً: « كيف أن الولايات المتحدة كانت المعتدية، كيف كانت تصنع الأسلحة »، وقال « إن الولايات المتحدة عادت إلى الأوضاع التي سادت في الخمسينيات ». وقال ويلين: « عندما اشتكت كندا حول الاعتقاد السائد في الولايات المتحدة وفي أماكن أخرى من الغرب بأن لدى الاتحاد السوفييتي أسلحة تفوق الحد الشرعي اللازم للدفاع، بدا غورباتشوف غاضباً « إن هذا الكلام خاطئ » رد الروسي، وأعاد إلى الأذهان أيام وزير الدفاع جيمس فورستال Jamesl Forrestal.

وبعد سنتين، في ربيع عام ١٩٨٣، كان لغورباتشوف تجربته المباشرة الأولى عن أمريكا الشمالية بصفته عضواً في مجلس السوفييت الأعلى، خبيراً زراعياً وعضواً في المكتب السياسي، وجهت إليه دعوة من قبل البرلمان الكندي ليرى عن كثب المزارع الكندية والإنتاج الغذائي. وقد أمضى عشرة أيام في

البلاد وكان سيبقى مدة أطول لولا وجوب عودته المفاجئة ولأسباب سياسية غير معلنة. لقد زار أوتاوا العاصمة الاتحادية، وكذلك أجزاء من أونتاريو، ومن ثم اتجه غرباً إلى بانف وسهول البرتا وتجول في المزارع والمصانع والمدارس والأسواق والكروم.

كانت هذه الزيارة أيضاً مؤشراً لمقابلة غورباتشوف ولأول مرة الرجل الذي سيصبح فيما بعد جزءاً هاماً من فريق إدارته: ألا وهو الكساندر ياكوفلوف Alexander Yakovlev السفير السوفييتي لدى كندا وهو في الواقع منفي سياسياً. وقد كان ياكوفلوف نجماً متألقاً في جهاز اللجنة المركزية عام ١٩٧١ لكنه وقع في إشكالات مع ساسلوف حول جدول فكري غامض فيما يخص القومية الروسية، وخسر ياكوفلوف وظيفته في اللجنة المركزية، إلى حد ما، كونه قد درس في جامعة كولومبيا في مدينة نيويورك أواخر الخمسينيات. تمَّ ارساله إلى كندا ليشرف على العمل الروتيني في مراقبة الولايات المتحدة، الذي هو الغرض الرئيسي من مركزه في اوتاوا. كان هذا العمل بالنسبة له تجربة (ماكلوهافيسكية) في مراقبة التلفزيون الأمريكي، وقراءة المنشورات الأمريكية واستيعاب الثقافة الأمريكية إلى أبعد الحدود. فمن مركز للتنصت في كندا اكتسب فهماً حدسياً عن كيفية تشكل الرأي العام الأمريكي، وبالطبع كيف يمكن استغلاله. وقد كانت أول فرصة سانحة له للاستفادة من هذه المعرفة أثناء رحلة غورباتشوف.

جلس الرجلان في ساعة متأخرة من الليل بعد وصول غورباتشوف

بوقت قصير إلى كندا وأسسا علاقة جيدة مع بعضهما، وقد بقي ياكوفلوف، مع كل ما يألف من الدعاية الغذائية ودعايات البيرة وبرنامج ليلة السبت على الهواء، على عهده حين كان يعمل في اللجنة المركزية في موسكو ناقداً فظاً ومراً للولايات المتحدة، وقد قدر غورباتشوف ما أعطاه ياكوفلوف من المعلومات الموجزة إبان زيارته لكندا. فبعد عامين وعندما أصبح أميناً عاماً للحزب، عاد ياكوفلوف العنيد إلى مبنى اللجنة المركزية كمستشار معتمد لغورباتشوف لشؤون الدعاية والإعلام، إلا أن غورباتشوف لم يكن مجرداً من الوعي السليم بالعلاقات العامة، فمضيفوه الكنديون رأوا فيه شخصاً متكلماً، قادراً وفعالاً كمسؤول سوفييتي.

جيم رايت Jim Wright مسؤول في وزارة الشؤون الخارجية الكندية، كان مع المبعوث في معظم تنقلاته في كندا، والذي راقب غورباتشوف عن كثب الذي كان مفتوناً بلون محلي كعملية تلقيح العجول في كالغاري، أو عندما كان يجيب على الأسئلة الفظة التي طرحت عليه من قبل لجنة العلاقات الخارجية في اوتاوا. لقد كان الأكثر حماساً، قال رايت وهو يصف الزعيم السوفييتي الذي كان قد بدا عام ١٩٨٣ للمحللين المسؤولين الكنديين، الرجل الذي يستحق الاهتمام في القيادة السوفييتية.

لقد أذهل رايت انجذاب النساء والأطفال بسهولة إلى غورباتشوف وتأثره بطرق الزراعة الكندية. وأثناء زيارته لإحدى مزارع الماشية طلب التحدث إلى أحد العمال هناك.

«نحن في الواقع لا نملك أي عامل في المزرعة»، قال المزارع مندهشاً، لقد كان يعمل هو وعائلته وجماعة من العمال اليوميين فوق مساحة من الأرض تبلغ المئات من الهكتارات. لقد كان غورباتشوف مذهولاً. فقد سمعه رايت والآخرون الذين يتكلمون الروسية يتمتم بكلمات خافتة: «سوف لن نرى مثل ذلك في الاتحاد السوفييتي حتى بعد خمسين سنة».

ومع ذلك فإن غورباتشوف أظهر نفس البرودة فيما يتعلق بالمسألة الفكرية التي تكرر حدوثها خلال حياته العامة. فعندما سئل بجفاء من قبل أحد أعضاء البرلمان الكنديين، لماذا يوجد الكثير من الجواسيس في السفارة السوفييتية في المدينة، أجاب بسرعة: إن هذا الرجل يردد (الاستفزازات الأمريكية). وبينما كان مضيفه الرسمي وزير الزراعة ويلين يريه ما في الصحف الكندية خلال رحلة جوية عبر البلاد، اطلع الاثنان على صفحة كاملة لإعلانات الأسواق تظهر صفقات بأفضل الأسعار.

وأخذ ويلين يتكلم عن منافع التجارة الحرة والمنافسة، لكن غورباتشوف قاطعه فجأة «لاتحاول يا جين أن تجعلني أرتد إلى الرأسمالية»، قال ذلك بحزم لكن بطريقة ودية «وأنا لن أحاول أن أجعلك ترتد إلى الشيوعية».

ولقد فوجئ ويلين بتعليق غورباتشوف الخفي أثناء الحديث عن أفغانستان «إننا متورطون في هذا الموقف، إنها كانت غلطة»، قال

غورباتشوف معترفاً. وفي منتصف عام ١٩٨٤ أصبح غورباتشوف رئيساً لمفوضية العلاقات الخارجية في مجلس السوفييت الأعلى، وعلى الرغم من خلو هذا المنصب من أي سلطة تنفيذية، كان مؤشراً أن القيادة السوفييتية أرادت لغورباتشوف أن يكتسب أكبر قدر من الخبرة في جهاز السياسة الخارجية السوفييتية.

في شهر تموز قام غورباتشوف برحلته التالية إلى الغرب، إلى روما، لتشييع زعيم الحزب الشيوعي الايطالي أنريكو بيرلينغيور **Enrico Berlinguer**، وقد أذهل انتونيو روبي **Antonio Rubbi** ــ وهو عضو في زعامة الحزب الشيوعي الايطالي ورئيس قسم العلاقات الخارجية فيه ــ أثناء الزيارة بصراحة غورباتشوف فيما يتعلق بالاتحاد السوفييتي. فقد عقد روبي وكبار القادة الشيوعيين الايطاليين أحاديث خفية مع غورباتشوف على العشاء خلال زيارته القصيرة «يحصل لديك انطباع بأنه كان شديد النقض للأوضاع في الاتحاد السوفييتي»، تذكر روبي قائلاً: «وقد قال إن هناك الكثير من المركزية وإنه يجب أن يكون هناك لامركزية، وكان يقول أيضاً إنه ينبغي للجمهوريات السوفييتية الخمس عشرة أن تكون أكثر قوة»، بالنسبة لروبي الذي زار الاتحاد السوفييتي لمرات كثيرة، والذي يتكلم الروسية بطلاقة. كانت هذه أول مرة اعترف فيها مسؤول سوفييتي أنه كان يوجد هناك مشكلة قومية، وعلاوة على ذلك انتقد تمركز القوى في موسكو، وبدوره فقد أدهش غورباتشوف بمنظر مئات الألوف من الايطاليين يرفعون قبضاتهم المغلقة بالتحية الشيوعية

مظهرين احترامهم للزعيم الايطالي الشيوعي، من غير أن يكونوا منظمين من قبل السلطات ليفعلوا ذلك.

وبنهاية السنة لاح في الأفق دنو أجل تشيرنينكو الذي لم يظهر للعيان في الأيام الأخيرة، وكان غورباتشوف يحكم البلاد فعلياً. ففي شهر كانون الأول واستجابة لمساعي رئيسة الوزراء البريطانية مارغريت تاتشر Margaret Thatcher الرامية لتحسين العلاقات مع موسكو، قرر السوفييت قبول دعوة قديمة لمسؤول رفيع المستوى إلى بريطانيا، وكان غورباتشوف الرجل المختار لهذه الرحلة، وقد كانت صفة هذه الرحلة من بدايتها إلى نهايتها كمقدمة لرحلات خارجية لزعيم البلاد في المستقبل. إن زيارة غورباتشوف إلى كندا لم تحظ إلا بتغطية إعلامية ضئيلة لأنه لم يكن أحد يعرف من هو، لكن أثناء رحلة عام ١٩٨٤، كان من الواضح أنه واحد من بين ثلاثة سيخلفون تشيرنينكو حتماً.

وقد تهيأت الصحف البريطانية لتغطية هذه الزيارة الرسمية، والتي ربما قوطعت بمظاهرات مناهضة للسوفييت. لكن عندما هبط غورباتشوف وعقيلته رايسا من سلم الطائرة في مطار هيثرو كان يرتدي بزّة فخمة، ويبتسم ابتسامة ودية، وبدت هي جذابة نسبياً وملائمة له تماماً. وقد اكتظ شارع فليت بالمستقبلين حتى نهاية الزيارة، ولقد تجمع الناس حول رايسا وهي تتجول في ستراتفورد ــ أون ــ أفون، وحين أخرجت البطاقة الذهبية (اميريكان اكسبرس) ذات الرصيد غير المحدود وذلك للتسوق من محلات

توني هارودر في لندن. وقد كانت رايسا في الأصل مدعوة إلى كندا لكنها لم تستطع الذهاب. لذلك كانت رحلة لندن بمثابة الفرصة الأولى التي تستطيع من خلالها لعب دور السيدة السوفييتية الأولى (بالرغم من أن غورباتشوف لم يكن قد تولى السلطة بعد).

لقد أدهش غورباتشوف البريطانيين الذين يتأثرون عادة، بالتلميحات للكاتب ك. نورثكوت باركنسون، أول من قام بدراسة ساخرة حول العادات البيروقراطية («عندي أخبار لك»، قال لصناعي بريطاني، «إنه في موسكو الآن»)، وكتأكيد على أنه قرأ الكتاب الأخير للكاتب البريطاني ك. ب. سنوز (دهاليز خاصة). أمتع غورباتشوف مضيفه بتعليقاته الساخرة حول مواضيع خطيرة وحساسة. وأثناء زيارة له لغرفة القراءة في المتحف البريطاني حيث أنجز كارل ماركس معظم بحثه لكتاب (داس كابيتال) وأعمال أخرى، قال غورباتشوف ضاحكاً: «إذا كان الناس لا يحبون ماركس، ينبغي عليهم توجيه اللوم على المتحف البريطاني». لكنه أظهر الجانب الفظ منه عندما جوبه من قبل عضو من حزب المحافظين في البرلمان حول اضطهاد الجماعات الدينية في الاتحاد السوفييتي. «أنتم تحكمون مجتمعكم، دعونا نحكم مجتمعنا»، أجاب بجفاء «أستطيع أن أعطيك بعض الحقائق عن حقوق الإنسان في المملكة المتحدة على سبيل المثال، أنتم تضطهدون مجتمعات وقوميات برمتها» يحتمل أن تكون هذه الإشارة كانت تدل على الدور البريطاني في شمال ايرلندا، وأنها لم تجعله محبباً لمستمعيه، مبرزاً كالعادة مهارته بالاستجابة للطبائع والأمزجة فقد كان

غورباتشوف يلين الصدمة بالتنويه أثناء الغداء مع أعضاء البرلمان فيما بعد قائلاً : «إن الحقيقة تنبثق من النقاش الساخن» .

في هذه المرحلة كان بمقدور غورباتشوف أن يلقى نجاحاً في بريطانيا لكونه أكثر أناقة ، ونموذجاً جذاباً بطبعه الزئبقي من بين العديد من الرجال الرصينين السوفييت ، الذين كانوا يدعون بمناسبات لزيارة بريطانيا . لم يكن من السهل إنقاذ سمعة غورباتشوف (كزعيم سوفييتي) إلا بتصريح مارغريت تاتشر ، بعد ساعات من النقاش والجدل الحاد مع غورباتشوف فقد صرحت على الملأ «إنني معجبة بالسيد غورباتشوف . يمكننا أن نعمل سوّيةً» ، ونتيجة لذلك عندما زارت مارغريت تاتشر موسكو في الصيف الماضي رداً على زيارة غورباتشوف لبريطانيا فإن ساعات النقاش امتدت لفترة أطول ، ثم أصبحت أكثر حدة مع أنها لم تصبح فظة ، بناء على تعليق أحد المراقبين البريطانيين «يبدو أن غورباتشوف يعتبر الجدل السياسي طبيعياً جداً» ، هذا ما علق به مسؤول بريطاني على اطلاع بالمحادثات .

إضافة إلى العديد من المسؤولين الغربيين فإن البريطانيين على كل حال كانوا مذهولين كيف أصبح غورباتشوف أكثر بساطة عند التحدث عن الولايات المتحدة ، فقد أثار مرة «معضلة الصناعات العسكرية» وبدا ببساطة مصدقاً أن الرئيس الأمريكي أعلم بماذا سيفعل بمصنعي الأسلحة . إحدى الوقفات إبان زيارته لبريطانيا كانت في « شيكويزر ، المقر الريفي

الرسمي لرؤوساء الوزراء البريطانيين، فقد أرادت تاتشر أن تجري مناقشات مع غورباتشوف في جو أقل رسمية مما تمَّ في:

١٠ ـــ شارع دواننغ في لندن، لقد جلس الاثنـان لمدة ثلاث ساعات ونصف من النقاش بينما كانت رايسا تتجول في الصالة الطويلة في الطابق العلوي منبهرة بالمجموعة القيمة للطبعات الأولى الأدبية وغيرها، مثل رسائل نابليون.

اضطر غورباتشوف إلى قطع زيارته إلى بريطانيا بسبب وفاة وزير الدفاع ديمتري أوستينوف. وعاد إلى موسكو بعد أن أدهش البريطانيين ليس أقل تماماً من واقع الحال عند انضمام قاطع طريق إلى جيش الخلاص. منذ ذلك الحين وحتى وفاة تشيرنينكو في شهر آذار التـالي فقـد كان غوربـاتشوف منشغلاً بإدارة الاقتصاد السوفييتي محاولاً الوصول إلى تفاهم مع التغييرات المتطرفة اللازمة لإبقاء الاتحاد السوفييتي فاعلاً على مدى العقد القـادم وما بعده. من المحتمل أن يكون وعي غورباتشوف لتفوق الإدارة الاقتصادية الغربية والتوزيع أثناء زيارته لبريطانيا جعله غامضاً على الأخص عندما خاطب اللجنة المركزية في أواخر عام ١٩٨٤، فقد أعلم مستمعيه «لن يمكننا البقاء كقوة عظمى في الشؤون العالمية ما لم نُعد تنظيم بلادنا». وبعد ثلاثة أشهر وجد نفسه مثقلاً بإدارة هذا العمل.

الفصل الخامس

المصلح

سار جميع الموظفين حاسري الرأس وراء الكفن، لا يشغلون أنفسهم حتى بتلك الأحاديث الساخنة التي عادة ما تدور بين الأشخاص الذين يحضرون جنازة، في تلك اللحظة كانت جُلّ أفكارهم مركزة على أنفسهم:

يتساءلون كيف سيكون العام الجديد، كيف سيدير العمل، وكيف سيتعامل معهم. نيكولاي غوغول Nikolai Gogol الأرواح الميتة ١٨٤٢.

عند الساعة الواحدة من بعد ظهر يوم الثالث عشر من آذار عام ١٩٨٥، تجمع قادة الاتحاد السوفييتي في قاعدة الأعمدة في موسكو لحضور جنازة في الساحة الحمراء، وهي الرابعة في غضون ثمانٍ وعشرين شهراً: انضم قسطنطين تشيرنينكو Konstantin Chernenko الذي لم يمض

على تسلمه لرئاسة الحزب الشيوعي أكثر من عام إلى ليونيد بريجينيفLeonid Brezhnev ، ويوري أندروبوف Yuri Andropov وديمتري استينوف Dmitri Ustinov الذين سبقوه إلى المقبرة البولشفية قرب حائط الكرملين ، ولكن تياراً داخلياً مثيراً خفف من الحزن العميق للحداد الرسمي هذه المرة ، إحساساً بأن هناك شيئاً جديداً سيحدث . كان يقود الموكب الجنائزي السكرتير العام الجديد ميخائيل غورباتشوف ، كالمشيعين في قصة جوجول ، لم يكن الموظفون الآخرون في هذا الموكب النهاري يفكرون بجثة السكرتير العام السابق في الكفن ، ولكن بدلاً من ذلك ربما كانوا يتساءلون كيف سيكون السكرتير العام الجديد ، كيف سيدير العمل وكيف سيتعامل معهم ، لو عرف هؤلاء الإجابة على تلك الأسئلة لندموا على قرارهم بترقية أصغر زميل لهم في المكتب السياسي لرئاسة الاتحاد السوفييتي ، القرار الذي اتخذ قبل ٤٨ ساعة فقط . خلال اثني عشر شهراً بدأ غورباتشوف وكأنه سيحطم العالم الهادئ المحاط بالبيروقراطية ، هذا العالم الذي بنوه لأنفسهم في عهد بريجينيف ، سيلام العديد منهم وسيجبر البعض الآخر على الاستقالة ، وسيبقى الآخرون متأرجحين بتلك السلطة المتناقضة ، سينغمس كل هؤلاء بل وكامل البلد بزوبعة عنيفة من الغلاسنوست والبيريسترويكا . كلمات غامضة لم تكن معانيها من بعد ظهر ذلك اليوم الآذاري البارد معروفة عملياً للعالم الخارجي حتى للسوفييت أنفسهم .

في معظم الأحوال ، كانت شكوك عديدة تدور حول غورباتشوف ، حتى أنه كاد أن يفشل في الوصول إلى منصب السكرتير العام . اتسم ذلك

النهار أو بدقة أكثر تلك الليلة، بمزيج من الحظ والانتهازية السياسية في الاجتماع العاجل للمكتب السياسي في العاشر من آذار والذي استمر حتى صباح اليوم التالي. كان واحداً من العناصر الفعالة في تنصيب غورباتشوف فرصة غياب ثلاثة أعضاء رئيسيين وهم: فلاديمير تشربتسكي Vladimir Shcherbitsky وهو قائد الحزب الأوكراني الذي كان في سان فرانسيسكو، وفيتالي فوروتنيكوف Vitali Vorotnikov إداري حيادي في الحكومة كان في يوغوسلافيا، أما الثالث فكان رئيس الحزب الكازاخستاني Kazakhstan دينموكخمد كوينيف Dinmukhamed Kunaev إذ أنه ما يزال في طريقه من بيته الذي يقع في مدينة المآتا Alma-Ata، سيعاني اثنان منهم في حكم غورباتشوف. فقد طرد كوينيف وأدين لعهده الطويل والفاسد في ولاية كازاخستان، وانتقد تشربيتسكي أكثر من مرة، واحتفظ بمركزه فقط لسماحة نفس قائد الحزب الجديد.

من بين هؤلاء الثلاثة كان فورتنيكوف هو الشخص الوحيد الذي من الممكن أن يدعم غورباتشوف في ليلة الكرملين الحاسمة، ولكن إضافة إلى غياب هؤلاء، كانت هناك عوامل أخرى مساهمة في انتخاب غورباتشوف، فقد كانت المناورات السياسية التي دارت رحاها أثناء التحضير لموت تشيرنينكو معقدة ومتسمة بالمكر والخداع. عمل غورباتشوف بشكل فعال كسكرتير ثانٍ خلال معظم فترة مرض تشيرنينكو وكان العنصر الكفء بشكل ملحوظ في المكتب السياسي خلال فترة المناقشات العلنية التي سبقت انتخابات مجلس السوفييت الأعلى في

٢٤ شباط عام ١٩٨٥، ولكن هذه الحقيقة لم تضمن تسلمه السلطة بل وكان بعيداً عن ذلك. فباستثناء وزير الخارجية أندريه غروميكو، لم يكن لغورباتشوف أي مؤيدين في المكتب السياسي للحزب. لقد أشار تشيرنينكو في الحقيقة ضمنياً في أواخر ظهوره العلني أن خليفته المفضل هو فيكتور غريشن **Viktor Grishin** الرئيس القوي لمنظمة الحزب في موسكو. أما لماذا فشل غريشن في تولي السلطة فهو سؤال مثير. فحسب بعض التقارير المقبولة وغير المؤكدة أن الـك.ج.ب أوضحت أنها تحتفظ بملفات فخرية تتعلق بفساد غريشن إبان رئاسته لمنظمة الحزب في موسكو. وهذا كان كافياً لمنع انتخابه للرئاسة، ولكن من الذي أثار قضية هذه الملفات ولماذا؟.

إن رئيس الـك. ج. ب، فيكتور شبريكوف **Viktor Chebrkov** يعد مرشحاً رئيسياً وذلك لعلاقته الوثيقة بيوري أندروبوف الراحل، لقد كان السبب واضحاً: هناك صفقة بين شبريكوف وغورباتشوف ربما يكون الدليل على ذلك أن غورباتشوف كسكرتير عام احتفظ بشبريكوف.

من المحتمل أن يكون كريغوري رومانوف **Grigori Romanov**، رئيس الحزب في لينينغراد ذو الباع الطويل، وقد رشح غريشن خلال ذلك الاجتماع الليلي، كان سيصوت لأي شخص غير غورباتشوف منافسه الرئيسي على السلطة خلال الأشهر الأخيرة من حياة تشيرنينكو، وبالتأكيد فمن الصعب التصور بأن هناك أي إنسان قد صوت لرومانوف: عضو المكتب

السياسي المتعجرف والمكروه الذي كانت قسوته بصفته زعيماً للحزب في لينينغراد قد أقلقت البقية من أعضاء المكتب السياسي.

إن اختيار غورباتشوف كمرشح لعضوية المكتب السياسي كانت المرحلة الأولى من العملية، ففي اليوم التالي أكد ثلثا أعضاء اللجنة المركزية للحزب البالغ عدد أعضائه ٣٠٠ شخص ترشيح غورباتشوف في اجتماعهم، لقد كان لهذه النتيجة تأثير فيما بعد.

كانت اللجنة المركزية، رجالاً ونساءً قد نشأوا على تقاليد بريجينيف، ودعمهم للمغرور غورباتشوف لم يكن مؤكداً، كان ذلك واضحاً من الإعلان الرسمي الذي تضمن أن الاختيار جرى (بروح واحدة) بدلاً من أن يقول (بصوت واحد أو بالإجماع). في الواقع فإن انتخاب غورباتشوف كان بالإجماع وربما بدون أي تصويت رسمي على الإطلاق.

ولكن إن كان هناك تصويت فمن المؤكد أن هناك الكثير من الأصوات امتنعت أو حتى صوتت ضد غورباتشوف، إن التصويت لمنصب السكرتير العام ليس عادة قضية أن يقف السيد (س) ضد السيد (ص)، هذه الإجراءات التنافسية ترفضها المبادئ الشيوعية ولكنها تصوت لأناس مقترحين لهذا المنصب كنتيجة لمناقشات واسعة، وعادة ما تكون بالإجماع (أو كنتيجة لاتفاقات جماعية).

فمن الواضح أن هذا الإجماع الروحي لم يتوصل إليه بسهولة، والذي يبدو أن ما أمال الكفة لمصلحة غورباتشوف هو ذلك الخطاب البارز الذي

ألقاه وزير الخارجية ذو الأعصاب الباردة غروميكو، ومع ذلك ففي هذه المناسبة كان يلتهب حماساً حيث ألقى خطاباً مرتجلاً أصبح شهيراً لتضمنه وصفاً معبراً وجيداً، حيث قال فيه: «أيها الرفاق إن لهذا الرجل ابتسامة لطيفة ولكن له أسناناً من حديد»، واستمر في تأكيده للأعضاء أن غورباتشوف كان على المستوى الذي يؤهله للعمل في مجال عمل غروميكو الحيوي: الشؤون الخارجية (بأنه أمر أوضح نوعاً ما بالنسبة لي منه لبعض الرفاق، أنه يستطيع أن يدرك بشكل ممتاز وبسرعة جوهر تلك التطورات التي تتفاقم خارج بلدنا على الساحة الدولية، وغالباً ما دهشت من قدرته على التمييز بسرعة وبدقة في جوهر مسألة ما واستخراج النتائج الصحيحة في مصلحة الحزب). إن شعور وزير الخارجية بضرورة جداله بهذه القوة لمصلحة غورباتشوف ربما يكون نتيجة أو دلالة على ضعف تأييد غورباتشوف من الآخرين.

إن ملاحظات غروميكو لم تنتشر أبداً على نطاق واسع في الاتحاد السوفييتي، ففي الحقيقة كان هناك القليل فقط من المناقشات العلنية عن الصراع الذي وضع غورباتشوف في الحكم، ولكن في كانون الثاني عام ١٩٨٧ نشرت المجلة الأسبوعية بعض الأفكار والملاحظات للمؤرخ المسرحي ميخائيل شاتروف Mikhail Shatrov عن عملية التغيير السياسي في الاتحاد السوفييتي، شاتروف الكاتب المسرحي ذو الاتصالات الواسعة، والمحنك سياسياً عرض هذا الوصف السري لتولي السلطة:

آذار عام ١٩٨٥ — لم يكن هذا صراعاً للسلطة وإنما صراع من

أجل فكرة، من أجل ضرورة وإمكانية استئناف أو تجديد الديمقراطية للبلد، صراع من أجل العودة إلى أفكار اكتوبر أي الثورة البولشفية. هل كان هناك بديلاً؟ من وجهة نظر المصالح الأساسية للاشتراكية لم يكن هناك بديلاً أبداً، ولكن يجب أن ننسى أنه كان يوجد بديلاً في الحياة الواقعية. إن شعارات مثل (دعونا نحول موسكو إلى مدينة شيوعية نموذجية) كانت غالباً ما تغطي الأكاذيب والفساد والنتائج الأخرى لفقدان الديمقراطية التي ظهرت في كل أنحاء البلاد، يجب ألا ننسى هذا الخطر الذي ظهر في آذار، وكان من الممكن أن يؤدي إلى رجعة (السلطة المطلقة) حتى ولو لم يكن مباشرة، كان بالإمكان حسم المشاكل الخانقة التي تعاني منها البلاد إما عن طريق الديمقراطية أو أن تكبت بيد حديدية، لم يكن هناك بديل ثالث).

إن الإشارة إلى الفساد في العاصمة السوفييتية جعل منافسي غورباتشوف بالتأكيد يجادلون لمصلحة غريشن، إن استقالة رومانوف المفاجئة في الشهور التالية لاستلام غورباتشوف السلطة أوحت أنه كان متورطاً في المناورات التمهيدية من أجل تنصيب غريشن، أما دور تشيربكوف فكان إثباته أصعب حيث لم يكن عضواً مصوتاً في آذار عام ١٩٨٥، مهما تطلبت الوسائل والذرائع والمصالح فإن غورباتشوف لم يرجع عن تصحيحه.

لم تكن جثة تشيرنينكو قد بردت بعد عندما بدأ غورباتشوف مهرجانه المدهش على صعيد السياسة الخارجية: سلسلة من اللقاءات المتواصلة مع أصحاب المناصب الرفيعة الذين أتوا ليقدموا تعازيهم وغادروا

متأثرين، نائب الرئيس الأمريكي جورج بوش ممثل الولايات المتحدة في موكب التشييع، غادر بعد لقائه مع الزعيم السوفييتي الذي استمر لمدة ٨٥ دقيقة يحمل الآمال الكبيرة قائلاً بأننا نستطيع أن نحرز تقدماً في جنيف، وأننا نستطيع أن نصل إلى تخفيض كلي للتوترات، ووجد الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران Francois Mitterrand غورباتشوف رجلاً هادئاً، أما رئيس الوزراء الكندي بريان مولروني Brian Mulroney فقد رأى أن غورباتشوف يتمتع بالقوة.

ولاحظ المستشار الألماني هيلموت كول Helmut Kohl قائلاً: عندما تسمعه فلا يحدث عندك انطباع بأنك تستمع تراتيل الصلاة التأبينية، أما حاكم الباكستان الجنرال محمد ضياء الحق فربما فضل تلك الصلاة على التوبيخ الذي وجهه غورباتشوف لدعم الباكستان للمتمردين الأفغان، وقد وافق الجميع بدون استثناء مع ما صرحت به مارغريت تاتشر بعد لقائها في موسكو: أنه رجل يمكن الحوار معه. لقد أراد السكرتير العام الجديد أن يظهر لشعبه أيضاً أن لديهم قائداً قوياً نشيطاً، قائداً سيكون أكثر قرباً إليهم من أسلافه، وكانت صورته صورة رجل متواضع ومخلص، لم يسمح للصور العملاقة بأن تعلق في المدينة سواء أكانت له أو لأي من أعضاء المكتب السياسي، وقد أزيلت صور صف القتلة المعلقة على عواميد المكتب السياسي ذات الثلاثين قدماً والتي غطت الشوراع الرئيسية، وخلال شهر من جنازة تشيرنينكو، بدأ غورباتشوف يظهر في المصانع، والمشافي

والمدارس متبوعاً بكاميرات التلفزيون وبحشود من المواطنين المذهولين والمعجبين في آن واحد.

وجاء امتحان غورباتشوف كرجل الشعب عندما أدرك السوفييت أنه يعتزم أن يضع حدوداً صارمة للكحول التي يعتبرها المخدر الأكثر استعماراً وضرراً في الاتحاد السوفييتي. ففي المرسوم الصادر يوم السادس عشر من أيار عام ١٩٨٥ أمر بتخفيضات كبيرة على إنتاج الفودكا، وغرامات متزايدة على السكر العلني، وتخفيض عدد المحلات التي تبيع المشروبات الكحولية، وتقليل ساعات عملها ورفع عمر الشاربين من ١٨ إلى سن ٢١ عاماً. خلال الليل تشكلت الطوابير الطويلة أمام محلات بيع المسكرات واجتاحت الأمة في تلك الفترة نكات معادية لغورباتشوف، معظمها كان لطيفاً أو حتى ودياً. كان يشار إليه بعبارة (سكرتير المياه المعدنية) وبدلاً من تسميته السكرتير العام كان يدعى gen sok أي سكرتير العصر.

لكن كان لبعض نكات الفودكا إطار معين، ففي واحدة منها يخرج مدمن الخمر الغاضب من الطابور خارج مخزن المشروبات الكحولية معلناً: أنا ذاهب إلى الكرملين لأقتل ذلك الرجل، وبعد ساعة يعود مكتئباً، فيسأله الآخرون: ماذا حدث؟ فيجيب: اذهبوا لتروا حجم الطابور هناك. كعادتهم دائماً يجد السوفييت في نقص الفودكا سبباً للضحك على النظام وعلى قائده. في واحدة من القصص أن رجلاً مسناً تعباً رثّ الملابس يخرج حاملاً زجاجته بعد أن انتظر لمدة ثلاث ساعات، يداه ضعيفتان فتقع

الزجاجة وتتحطم، فيشفق الشاربون الآخرون عليه ويجمعون له ثمن زجاجة أخرى فينضم الرجل العجوز إلى الصف، لينتظر ثلاث ساعات أخرى ويحصل على زجاجة أخرى مرة ثانية فيوقعها، ويشفق عليه الآخرون في الصف مرة ثانية ويجمعون له نقوداً، فيقول واحد منهم «انظروا إذا كان على العجوز أن يقف في آخر الطابور مرة أخرى فسيغلق المخزن قبل أن يصل دوره دعونا نضعه في بداية الطابور»، ويوافق الآخرون فتسقط دموع الرجل من طيبتهم فيصيح: «يا الله أحبب روسيا»، «في أي بلد آخر ترى مثل هذا الشيء يحدث؟».

إذا وجدت مرارة واسعة الانتشار حول نقص الكحول بين العديد من الرجال، تجد أيضاً أن هذه الحملة المعادية للكحول قد رحب بها بشكل عام من قبل النساء اللواتي سئمن من إدمان أزواجهن على الشرب. وقد دعم العديد من المديرين الصناعيين البرنامج لعلمهم من خلال التجربة المحزنة بتأثير الكحول على الإنتاج، وقد نظر آخرون إلى الحملة على أنها قضية طويلة الأمد تستغرق جيلاً أو أكثر لتعطي النتائج المرجوة. قال دبلوماسي مسلم موافق على الحملة «لن تكون هذه السياسة ناجحة هذا العام أو العام القادم أو حتى في عشر سنين، ستكون ناجحة إذا لم ينم الجيل القادم معتقداً أن كل مناسبة اجتماعية يجب أن تتحول إلى مباراة شرب، إنها سياسة للمستقبل».

رغم ذلك فقد أدرك الأطباء وعلماء الاجتماع أن هذه القوانين الصارمة

وشبه التحريم هذا سيبقيان فعالين فقط على المدى القصير، وقد كانوا محقين في ذلك، فخلال أشهر من قيود غورباتشوف على الكحول أصبح هناك نقص في السكر نتيجة لأعمال تقطير الويسكي التي أصبحت واسعة الانتشار، وقد بيعت كل زجاجات الكولونيا الرخيصة في البلاد. قال أحد الموظفين المتوسطين السوفييت «إن السكيرين ما زالوا يحصلون على الفودكا، ربما تكلفهم وتتعبهم أكثر لايجادها، ولكنهم ما زالوا يحصلون عليها. أما بقيتنا فهي التي تعاني، فنحن لا نريد أن نقضي كل هذا الوقت في الطابور، لذلك فنحن الذين نعاني».

لكن غورباتشوف لم يتردد في تصميمه على وضع نهاية لهذا المرح الوطني مع أنه سمح بتعديلات في أوقات خاصة على ساعات البيع ليزود الأشخاص الراغبين بشراء زجاجة كحول لحفلة عيد ميلاد مثلاً.

كان غورباتشوف في الشهور الأولى لاستلامه الحكم مهتماً ببقائه في ساحة سياسية خطرة أكثر من اهتمامه بمشكلة السكيرين، حيث شن حملة تطهير في الحزب والدولة جرفت وأحالت الآلاف من البيروقراطيين التقليديين إلى التقاعد، أو حتى في بعض الحالات إلى السجن بتهمة الفساد، لقد كان وقتاً عصيباً لرجال عهد بريجينيف القدامى الذين كانوا يديرون إقطاعياتهم الوطنية والإقليمية كأمراء الامبراطورية القديمة. كانت موسكو نادراً ما تتدخل في شؤونهم طالما أنهم يظهرون ولاءهم، ويدفعون جزية مناسبة ويبقون شعبهم هادئاً.

ظهرت أولى بوادر تعرض هؤلاء للمشاكل في أيار من عام ١٩٨٥ عندما ذهب السكرتير العام الجديد إلى لينينغراد في واحدة من استطلاعاته. ففي حديث لأعضاء الحزب أصدر تحذيراً قائلاً: يجب علينا جميعاً أن نغير مواقفنا من العامل إلى الوزير وأي إنسان ليس مستعداً للتغيير يجب ألا يقف في طريقنا. فيما بعد علق فيتالي غورتيك Vitali Korotich وهو محرر بارز على التغييرات التي كان غورباتشوف سيقوم بها بتعبير ذكي قائلاً: «هذه أمسية راقصة لمجتمع لم يرقص أبداً. وفي مرقص متعدد القوميات كهذا فإن الكثيرين سيدوسون أقدام بعضهم البعض».

لقد جعل غورباتشوف مئات الآلاف فعلاً يدوس بعضهم البعض، عندما استلم السلطة كان الحزب بادئاً بعملية المناقشات العلنية التي تُجرى كل أربع سنوات تحضيراً لمؤتمر الحزب السابع والعشرين الذي سيعقد في بداية عام ١٩٨٦، لقد استغل غورباتشوف هذه العملية كفرصة لتنفيذ ما وصف على أنه تطهير أيضاً (غيرموي) لكوادر الحزب أو لموظفيه المتفرعنين. وقام أيضاً بإقالة ونقل للعشرات من الوزراء إجبارياً. كان أول الراحلين غريغوري رومانوف اللينينغرادي خصم غورباتشوف في اجتماع المكتب السياسي الليلي الذي أعقب وفاة تشيرنينكو. وبدأت إشاعات مشحونة بالفضائح تتعلق برومانوف بالانتشار في العاصمة من قبل الموظفين المتعاطفين مع غورباتشوف الذي كانوا ينقلونها للدبلوماسيين والصحفيين الأجانب، وذلك لتنتشر بين الجماهير عبر محطات الأذاعة الأجنبية. قالت الإشاعات إن رومانوف كان مدمن شراب، ويشترك في حفلات السكر

والعربدة، وكان يسيء استعمال سلطاته ويتنمرد على مرؤوسيه في لينينغراد. تروي إحدى القصص أنه أمر متحف الأرميتاج الشهير في لينينغراد بتزويده مجموعة من الخزف الصيني الفاخر التي لا تقدر بثمن وذلك لوليمة عرس ابنته، فتحولت الحفلة إلى عربدة والعديد من هذه القطع تحطمت على أيدي الضيوف المخمورين. إن هذه القصة تتلاءم تماماً مع اسمه رومانوف، فقد كانت أسرته من السلالة الامبراطورية الحاكمة عندما جاء البولشفيون وطردوهم في ثورة تشرين الأول في منتصف الصيف. قال رجل الشعب «إن آخر عائلة رومانوف» قد طرد بدوره، لقد تقاعد وذلك «لأسباب صحية» هذه المرة قالت الشائعات إنه كان يعالج من إدمانه على الكحول.

كان رومانوف ضحية غورباتشوف السياسية ولكن كان هناك ضحايا آخرون. فعند بدء مؤتمر الحزب استبدل ٦٠٪ من وزراء الدولة. وفي بعض الجمهوريات كجمهورية كازاخستان أصبح السكرتيريون الأوائل للحزب كلهم جدداً في أكثر من نصف المقاطعات، وقد أزاح غورباتشوف أيضاً بعض الأناس الذين لا يرجى منهم خير من القوات المسلحة. لقد أظهر قوة التصميم وقوة الاقناع باستبداله ضباطاً ذي باع طويل كالادميرال سيرغي جورشكوف Sergei Gorshkov ــ ٧٧ عاماً باني البحرية الحديثة، والجنرال اليكسي يشيبيف Alexei Yepishev ــ ٧٩ عاماً رئيس الإدارة السياسية للجيش. إن السهولة الكبيرة التي تميزت بها عملية الاحالة على المعاش لهؤلاء الجنود والبحارة القدامى أظهرت كم كان غروميكو محقاً حين قال: إن لهذا الرفيق أسناناً من حديد.

إن صانع هذه العبارة في الواقع كان واحداً من أولئك الذين حالما شعروا بألمها المبالغ، فخلال فترة غروميكو كانت وزارة الخارجية مركزاً مستقلاً للسلطة لا يمكن الاعتداء عليه، وكان هذا المركز في معظم الأحيان حراً من تدخل بيروقراطية الحزب، وكانت أيضاً مقعداً للمحافظة على محاباة الوضع القائم، ومقاومة التغيير بما يعادل النظام القديم عند الانكليز. من بين كل مراكز السلطة السوفييتية بدت وزارة الخارجية وكأنها الأمنع في وجه الاصلاحات الجذية. مع ذلك ففي جلسة لمجلس السوفييت الأعلى في تموز عام ١٩٨٥ أُستبدل غروميكو وزير الخارجية بـ ادوارد شيفاردنادزه عضو المكتب السياسي ذي الشعر الأبيض الودود، من جمهورية جورجيا الذي لم يكن لديه عملياً أية خبرة دبلوماسية. إن ما عرفته الوزارة وعرفه العالم من هذا المظهر الجورجي الهادئ يخفي وراءه إدارياً قديراً ومفاوضاً صارماً سينقح جذرياً الوزارة والسياسة الخارجية السوفييتية.

وقد كوفئ غروميكو رجل الكرملين الجليدي لخروجه عن الطريق بتوليه منصب رئيس مجلس السوفييت الأعلى وهو المنصب الذي غالباً ما يكون فخرياً. إن رئاسة الاتحاد السوفييتي هي منصب لقص الأشرطة الحريرية ولوضع الأوسمة. وقد نقل ببراعة من وجه تقدم السياسة الخارجية، وأبقى مقعداً في المكتب السياسي وحرية استعمال المهارات العديدة التي اكتسبها، وتعود عليها خلال السنين العديدة له في السلطة. أظهرت هذه الخطوة لخصوم غورباتشوف المحكمين أنه يكافئ بالإضافة إلى أنه يعاقب.

بما أن غورباتشوف بدأ يشعر بالأمان سياسياً في عمله فقد امتد تصوره إلى ما وراء الحاجز ، إلى المستقبل الممتد حتى نهاية هذا القرن ، هذا التصور الذي إن ظل على قيد الحياة لحدث ضمن فترة حكم . وقد وضعت بعض الأهداف ، في نهاية آب عام ١٩٨٥ وفي مقابلة استثنائية مع مجلة التايم التي كانت الأولى بالنسبة له مع مؤسسة إعلام غربية . فخلال جلسة الكرملين التي استمرت ساعتين مع محرري المجلة وفي أجوبة مكثفة لاسئلة مكتوبة أظهر غورباتشوف إحساساً روحياً ومثالياً حول الحد من الأسلحة والعلاقات مع الولايات المتحدة فقال «إن الوضع في العالم اليوم معقد جداً» . وفي موضع آخر استعمل استعارة أصبح يرددها كثيراً في المستقبل «الوقت يمر وربما يكون متأخراً جداً ، إن القطار ربما يكون فعلاً قد غادر المحطة ... يجب علينا أن نجند الإدارة السياسية والحكمة لإيقاف هذه العملية ، ولبدء عملية التخلص من الأسلحة وعملية تحسين وتقوية العلاقات بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة» .

كان من الواضح أن هذا الإلحاح نجم بشكل رئيسي عن اهتمامه بالاقتصاد المحلي ، لقد كان اقتصاداً مليئاً بالفوضى ، فحتى عام ١٩٧٥ كان الناتج الاقتصادي السوفييتي حوالي ٥٨٪ بالنسبة لناتج الولايات المتحدة ، ولكن بحلول عام ١٩٨٤ هبط هذا الرقم إلى ٥٤٪ ومن المحتمل أنه بدأ ينحدر من ذلك الحين . ففي مقابلته مع التايم وضع غورباتشوف الخطوط العريضة لخطته مستعملاً عبارات مثل الربح ، سياسة التسعير ، الاعتمادات ، الاكتفاء الذاتي للاستثمارات ، الانعاش ، الاقتصاد ، واختتم حديثه بالقول

«فكر في أمر واحد: ما هي الشروط الخارجية التي تحتاجها حتى تكون قادراً على تنفيذ هذه الخطط؟ أترك الإجابة على هذا السؤال عندكم».

أعلن غورباتشوف في اجتماعات متنوعة أخرى خلال الأشهر التالية عن برنامج يمتد إلى ١٥ عاماً للتغييرات في الاتحاد السوفييتي وفي العالم، هذا البرنامج وصل إلى حد إدراكه التصور الشيوعي الجديد للقرن الحادي والعشرين، لقد كان أكثر تواضعاً من التوقعات السابقة المبالغ فيها والتي تنبأت باتحاد سوفييتي أغنى من الولايات المتحدة، هذا الوعد الذي نسب بشكل أساسي إلى نيكيتا خروتشوف الذي يتخيّل بثقة في عام ١٩٦١ أن مستوى دخل الفرد في الاتحاد السوفييتي سيفوق دخل الفرد في الولايات المتحدة بحلول عام ١٩٧٠. وقد كان برنامج غورباتشوف أقل تهديداً أيضاً من الفكرة الماركسية عن الثورة العالمية. إن تصوره كان طموحاً ولكن لا يتخطى أحلام رجل عملي. فقد تضمن:

ــ برنامجاً للحد من الأسلحة يقترح التخلص من الأسلحة النووية بحلول نهاية القرن الحالي، وفي عام ١٩٨٧ مهد الطريق ولأول اتفاقية بين القوى العظمى لإبطال نوع كامل من الأسلحة النووية.

ــ تخفيف القيود على حرية التعبير ومنحها بالتساوي للجميع. وهذا قائم على أساس الغلاسنوست السياسية وعلى تنشيط لم يسبق له مثيل للفنون والصحافة.

ـ إصلاحات في الحقوق المدنية تتضمن إطلاق سراح عدد كبير من السجناء السياسيين، وتخفيف القيود على السفر إلى الخارج ومراجعة سجل المجرمين السوفييت.

ـ إصلاحات اقتصادية ـ برنامج إعادة البناء الذي يركز أكثر على المبادرات الفردية وعلى السوق كوسائل لتحسين اقتصاد راكد سيئ السمعة.

ـ حركة تدريجية نحو تعميق (الديمقراطية) في المجتمع السوفييتي تتضمن انتخابات العمال للمديرين وانتخابات على المستويات الدنيا للحزب.

ـ إعادة تنظيم جذري للسياسة الخارجية السوفييتية ومؤسسات الدعاية، ينتج عنها تحسينات مدهشة في العلاقات مع بقية دول العالم، وتحسين صورة الاتحاد السوفييتي العامة.

وقد تابع غورباتشوف هذه الأهداف بشكل أساسي من خلال مهاراته العديدة كمفاوض، لقد نجح بسهولة مدهشة في لفت الانتباه، وإن لم يكن دائماً في لفت انتباه العالم المتشكك حوله وبشكل خاص جذب موافقة الإدارة الأمريكية التي غالباً ما تكون معادية لبلاده.

لقد كان ماهراً في اختيار الوقت الصحيح والمكان الصحيح لإعلان مبادراته للحد من الأسلحة، فقد اختار الذكرى الأربعين لضرب هيروشيما بالقنبلة الذرية لإعلان حظر من طرف واحد على الاختبار التحت أرضي للأسلحة النووية متحدياً الولايات المتحدة أن تفعل الشيء نفسه. ولكن

إدارة ريغان رفضت أن تقبل الرهان بإصرار، ومع ذلك فقد مدّد غورباتشوف ذلك الحظر ثلاثة وأربعة أشهر إضافية.

على الرغم من أن المستوى الإعلامي لبرنامج غورباتشوف للحد من الأسلحة أوجد مرونة حقيقية، وكان كافياً لإقامة اجتماع القمة في جنيف مع الرئيس ريغان. كانت هذه المواجهة جديرة بالذكر وذلك للجو الذي سادها وليس للانجازات التي حققتها، ولكن ربما يكون اللقاء هو النقطة الأساسية. كان لقاء جنيف (قمة موقد النار) جلسة حميمة تمثلت بصورة الرجلين الجبارين في العالم جالسين بتواضع في كوخ متواضع أيضاً أمام نار هادئة، يقيسون كفاءة بعضهما البعض، فالذي اكتشفاه لم يكن ليفاجئ أيّاً منهما: آراء قوية مدعومة بإدارات قوية. فقد أصر ريغان بعناد على ضرورة برنامجه حرب النجوم، وأدانها غورباتشوف بنفس العناد والتصميم فقال «إنها ليست مقنعة» وقال أيضاً «إنها عاطفية ومجرد أحلام، من سيتحكم بها؟ ومن سيراقبها؟ إنها تفتح المجال لسباق تسلح في الفضاء... لماذا لا تصدقنا عندما نقول إننا لن نستعمل الأسلحة ضدكم؟» كان جواب ريغان: «أنا لا أستطيع أن أقول للشعب الأمريكي إنني سآخذ كلمتكم عهداً في حين أنكم أنتم لا تصدقوننا».

بكلمات أخرى لا يوجد ثقة، ولكن تبادل وجهات النظر جاء ليوضح كلمات مارغريت تاتشر أن غورباتشوف هو الشخص الذي يستطيع ريغان أن يعقد معه إتفاقاً، إما أن تكون امبراطورية شريرة

أو لا تكون . فنتيجة لجينيف أتت ريكيافيك ، ونتيجة لريكيافيك جاءت قمة واشنطن واتفاقية (INF) ، وعلى جدول الأعمال ، قمة موسكو وستارت START★ عام ١٩٨٨ .

خلال ذلك الوقت واصل غورباتشوف طرح مبادراته شبه الشهرية للحد من الأسلحة ، بعض أفكاره هذه لم تكن إلا تغييرات ثانوية في المواقف السوفييتية لم تقدم إلا للدعاية ، ولكن في مقابلته مع مجلة التايم أظهر إحساساً بالإلحاحية ، وبغض النظر إن كان مخلصاً في هذا أو لا فقد أثّر بشكل فعال على الرأي العام . فبعد كل قمة كان يرسل مبعوثيه لطرح مقترحاته وقد نجح هذا التكتيك . اجتاح تأثير غورباتشوف العالم لدرجة أن بعض استفتاءات الرأي في أوروبا الغربية أظهرت في بعض الأحيان أنه أكثر شعبية واحتراماً من الرئيس الأمريكي . حتى في أوروبا الشرقية سجل غورباتشوف بعض الملامح ، فاستطاع استبدال الاستياء في فترة ما بعد الحرب بإعجاب ، وفي بعض الأحيان استبدل بحب شعبي حقيقي لهذا القائد السوفييتي الجديد .

لكن غورباتشوف لم يكن يستحق هذا الحب دائماً فالعديد من إنجازاته لم تحقق الأهداف الموضوعة كلياً ، وهذا كان متعمداً في بعض الأحيان ، فكان يمكن الوصول إلى معاهدة (INF) التي وقعت في واشنطن قبل ذلك بوقت طويل لو أن السوفييت قبلوا (خيار الصفر) الأمريكي في

★ Strategic Arms Reduction Talks (محادثات تخفيض الأسلحة الاستراتيجية)

أوروبا وإجراءات التحقق الصارمة من تنفيذه. ولو أن غورباتشوف لم يضيع أكثر من عام في محاولاته لربط وفصل إعادة ربط الـ(INF) مع عناصر أخرى للحد من الأسلحة. وإن الفضل الذي نسب إليه لإصلاحاته في مجال حقوق الإنسان لا يستحقه عندما يدرك الأنسان أن سياساته تلك أقل من المتوقع ومن المطلوب في دول أوروبا الغربية الصناعية. أما الاقتصاد السوفييتي فتركيب واسع ومتداعٍ مؤلف من وزارات بيروقراطية، ومن تخطيط مركزي ضيق الأفق لا يمكن أن ينصلح بأفكار لا تتعدى كونها إصلاحاً غير بارع، ولا تتعدى (ديمقراطية) غورباتشوف أكثر من كونها تقليداً مشوهاً لمفهوم توماس جيفرسون لهذه الكلمة. إنه رجل لا يتسامح مع المعارضة سواء أكانت موالية أو لا (للدور الطليعي) للحزب الشيوعي. أما التعديلات التي أحدثها في السياسة الخارجية فقد كانت بشكل رئيسي تعديلات في الشكل وليس في المضمون. ويجب أن يثبت بوضوح أن الهدف السوفييتي الطويل الأمد بتحقيق عالم ماركسي قد تغير بشكل أساسي.

مع ذلك في الأعوام الأولى لتوليه الحكم أيقظ غورباتشوف إحساساً بالإثارة وبالتفاؤل في مستقبل الاتحاد السوفييتي وفي الدول التي ترزح تحت سيطرته، فقد قلب أسلوب علاقة الغرب بالشرق بجعل الاتحاد السوفييتي أكثر تصديقاً من قبل عالم كثير الشكوك حتى من نفسه أيضاً. كما لاحظ محرر مجلة Ogonyok اوغونيوك «سيكون هناك دائماً في الغرب شخص ما يؤكد أننا دائماً نخدع العالم، ولكن الأمر المهم بالنسبة لنا ليس

إثبات أننا لا نحاول أن نخدع العالم كله وإنما المهم أننا نعيش بطريقة تجعلنا لا نخدع أنفسنا».

والحاجة لإنهاء خداع النفس أعطت لفكرة غورباتشوف (الغلاسنوست) دفعاً أكثر وضوحاً ونجاحاً وإثارة، ومع أن هذه الكلمة انتشرت في كل أنحاء العالم إلا أنه إلى الآن لم يوجد كلمة انكليزية مقابلة تحمل معناها الروسي بدقة، إنها عادة تترجم بكلمة (انفتاح) ولكنها أكثر من ذلك وأقل من ذلك بنفس الوقت، أكثر بمعنى أن الغلاسنوست تعني (العلنية) التي هي أكثر من مجرد كونك منفتحاً، إنها تتضمن أيضاً فكرة نشر الحقائق بسرعة، وأقل بمعنى أن الغلاسنوست ينظر إليها على أنها أداة الحزب، وسيلة بواسطتها يستطيع الحزب أن يحكم البلد بفعالية أكبر. فهذا المفهوم يعتبر بعيداً عن فكرة حرية التعبير والصحافة كما تفهم في الغرب. ومع ذلك كسياسة وكمفهوم فقد حدثت تغييرات عميقة في نظرة الاتحاد السوفييتي للعالم ولنفسه.

أشار غورباتشوف في بداية فترة حكمه أنه أدرك الحاجة للإنعاش الروحي والحاجة لمقياس من الديمقراطية كضرورة لتجديد الاقتصاد. في الواقع إنه سيتحدث عن الغلاسنوست كبديل لتعدد الأحزاب، حيث أوضح هذه الفكرة وكررها في أحاديثه التالية فقال في فلاديفوستوك Vladivostok في تموز عام ١٩٨٦ «ليس عندنا أحزاب معارضة أيها الرفاق لذلك (فالنقد والنقد الذاتي) ضروريان لعمل ووظيفة الحزب والمجتمع».

إن هذا الأمر صحيح بشكل واضح ولكن ليس مقبولاً ومفهوماً على العموم في الاتحاد السوفييتي، لقد فشلت هذه السياسة تقريباً في أول امتحان لها، فالذي حدث يوم السادس والعشرين من نيسان عام ١٩٨٦ حينما خرجت الوحدة الرابعة من محطة تشرنوبيل Chernobyl للطاقة النووية عن السيطرة، وانفجرت نافثة غيمة هائلة من الذرات المشعة إلى الجو، في ذلك الوقت لم يقل غورباتشوف ولا مساعدوه أي شيء، ولم يصدروا تحذيراً لا لمواطنيهم القريبين من الكارثة، ولا للبلدان المجاورة، وتركوهم تحت هاجس الرعب والشكوك من أسوأ كارثة مفاعل نووي. وحتى بعد أن التقطت أجهزة المراقبة في السويد أول إشارة قوية تدل على حادث رئيسي في تشرنوبيل، وبعد أن اجتاحت العالم شائعات الموت والدمار الجماعية، تخفّى السوفييت وراء إعلان مطمئن قائلين بأنه جرى حادث، ولكن أمكن السيطرة عليه، ولكن بالتدريج وعن غير رضا منهم بدأ الموظفين السوفييت يعدون بتفاصيل من شأنها السيطرة على الإشاعات، وقد بدأت بعض قطاعات أجهزة الإعلام الجماهيرية مسلمة بالغلاسنوست الجديدة تتقصى أخبار الكارثة بحماس معتبر.

ولكن بالنسبة لغورباتشوف شخصياً فقد كان فشلاً بارزاً أو خطراً في وجه ثباته لمبادئه وفي وجه أسلوبه المعتمد على الصراحة والإخلاص، لقد كان فشلاً في القيادة لم يوضح لا في حينها ولا حتى الآن، ولمدة ١٨ يوماً لم يتواجد هذا المتحدث البارع، لقد اختفى عن الأنظار بشكل غير واضح فلم يكن لديه ما يقوله للشعب السوفييتي أو للعالم عن تشرنوبيل، لم يظهر

سوى يوم ١٤ أيار على شاشة التلفزيون كئيباً مرتدياً بذلة داكنة وتحدث لمدة ٢٥ دقيقة، دافع فيها عن نفسه أكثر مما شرح فيها عن الموقف، فاشتكى بمرارة قائلاً «لقد واجهنا جبلاً حقيقياً من الأكاذيب أكثرها أكاذيب مضللة وخبيثة» وقد عزاها ليس إلى الفشل السوفييتي في إصدار التقارير في وقتها عن الحادث ولكن لرغبة بعض السياسيين الغربيين (الإساءة لسمعة الاتحاد السوفييتي). لم يكن هذا الحديث أحسن ما عنده ولكن كانت هذه هفوته الأولى منذ تسلمه الحكم، المرة الأولى التي فشل فيها غورباتشوف في عمل ما كان يجب أن يعمله للحصول على أحسن النتائج من موقف سيىء. بعد مرور الأزمة بدا أنه يتعافى، وليعوض الفشل في تشرنوبيل حوّل انتباهه إلى قضية أخرى محرجة وهي: سجل حقوق الإنسان السوفييتي، لقد أظهر حساسية غير عادية للنقد شبه المستمر للقمع السوفييتي للمنشقين، ربما لأنه يوافق على بعضه. ففي حديثه في فلاديفوستوك أعلن قائلاً «الذين يحاولون أن يكبتوا الصوت العذب، صوت العدل حسب المقاييس والمواقف القديمة، يجب أن يوضعوا في أماكنهم... لقد صدر قانون يقول: بأن أولئك الأشخاص الذين يقومون باضطهاد الأشخاص الذين ينقدون الحكم سيتعرضون للمحاكمة والدعاوى القانونية».

لقد أنهى غورباتشوف عام ١٩٨٦ بلفتة استثنائية، واضعاً هذه الأفكار في ذهنه. ففي إحدى أمسيات كانون الأول ظهر الفنيون فجأة ليقوموا بتركيب خط تلفوني في شقة أندريه زاخاروف Andrei Szkharov

الفيزيائي المنشق وحامل جائزة نوبل، الذي نفي إلى مدينة غوركي
منذ حوالي سبعة أعوام وذلك لآرائه الصريحة، وسرعان ما علم المنشق
سبب تلقيه جهاز الهاتف : عند الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم ا
جرس الهاتف وكان غورباتشوف على الخط، فتحدث الرجلان بإيجا
غورباتشوف الفيزيائي «إن بإمكانك العودة إلى موسكو للقيام
الوطني»، ولم يرفق غورباتشوف أية شروط مسبقة، وعندما عاد زا
إلى موسكو منصوراً لم يتردد بعد عدة أيام في الإعلان أنه على
السوفييتي أن ينسحب من أفغانستان، وكانت هذه هي القضية ا
نفسها التي سببت في إرساله إلى المنفى في المرة الأولى، ولكن هذه ا
قادراً على إيضاح رأيه دون مضايقات البوليس السري.

ربما يكون السبب المقنع الذي جعل غورباتشوف يحرر زاخار
أن أفكار حامل جائزة نوبل في العديد من المواضيع مطابقة تماماً
غورباتشوف، فعلى سبيل المثال لم يكن القائد السوفييتي غير سع
بشأن الحرب في أفغانستان، ومن المحتمل أن يكون موافقاً تما
اعتراضات زاخاروف، والشيء الهام هو أن زاخاروف كان ناقد
الدفاع الاستراتيجي الأمريكية ويعارضها لأسباب مختلفة عن الأسبا
قدمت من قبل المتحدثين الرسميين السوفييت، وفي النهاية تعتبر
زاخاروف بشكل واضح أقل أذى بالنسبة لغورباتشوف من إسا
العلاقات العامة باستمرار نفي المنشق، لقد كان تحريره عملاً سياس
بقدر ما هو عمل إنساني.

ومع ذلك فإن إطلاق سراح زاخاروف كان واحداً من سلسلة من اللفتات المماثلة، فقد أطلق سراح المئات من الذين يقضون فترات سجنهم في المخيمات والمنفى، في حملة وصلت إلى حد اعتبارها عفواً عاماً عن الجرائم (السياسية) تتراوح بين إثارة إضرابات مزعومة معادية للسوفييت وتعلّم العبرية، وقد سمح للعديد من السجناء السياسيين البارزين بالهجرة بينما تابع الآخرون النشاطات التي كانت سبباً في زجهم بالسجن، فسيرغي غريغورياتتس Sergei Grigoryants على سبيل المثال وضع في السجن لنشره مجلة انشقاقية، وعندما أطلق سراحه في شباط بدأ حالاً بتنيظم مجلة مماثلة بذكاء (الغلاسنوست). وعلى الرغم من أن غريغورياتتس وزملاءه عانوا فيما بعد من مضايقات البوليس لجهودهم إلا أنهم نجحوا في إصدار العديد من الأعداد من مجلتهم وظلوا أحراراً حتى بداية عام ١٩٨٨.

إن أحد المجالات الحساسة التي وضعتها سياسة (الغلاسنوست) أمامها هو إعادة النظر في ماضي البلد الستاليني، فبعد اعتلاء غورباتشوف سدة الحكم بدأ الفنانون والكتّاب السوفييت بإزالة طبقات الصمت والخداع واستعمال التعابير اللطيفة للدلالة على الأعمال البغيضة عن فترة ما بعد الثورة التي عاشتها الأمة مالئين ما دعاه غورباتشوف (صفحات تاريخية فارغة) بالمخطوطات التي طال احتجازها بدأت تخرج من دروج المكاتب، وأُنقذت الأفلام الممنوعة من على رفوف الاستديوهات حتى يتطلع إليها بشوق الأناس الذين عرفوا حقيقة تاريخهم، إما عن طريق الإشاعات أو عن طريق الإذاعات الغربية فقط، على الرغم من أنه لم يتم التخلص من الرقابة

نهائياً في عهد غورباتشوف، إلا أن نطاق عملها أصبح محدوداً جداً واقتصرت على الأسرار العسكرية والإباحية والهجمات المباشرة على الأساس الاشتراكي للمجتمع السوفييتي.

ويبقى فقط التأثير الهائل لرقابة النفس ورقابة البريد، فمن المشكوك فيه أن النقد المباشر للقادة السوفييت وخاصة غورباتشوف سيرى النور ما لم يرخص به من قبل الحزب، كما حدث في حالة النقد العنيف لرئيس حزب موسكو المعزول بوريس يلتزن Boris Yeltsin أو إدانات رئيس حزب كازاخستان إعلام كوناييف Kunaev، ولقد وبخ رسمياً بعض المحررين على تقديمهم تقارير سياسية ذهبت إلى حد لا يمكن للقيادة العليا أن تقبله، وهذه التحذيرات من المحتمل أن يكون لها تأثير فعال على عملهم المستقبلي، ولكن مع ذلك فقد فتح مجالاً واسعاً من المواضيع أمام الفنانين، هذا المجال يكفي لجعل الكتاب وصانعي الأفلام والمحررين مشغولين لعدة سنين.

كان السوفييت من قبل لا يتمكنون من رؤية أعمال كفيلم المخرج تينجيز أبولادزه (التوبة)، بتصويره ديكتاتوراً قاسياً في أرض خيالية مشابهاً لـ لافرنتي بيريا، رئيس البوليس السري في عهد ستالين الذي كان يتصرف وكأنه ستالين في زمانه، وقد ظهر هذا الفيلم ورخص عام ١٩٨٣ من قبل ادوارد شيفاردنادزه عندما كان رئيس الحزب في جورجيا، ولكنه وضع على الرف مرة أخرى قبل أن يصل إلى الجماهير، وقد وصل هذا الفيلم إلى دور السينما فقط بعد وصول غورباتشوف إلى السلطة، وبعد أن اختار شيفاردنادزه وزيراً لخارجيته، والعمل الآخر من هذا النوع هو فيلم بوريس

يودنيكس الوثائقي «هل من السهل أن تكون شاباً؟» وهو اتهام فظ لفشل الاتحاد السوفييتي لشغل الشباب فيه.

إن معالجة الفيلم لمشكلة المخدرات وتحويل الملكيات والجشع ورفض حمل السلاح، وكل المشاكل النفسية التي يعاني منها المحاربون العائدون من أفغانستان كانت كفيلة بمنع الفيلم لاعتباره هداماً من قبل الرؤوساء السابقين لغورباتشوف، وكان مخرجه قد وضع في السجن، لو أنه في الأصل استطاع تحقيق الفيلم في ذلك الحين.

إن حقيقة إنجاز الفيلم والحقيقة الأكثر ذهولاً وهي عرضه في كافة أنحاء البلاد أظهرت اعتراف غورباتشوف بأن الحزب الشيوعي يعاني من خطر فقدان الجيل الشاب، هذا الجيل الذي لا يمكن استرداده والمطالبة به بدون جرعات من (الأمانة المؤلمة). قال أحد الدبلوماسيين الغربيين المتخصص بالشؤون السياسية السوفييتية المحلية إن غورباتشوف أدرك أن الحزب فقد الاتصال مع الجماهير وبشكل خاص الشباب، «فهو يحاول أن يجد اللغة التي يستطيع بواسطتها أن يتفاهم معهم حتى يعيد الاتصال».

وقد تميز ازدهار صناعة السينما بازدهار مماثل في الطباعة والنشر. فالروايات الجديدة على عهد ستالين والتي منع بعضها لمدة عقدين من الزمان وجدت طريقها إلى المطابع تحت سياسة الغلاسنوست التي اتبعها غورباتشوف. إن رواية اناتولي ريباكوف **Anatoli Rybakov's** (أطفال الأربات) التي تتكلم عن موجة التطهيرات الستالينية من عام ١٩٣٤ إلى

عام ١٩٣٧ ، أُعلن أنها ستنشر عام ١٩٦٦ ثم عام ١٩٧٧ ، ولكنها بقيت في الدروج في كلتا المرتين وأخيراً طبعت العام الماضي. رواية أخرى كانت قد منعت طويلاً ونشرت تحت حكم غورباتشوف (الثياب البيضاء) لفلاديمير دودنتسيف Vladimir Dudintsev's وتصف الكبت والقمع الذي كان يواجهه علم الوراثة خلال ستالين ، هذه الكتب قد سحبت من دروج كتّابها ، أما الباقي فقد بدأ الآن بالظهور واعداً بنهضة أدبية روسية إذا لم تسدل ستارة الرقابة مرة أخرى.

وقد خضعت الصحافة اليومية والتلفزيون إلى تغييرات عميقة وإيجابية في ظل سياسة الغلاسنوست ، فقد بدأت الصحف بتشجيع من غورباتشوف ومساعدي دعايته بإظهار الفساد وندرة الكفاءة على المستوى المحلي لدرجة لم نتخيلها من قبل ، وبسرعة مدهشة تعلم الصحفيون والمحررون العمل بنفس نشاط وإخلاص زملائهم في الغرب ، فالعديد من الصحف كصحيفة موسكو اليومية (روسيا السوفييتية) ومجلة (أنباء موسكو) الأسبوعية والصادرة بعدة لغات حققتا شهرة واسعة وأصبحتا معروفتين لبحثهما عن العيوب دون خوف.

على كل حال بدأ في بعض الأوقات أن هذا الحماس الصحفي عمل من أعمال الثأر السياسي ، وقد أجرت (روسيا السوفييتية) تحقيقاً يثير الإعجاب عن فضائح الإسكان في موسكو ، وجمعت الأدلة عن سرقات الموظفين التي أدت بالنهاية إلى طرد السكرتير الأول للجنة الحزب في

موسكو: منافس غورباتشوف القديم فيكتور غريشن، ولكن لو كان غريشن حليفاً لغورباتشوف بدلاً من أن يكون منافسه فمن المشكك به أن تكون (روسيا السوفييتية) بهذه الجرأة، في الحقيقة بعد أن أُزيح غريشن من الطريق بنجاح كوفئ محرر (روسيا السوفييتية) بترقيته إلى منصب أعلى، وسرعان ما فقدت الصحيفة حماسها الباحث عن العيوب.

ومع ذلك استمرت الصحف والصحفيون الآخرون بالتنقيب والبحث عن الفساد لملء صفحات التاريخ المقروء. خاضت المجلة الأسبوعية اوغونيوك في مسائل شديدة الحساسية كالحرب في أفغانستان والعصابات والشعراء الممنوعين، خلال فترة امتدت لأكثر من عام نشرت المجلة مقتطفات لشعراء القرن العشرين، تضمنت العديد من الكتّاب الذين كانت أعمالهم محظورة لعشرات السنين، أو في بعض الحالات لم تكن تنشر أبداً في الاتحاد السوفييتي وأن هذا الاكتشاف للكنوز الدفينة تضمن قصائد لايفان بونين **Ivan Bunin** كانت ممنوعة لعدة سنوات في بلده مع أنه كان أول روسي يفوز بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٣٣.

ومن دواعي السخرية أن جائزة نوبل لعام ١٩٨٧ منحت أيضاً لشاعر روسي منفي يدعى جوزيف برودسكي **Joseph Brodsky**، ولكن ذهبت الأيام التي كان يعتبر فيها حدث كهذا إهانة وتدميراً للمجتمع السوفييتي من قبل متلقي الجائزة عما كانت عليه الحال عام ١٩٥٨، عندما أجبر الروائي بوريس باسترناك **Boris Pasternak** على التخلي عن

الجائزة. ولكن الآن وفي عهد غورباتشوف فإن الأمور انقلبت إلى الضد، وكانت ردة الفعل السوفييتية كيفية استرداد الجائزة واعتبارها ملكاً لهم، وتعيين موعد لنشر الرواية في المجلة الأدبية (نوفي مير) عام ١٩٨٨، وفي جو كهذا كان من الممكن أيضاً ترخيص اسم باسترناك الذي نشر قصته (دكتور زيفاغو) أخيراً في مجلة نوفي مير عام ١٩٨٨، ولكن حتى تحت حكم غورباتشوف فقد ثبت أنه من المستحيل بالنسبة للسوفييت التوصل إلى اتفاق مع الكسندر سولجنتسين Alexander Solzhenitsyn ومؤلف قصة (The Gulag Archipelago)، الذي بقي في المنفى في الولايات المتحدة ولم ينشر له أي عمل في بلده باستثناء قصته القصيرة بعنوان (يوم من حياة إيفان دينسوفيك) التي ظهرت خلال تحسن العلاقات في بداية الستينيات.

إن المفكرين السوفييت بالرغم من جميع مكاسبهم لم يعطوا غورباتشوف وقيادة الحزب ثقة كاملة، ونتيجة لهذه التغييرات قال الشاعر يفجيني يافيتشينكو Yevgeni Yevtushenko: «إن الغلاسنوست ليست شيئاً مُنزّلاً من الأعلى، إنها ليست هبة، لقد عملنا بجد من أجلها ولقد كانت معركة طويلة، منذ وفاة ستالين أحرزنا بعض الانتصارات، ومنينا بالعديد من الهزائم، وقد مررنا بأوقات كانت الغلاسنوست فيها غير معلنة ــ بدون صوت ــ». كان هذا تلاعباً بالألفاظ: فكلمة الغلاسنوست آتية من كلمة (golos) أي الصوت. وتابع قائلاً «إن العديد من الناس يتواجدون في قيادة الحكومة الآن كانوا شباباً يجلسون على الشرفات عندما كنت أقرأ الشعر في الخمسينيات، حتى غورباتشوف نفسه هو من جيلي إذ أنه كان

طالباً في جامعة موسكو الحكومية في الخمسينيات، وكان من الذين يجلسون على الشرفات أيضاً».

لقد شعر يوفيتشينكو بأن السياسة السوفييتية في مجال الحرية الفنية لم تستقر بعد فقال: «إنه لأمر غير مريح أبداً لهؤلاء الأشخاص البيروقراطيين والمتوسطي المقدرة أن يسمعوا كل هذا النقد» وقال «هؤلاء الأشخاص الذين تعودوا الجلوس على الكراسي النافرة لا يحبون ذلك، لقد كانت على الدوام العلاقة بين السلطة السياسية والكتاب علاقة منافسة وتوتر، ولقد اعتادوا القول إن لروسيا قيصرين، واحد في القصر الشتوي والآخر في ياسنايا بوليانا Yasnaya Polyana ــ منزل تولستوي ــ».

إن السياسة السوفييتية المشكوك بها كانت أحد الأسباب التي دعت إلى القول بحذر بأن عصر الغلاسنوست هو (عصر ما قبل النهضة) وليس عصر النهضة في الفنون والأدب. فقال «نحن سنكون ورثة الفن العظيم والموسيقا والأدب العظيم ويجب أن نكون متواضعين».

بناء على ذلك إن فيتشينكو والعديد من المفكرين الآخرين يعتقدون بقوة أن حالة الركود التي يعاني منها الاقتصاد الروسي هي نتيجة مباشرة للستالينية، ولرفضها التوصل إلى اتفاق معهم، ويقولون إن التجديد الاقتصادي لا يمكن أن يتم إلا إذا توافق مع تجديد روحي، فقال فيتشينكو «إن العلاقة بين الغلاسنوست وإعادة بناء الاقتصاد هي كالعلاقة بين الهواء

والتربة ، إن الهواء يمكن تجديده بسرعة ولكن التربة تحتاج لوقت طويل ليعاد تجديدها » .

وقد قال ريباكوف مؤلف قصة (أطفال الأربات) القول نفسه تقريباً وأكد قائلاً : « إن الستالينية حطمت المبادرات والأفكار المستقلة ، وخلقت خوفاً من انتهاز الفرص ، وأقامت جهازاً هائلاً من البيروقراطيين الذين تعودوا أن لا يقوموا بأي عمل إذا لم يتلقوا أمراً من الأعلى » . وقال : إن الخطوة الأولى في طريق ترميم الاقتصاد السوفييتي هي إصلاح روح البلد ، الكلية التي أساء إليها ستالين كثيراً ، « ويجب أن يشعر كل إنسان مهما يكن مركزه الاجتماعي بالحرية والشجاعة وبأنه أهل لاتخاذ القرارات » ، وأوضح قائلاً : « وبعد ذلك فقط ستأتي إصلاحات الاقتصاد الهامة » . إن أعمالاً كإطلاق سراح أندريه زاخاروف من المنفى الداخلي هي أعمال حيوية من أجل تجديد وإعادة بناء التركيب النفسي الوطني : « إن قرار إطلاق سراح زاخاروف ليس عملاً من أعمال الانتهازية السياسية ، إنه جزاء عملية التغيير التي يجب أن تحدث ، وهي تحتاج أناساً يتكلمون بحرية ، والأهم من ذلك يعملون بحرية . في هذه الأيام من المستحيل أن تنفي شخصاً إلى غوركي لآرائه » ، مع العلم أن ريباكوف نفسه قد نفي لمدة ثلاث سنوات عام ١٩٣٣ بسبب (الإثارة المعادية للسوفييت) وفيما بعد حرم حق الحياة في ٣٦ مدينة رئيسية بالرغم من حصوله على أوسمة لشجاعته في الحرب العالمية الثانية ، وقد سمح له بالعيش في موسكو فقط بعد أن استعاد نشاطه في نهاية الخمسينيات ، وكان نشره لكتابه سبباً في تبرئته .

لقد نقي الجو أيضاً من خلال سلسلة من الإصلاحات القانونية التي بدأت تظهر في عهد غورباتشوف ، فمن بين التغييرات : إلغاء بعض الفقرات الصارمة في القانون الجزائي التي تحظر (المظاهر والدعايات المعادية للسوفييت من سجل المجرمين) ، كانت هذه العبارة تستخدم لإرسال المنشقين إلى السفولاغ . وعلى طور الإلغاء أيضاً استعمال عبارات مثل : الإبعاد أو المنفى الداخلي كعقوبة ، وإلغاء بعض القيود على الممارسات الدينية وإلغاء استعمال عقوبة الإعدام خاصة في الجرائم الاقتصادية . وقبل ذلك فقد أجرت السلطات السوفييتية تعديلات أساسية متعلقة بالمعالجات الفعلية الإجبارية ، هذه التعديلات تتضمن الخطوة الرئيسية في وضع بعض المشافي العقلية تحت إشراف وزارة الصحة بدلاً عن إشراف وزارة الداخلية .

من بين الإصلاحات الأقل ملاحظة والأقل ترحيباً من قبل غورباتشوف ، تخفيف طفيف ولكن هام في الحق الإنساني الأساسي أي حق مغادرة الاتحاد السوفييتي ، فقد وصل إجمالي اليهود المهاجرين خلال عام ١٩٨٧ إلى تسعة آلاف وهو أعلى رقم سنوي منذ عام ١٩٧٩ وأكبر بكثير من التسعمائة والثلاثة والأربعين الذين غادروا عام ١٩٨٦ وبشكل مشابه فإن الهجرة الإجمالية كانت تتزايد أيضاً . وقد تجاوز عدد المواطنين بما فيهم اليهود والأرمن والألمان الغرقيون وآخرون الذين سمح لهم بمغادرة البلاد عام ١٩٨٧ العشرين ألفاً ، بينما لم يتجاوز هذا العدد الخمسة آلاف في العام الذي سبقه ، ومن جهة أخرى فقد سمح للآلاف من السوفييت السفر للخارج للقيام بزيارات عائلية مؤقتة . وقد غمر المكتب القنصلي الأمريكي في

موسكو بطالبي الفيزا بشكل لم يسبق له مثيل، وأرسل ممثلو خطوط الطيران تقارير تشير إلى زيادة جادة في عدد الركاب السوفييت المسافرين إلى الغرب .

والتطور الآخر الجديد والمفاجيء كان تخفيف القيود على العمل للخارج بالنسبة للشخصيات البارزة في مجال الرياضة والثقافة، فقد أعطيت لهم الحرية بتنظيم رحلات عمل ما دامت هذه الرحلات لا تؤثر على واجبات عملهم في الاتحاد السوفييتي ولا تشكل عبئاً على الدولة السوفييتية. وقد اقتصرت مثل هذه الرحلات على الأسماء البارزة التي تستطيع أن تنال أجوراً كبيرة في الغرب، ولكن هذا الأمر يعتبر على الأقل تغييراً للممارسات السابقة التي كانت تتطلب إجراءات موافقة بيروقراطية وطويلة في وزارة الثقافة، وكانت هذه العملية متعبة جداً وغالباً ما كانت تنتهي بالرفض لدرجة أن القليل فقط من الفنانين حاولوا تجربتها. أما في ظل القوانين الجديدة فالموافقة تعتبر أوتوماتيكية إذا توفر المال والوقت الكافيان، وقد بدأ فريقا الهوكي وكرة القدم السوفييتيان بتلقي العقود من فرق غربية محترفة، وأصبح الأمر طبيعياً بالنسبة للفنانين والكتّاب أن يتابعوا جهودهم الفنية في الخارج، فراقصة باليه البولشوي الأولى مايا بليستسكايا على سبيل المثال وقعت عقداً كمخرجة فنية لفرقة الباليه الإسبانية الوطنية في مدريد. ومن ناحية ثانية فإن الهاربين السابقين سمح لهم بزيارة الوطن والذين أُدينوا فيما مضى على أنهم عملاء، ومن أبرزهم كان الراقص رودلف نورييف.

وكانت هذه التغييرات بشكل جزئي نتيجة للتعليمات التي دخلت

حيز التنفيذ في بداية عام ١٩٨٧ ، ولقد اشتكى بعض المنتقدين أن القوانين الجديدة لم تكن إلا مجرد تنظيم للممارسات القديمة، وتنبـؤوا بأن هذه القوانين ستجعل من سفر السوفييت للخارج لينضموا أو ليزداد أعضاء العائلة القريبون كالزوج أو الزوجة والأخ والأخت والأب أو الأم، وتـرد السلطات على طلبات الفيزا خلال شهر أو خلال ثلاثة أيام في الحالات الاضطرارية ، ولكن الاستثناء الهام ينطبق على أولئك الذين يزعم بأنهم اطلعوا على أسرار الدولة، وهذا السبب غالباً ما يعطى لتبرير رفض منح تأشيرة الخروج لعدد من اليهود البارزين والمنبوذين. ولكن كما هو الحال دائماً في الاتحاد السوفييتي فإن نص القانون أقل أهمية من روح الذين يديرونه. وتحت حكم غورباتشوف أضيفت لهذه الروح صبغة الكرم. ولكن ما يزال هناك حالات من الأعمال الاستبدادية من قبل السلطات، والذين سيهاجرون ما يزالون يعاملون معاملة المنبوذين من قبل أصدقائهم السابقين وزملائهم في العمل، فإن تقديم طلب هجرة غالباً ما يؤدي إلى الطرد من العمل، ومع ذلك ففي معظم الأحوال يتم التقيد بالقوانين الجديدة، فقد أصبح عدد أكبر من المواطنين مع ذلك قادرين على التصويت بغض النظر عن رأيهم في الاتحاد السوفييتي في ظل غورباتشوف.

لقد تجلت براعة السكرتير العام باستغلال المشاكل الظاهرية، بحادثة الاعتقال المؤقت لمراسل أخبار أمريكي اسمه نيكولاس دانيلوف Nicholas Daniloff يعمل محرراً للأنباء الأمريكية والعالمية. إن قضية دانيلوف كانت تحمل آثار عملية فاشلة للـك. ج. ب، مكيدة سخيفة نصبت للانتقام

من اعتقال سابق قام به مكتب التحقيقات الفيدرالي لموظف سوفييتي في الأمم المتحدة. إن مشكلة اعتقال دانيلوف قد حزمت قانوناً غير مكتوب يجري التقيد به منذ عهد ستالين، وينص على منع استغلال الصحفيين كرهان في لعبة التجسس للدول العظمى، ولقد نتج هذا القانون من الحقيقة الواضحة التي تقول بأن اعتقال الصحفيين هو أسلوب مضمون لتلويث سمعة الصحافة، وعند السوفييت ما يكفي من استخدام هذا الأسلوب، وبدلاً من تسوية الأمر تحرك غورباتشوف بسرعته، لاستغلال الحادث ليساوم إدارة ريغان وبارتياح مدهش، فقد نجح غورباتشوف ووزير خارجيته القدير في مبادلة حرية دانيلوف بمؤتمر قمة ريكافيك، هذا الاجتماع الذي جرى على أرض محايدة وانتظره غورباتشوف لمدة ٦ أشهر وكان البيت الأبيض يرفضه باستمرار.

لقد كان غورباتشوف في محك الاختبار حتى أن العبارات الكلامية لم تكلل بالنجاح قمة ريكيافيك التي كاد أن يوافق فيها الرئيسان على وضع اتفاقية (القرن) للحد من الأسلحة، وتحولت إلى امتياز بالنسبة لغورباتشوف، ولا يعرف إن كان غورباتشوف قد خطط مسبقاً أو لا، لإغراء الأمريكيين في جلسة (هودفي هاوس) ثم انتزع الجائزة في اللحظة الأخيرة. لقد كان غورباتشوف محضراً نفسه لفشل قمة ريكيافيك من تقديم أي تقدم، بل وأرسل دبلوماسييه حول العالم لوضع اللوم على الأمريكيين لفشلها، وخلال ساعتين من فشل المحادثات نقل محور المحادثات السوفييتي إلى الصحفيين في مؤتمر صحفي لغورباتشوف قبل مغادرته، حيث قدم

تفسيراً مدروساً بعناية وهو الفشل لم يكن خطأً الرئيس ريغان ولكن خطأً (مجمع الصناعات العسكرية) الذي حد من حركته وحريته من المفاوضات، لقد كشف هذا التفسير شيئين الأول هو الفهم العميق لشعبية الرئيس ريغان والثاني رأي غورباتشوف الخاطئ المتعلق بالطريقة التي تحكم فيها أمريكا.

أما بالنسبة لطريقة حكمه لبلده فمفهوم غورباتشوف للديمقراطية مبني على عقلية سياسية ربما كانت ديمقراطية بالفطرة، ولكنها تأقلمت على امتداد الحياة مع السياسات الشيوعية التي وضعت لتطويق أي نوع من الحريات داخل غابة من القوانين والقيود. لقد قال في خطاب رئيسي عام ١٩٨٧ «إن البيت الأبيض لا يمكن المحافظة عليه إذا لم يشعر الساكن فيه بأنه يملكه» وقال أيضاً « إن العمال ومزارعي التعاونيات بعيدون عن كونهم غير مبالين بمن يرأس الشركة أو الورشة أو القسم أو الفريق. إذا كانت حالة التعاونيات تعتمد على إمكانيات المديرين فيجب أن يحصل العمال أيضاً على فرص حقيقية للتأثير في الانتخابات ومراقبة فعاليتهم».

ولكن يتبين بالفحص الدقيق أن اقتراحاته المحددة هذه بعيدة عن كونها ديمقراطية، لقد نادى بمرشحين عدة ولكن في مرحلة التسمية الأولى فقط وليس في الانتخابات نفسها، وقد أذعن بنفس الوقت إلى أن هذه الأجهزة الحكومية المنتخبة لها تأثير محدود، قائلاً: «إن عملهم غالباً

ما يكون شكلياً، يتعلق فقط بالأمور القانونية أو المسائل التي قررت من قبل فتبحث في مناقشات هذه الأجهزة».

ولكن آراء غورباتشوف عن اختيار موظفي الحزب بالاقتراع السري تشكل أهمية أكبر بالنسبة لتسيير أمور البلاد، لقد قال إن سكرتيري الحزب في المقاطعة والمدينة على المستويات الإقليمية والجمهورية يجب أن ينتخبوا من قبل أعضاء لجنة الحزب تاركاً جانباً الاقتراعات السرية لأكثر من مرشح واحد. يتم اختيار سكرتيري الحزب في الوقت الحاضر من قبل الأشخاص البارزين في الحزب المحلي ومن ثم يقدمون إلى اللجان على أنهم المرشحون الوحيدون فيتم قبولهم أو رفضهم بواسطة رفع الأيدي. وما أقل أعضاء اللجان المستعدين للمجازفة برضى رؤوساهم عن طريق معارضتهم بالانتخابات. على كل حال فإن الاقتراعات السرية ستعود بقدر من الديمقراطية على الحزب الشيوعي فقط، وهي نخبة حاكمة عدد أعضائها ١٨ مليوناً في دولة عدد سكانها يتجاوز الـ ٢٨٠ مليوناً. مع ذلك فقد أعلن غورباتشوف باستمرار أن الديمقراطية ضرورة حيوية لمستقبل الاتحاد السوفييتي فقد قال: «إن بعض الرفاق يجدون صعوبة في فهم أن الديمقراطية ليست مجرد ستارة، ويجب عليهم تغيير أفكارهم وعاداتهم لكي لا يجدوا أنفسهم خارج تيار الحياة الأساسي. هذه هي تضحيتنا الدائمة إلى كل المشككين والمترددين». وقد وعد أولئك الذين ما زالوا يشككون بأن الإصلاحات لن تنسف النظام، ولن تقوضه بقوله: « إن الفكرة مدار البحث هنا هي بالتأكيد ليست

تدميراً لنظامنا السياسي» وقال أيضاً «إن الديمقراطية الاشتراكية لا تشترك مع التساهل أو عدم الإحساس بالمسؤولية أو الفوضى في شيء».

عندما يتحدث غورباتشوف عن الديمقراطية فإنه بالطبع لا يحض المواطنين على الخروج، وتنظيم أحزابهم السياسية الخاصة «إن الهدف ليس إنشاء نظام جمهوري متعدد الأحزاب على الطريقة الغربية» جاء هذا في كتاب موشيه لوني بعنوان (ظاهرة غورباتشوف) الذي سينشر عام ١٩٨٨ وتابع قائلاً: ولكن لزيادة مشاركة المواطنين في الحياة السياسية لتربع الحرية السياسية وباقي الحريات ولإعادة الحزب للاضطلاع بدوره السياسي بدلاً من الدور البيوقراطي الإداري الذي يلعبه الآن». وقد اقترح لوني الذي يُعتبر خبيراً أمريكياً بشؤون الاتحاد السوفييتي أن غورباتشوف ربما يريد أيضاً العودة بالحزب إلى جذوره. فقال «إن الحزب الشيوعي الذي دفعه نهائياً على أيدي ستالين والستالينية كان حزباً سياسياً وكانت تجري فيه مناظرات حية بين فئاته الحية، وقد أدير الحزب بطريقة ديمقراطية حتى خلال الحرب الأهلية. لقد تطلب تحويل الحزب البولشيفي إلى مخلوق آخر ثماني سنوات من النضال على الأقل».

إن هدف غورباتشوف في بعض النواحي أن يبرهن شيئاً لم يثبت عملياً أبداً: أن لينين والبولشفيين كانوا محقين بأن الشيوعية يمكن أن تنجح. وقد قال غورباتشوف «إن البلاد يجب أن تصبح مكاناً يشعر فيها العامل بأنه سيد حياته، يستطيع أن يستمتع بفوائد الثقافة المادية والروحية:

حيث يكون مستقبل أولاده مؤمناً، ويستطيع الحصول على أي شيء ضروري لحياة خصبة وممتعة. وحتى المشككون يجبرون على الاعتراف والقول نعم، إن الاشتراكية نظام يخدم الإنسان ويعمل لمصلحته، في سبيل مصالحه الاجتماعية والاقتصادية وفي سبيل رفعته الروحية».

وقد كان شعار غورباتشوف الثاني بخلق هذا النوع من الاشتراكية هو (البيريسترويكا) إنها كلمة سهلة جداً مع أنها شحنت بكثير من الحملات الدعائية، إنها تعني للبعض العودة إلى أساسيات الاشتراكية، وتعني للآخرين استثمارات حرة ونظام التسويق، أما تعريب القاموس لها فهو ببساطة (إعادة البناء) كلمة واسعة جداً في معناها بحيث يشمل كل شيء من النهضة الاشتراكية إلى العبث الغربي، وربما اختار غورباتشوف هذا التعبير لهذا السبب بالذات ليشمل كل إنسان، لكن أفكاره مع ذلك أكثر دقة، وقد سجلها في كتابه المعنون (إعادة البناء) وسجلها بشكل مختصر أكثر في خطابه البالغ الأهمية أمام اجتماع اللجنة المركزية الذي انعقد للتصديق على خططه الاقتصادية في ٢٥ حزيران عام ١٩٨٧ وقد وضع خمسة مبادئ أساسية لإعادة البناء:

ـ توسيع كبير لاستقلالية مشاريع الدولة بتحويلها إلى نظام محاسبة التكاليف الكامل وهذا يضم (تأسيس مبدأ اعتمادية دخل التعاونية على فعالية عملها).

ـــ تحويلات جذرية في الإدارة المركزية للاقتصاد ... وتخليص المركز بحزم من التدخل اليومي في نشاطات الأجهزة الاقتصادية الثانوية .

ـــ إصلاحات أساسية للتخطيط ، وسياسة التسعير ، والسياسة المالية وسياسة الأرصدة .

ـــ خلق منظمات تركيبية جديدة وذلك للاستفادة من تطبيقات العلوم بشكل أسرع في الإنتاج وعلى هذا الأساس (تحقيق) اختراق لمقاييس الجودة العالمية .

ـــ الانتقال من نظام السلطة الشديدة المركزية في الإدارة إلى سلطة ديمقراطية وتطوير القيادة الفردية ، وإدخال الآلية لتنشيط وتفجير الطاقات الفردية . والتخطيط الدقيق للأعمال ، وتغيير أساسي في أسلوب وطرق نشاطات الحزب والدولة والأجهزة الاقتصادية .

إذا جُرّدت أفكار غورباتشوف الجديدة التي تتعلق بالتغييرات الاقتصادية من الزخارف الكلامية فلا تتعدى كونها دعوة للمطالبة بعمل أكثر نشاطاً وبسلوك أكثر معقولية ، لقد انتقد بيروقراطية التخطيط المركزي بلا رحمة ، ولكنه لم يتخلص منها . إن مشروع إعادة البناء الأكثر طموحاً بالنسبة له كان إلغاء خمس وزارات زراعية منذ عامين واستبدالهم بوزارة فوق عادية تدعى بـ(الأغروبروم Agroprom) التي كان من المفترض أن تتخلص من المشاحنات البيروقراطية بين المزارعين ومنتجي الآلات الزراعية ومنتجي الأسمدة ، ولكن بعد عامين بدأت الصحافة السوفييتية بانتقاد الأغروبروم

لأنها أصبحت حتى أكثر بيروقراطية وأكثر تعقيداً من خليط الوزارات التي كانت بديلاً له.

على الرغم من ذلك ثمة إصلاحات أخرى واسعة النطاق استمرت في التقدم سُمِّيت أحدثها بـ(خوزراخشيت Khozraschet) وترجمتها (التحويل الذاتي). حيث دخل هذا المبدأ حيّز التنفيذ في الأول من كانون الثاني عام ١٩٨٨ في ٦٠٪ من مؤسسات الإنتاج الصناعية والزراعية. ماذا يعني هذا المبدأ؟

نظرياً يعني أن على المؤسسات السوفيتية أن تدير الأعمال وتوازن حساباتها بحيث تنتج بضائع وخدمات بقيمة أكبر من قيمة الموارد والطاقات التي بذلت في إنتاج هذه البضائع والخدمات. في العالم الغربي يبدو هذا المبدأ بسيطاً جداً، ولكن بالنسبة لمديري المؤسسات الذين لم يتعلموا أي شيء باستثناء الخطط الحكومية، والأسعار المحددة بدت هذه الفكرة غريبة بالنسبة لهم ومخيفة في بعض الأحيان، وقد أخبر مدير مصنع، صحيفة الازفيستيا أن عدم الثقة بوصول شحنات المواد الأولية ــ وهي مشكلة مزمنة من مشاكل الانتاج السوفييتي ستعني الآن مشقة حقيقية للمؤسسة وللعاملين فيها، وقال إنه يواجه نقصاً مقداره ٤٠٠ طن من صفائح المعدن في مصنعه، وأضاف إنه لأمر مرعب جداً، ماذا سنفعل؟ أنا لا أستبعد أن سيتوجب على أحد معاملنا أن يتوقف عن العمل في شهر شباط

هنا كانت عقدة المشكلة. في دولة عمال هل يمكن للمعامل أن تقف؟ هل يمكن أن يفصل العمال ولو مؤقتاً؟. لقد ألغيت البطالة في

الاتحاد السوفييتي عام ١٩٣٠ ودائماً كان يواجه الموظفون الشكاوي الأجنبية على حقوق الإنسان في بلدهم بالإشارة إلى أن كل مواطن سوفييتي له (حق العمل)، هذه الضمانة، قليل من الدول الغربية تستطيع تأمينها. لقد كان هناك على الدوام بطالة تركيبية في الاتحاد السوفييتي ـ فالأشخاص الذين يريدون تغيير أعمالهم يحتاجون لوقت طويل ـ وللتضخم الملحوظ في عدد الموظفين، وعلى الرغم من ذلك ففي حكم غورباتشوف بدأ مبدأ الاستيعاب الكامل لقوة العمل بالانهيار، فقد أصدر السكرتير العام من قبل مرسوماً ينص على أن الوزارات التي تقع في موسكو يجب أن تعزل ستين ألف بيروقراطي بحلول عام ١٩٩٠. ونشرت الصحافة السوفييتية عام ١٩٨٧ شكاوي ٦٨٠ عاملاً فصلوا وذلك بسبب دمج وزارتين هندسيتين، إن معظم الضحايا شعروا بأنهم عزلوا ظلماً، ولأن تأمين العمل حق مضمون فلا يوجد تأمينات للعاطلين عن العمل، مع أن العمال الذين فقدوا أعمالهم عن طريق الدمج يمكنهم عادة الحصول على راتبهم لعدة أشهر.

وقد أخبر رئيس الوزراء مجلس السوفييت الأعلى عام ١٩٨٧ أن ١٣٪ من مؤسسات الدولة يتوجب إغلاقها، واقترح فلاديمير كوستاكوف Vladimir Kostakov وهو اقتصادي سوفييتي عام ١٩٨٦ تقليص قوة العمل الصناعية بمقدار ١٩٪ بحلول نهاية القرن الحالي حتى تماشي أهداف الإنتاج التي يتحدث عنها غورباتشوف، وقد اقترب آبل أغانبيغيان Abel Aganbegyan المستشار الاقتصادي الأقرب لغورباتشوف من التصديق على فكرة إغلاق المعامل، وفصل العمال مؤقتاً على نطاق واسع، فقال العام

الماضي: «أنا شخصياً أعتقد أنه سيكون من الحكمة إغلاق بضعة آلاف من المعامل لا واحد ولا اثنين ولا مئة. أستطيع أن أُسمّي العديد من مؤسسات المناجم حيث أن ظروف العمل فيها لا تحتمل، ونتيجة لذلك فهي تعاني من خسائر كبيرة فلماذا تستمر في الوجود؟ من الأسهل إزالتها بالبلدوزر وبناء معامل جديدة مكانها بدلاً من الاحتفاظ بها، إن العمل الذي يعاني من الخسائر يشكل عبئاً على المجتمع، لذلك يجب أن ينتهي، لكن هل تعتقد أن إغلاق معامل كهذه ستحصل فعلاً؟ فأجاب قائلاً: «إذا كان الأمر كذلك ستكون هذه المعامل رمزاً في الطبيعة حتى ولو لجعل الآخرين يدركون أن هذا الاحتمال موجود».

حتى الآن فقد نفذت بعض الإغلاقات الرمزية ولكن ليس على النطاق الذي تصوره أغانبيغيان والذي فضله غورباتشوف نفسه، إن نظام التحويل الذاتي ربما يساعد في التعرف على المؤسسات الخاسرة اقتصادياً، ويشجع الزعماء السوفييت على إغلاق المعامل، وفصل العمال مؤقتاً إن لم نقل طردهم نهائياً، وهذا سيكون اختباراً لنوايا غورباتشوف.

والشيء الملحوظ أكثر من غيره في الصناعة، هو الإصلاحات الأضيق نطاقاً في مجال المشاريع الخاصة والتعاونية، ففي ظل القوانين التي دخلت حيّز التنفيذ عام ١٩٨٧ سمح للأفراد بالعمل في ٢٩ نوعاً من المهن الحرة وقت الفراغ على نطاق ضيق، كصناعة الأحذية والديكور الداخلي، والتمديدات الصحية، واستعمال سيارات خاصة للعموم. وقد جرت هذه

الخطوة بالماضي ولكن كان تنفيذها غير شرعي من الناحية القانونية. أما القوانين الجديدة فكانت قانونية وبالطبع خاضعة للضريبة. وقد كانت الإحصاءات عن مدى أدائهم للضريبة متفاوتة، قالت وكالة تاس للأنباء إن ١٣٧ ألف شخص في موسكو قد حصلوا على تراخيص للعمل الفردي خلال الأشهر الثلاث الأولى من تشريع هذا القانون، وقد جعلت القوانين أعمالاً كهذه أكثر انتشاراً، ولكنه ليس واضحاً إن كانت قد وفرت خدمات أكثر، فحسب تقديرات الحكومة عام ١٩٨٧ تبين أنه ما بين ٣٠٪ و ٨٠٪ من الإصلاحات ذات النطاق الضيق لبضائع مثل هذه الأحذية والسيارات والأجهزة المنزلية كانت تتم سراً في السوق السوداء التي يقدر ربحها السنوي بـ١٦ بليون روبل (٢٤ بليون دولار). وفي حين أن سيارات الأجرة الخاصة والبائعين المتجولين في الشوارع ربما ينتظمون للقيام بأعمالهم الخاصة بحرية أكثر، فإن الخبراء يتوقعون أن معظم السوق السوداء ستبقى على ما هي عليه.

ولقد كانت الحركة التعاونية أكثر نجاحاً ووضوحاً في بعض المجالات، إن القطاع التعاوني يعمل في ظل قوانين مختلفة عن قوانين المشاريع الفردية، ويدفع ضرائب أعلى ويخضع لتعليمات أدق، ومع ذلك فإن المشاريع التعاونية التي تتراوح ما بين مطعم صغير تديره عائلة إلى محل إصلاح أجهزة للتلفزيون كبير نسبياً قد لقيت نجاحاً ملحوظاً، وتعتبر قهوة كوربوتكنسايا النموذج المثالي لمثل هذه المؤسسات، وهو أول مطعم تعاوني في موسكو، وقد لقي عند افتتاحه في آذار الماضي نجاحاً فورياً: «قد جذب آلاف الزبائن

بوجباته البسيطة والمعدة بعناية، وبالخدمة اللطيفة والترف المشابه لجو ما قبل الثورة، لقد نجح بشكل جيد جداً، واشتكى المغرضون بأن الأعضاء الثمانية المشتركين في المشروع يجنون الأرباح الطائلة. وقد انتقدت البرافدا (القهوة) قائلة إنها لا تدفع إلا ٣٪ من أرباحها كضرائب خلال الستة أشهر الأولى. وقد أجاب أصحاب القهوة على ذلك بأنهم ما يزالون يسددون قروض الدولة، وفي النهاية سيتعرضون لضرائب تتراوح ما بين ٤٠٪ و ٥٠٪، ولكن الشيء الذي أظهره هذا الحادث أكثر من أي شيء آخر هو أن المواطنين السوفييت يشككون كثيراً بالأرباح والثروة التي يعتبرونها فضيحة كبيرة.

وقد أصر غورباتشوف بشكل متكرر أن إصلاحاته هي إصلاحات اشتراكية، وأن «الأساس الاشتراكي للمجتمع لن ينسف أبداً» وقد انتقد في اجتماع مع موظفي وسائل الإعلام عام ١٩٨٨ تيارين، الأول: هو المدائنين عن (إعادة البناء السريع) وقد عُني بهذه العبارة أشخاص مثل رئيس منظمة الحزب في موسكو بوريس يلتزن الذي كان يقول: إن خطوات الإصلاحات بطيئة جداً، والتيار الثاني الذي انتقده غورباتشوف هو النقد الآتي من اليمين، فقال «إن الأصوات الآتية من ذلك الاتجاه تدّعي بأن أساسات الاشتراكية، تنسف كلياً» وتابع قائلاً «ولكن يظهر لنا سؤال مشروع وهو ما الذي ينسف أساسات الاشتراكية، حركة الشعب، أم النشاطات التي تهدف إلى التعامل بثقة أكبر مع شؤون البلاد بحيث يكونون السادة فيها، لا بل على العكس إن الاشتراكية لا تضعف، وإنما تتقوى من

خلال نشاطات الشعب السياسية والاجتماعية التي تحقق الاشتراكية إمكانياتها بشكل كامل».

إن أحد الأشياء البارزة التي يجدها المراقبون في غورباتشوف هو ذلك الوعظ. إن عبارات كهذه ثقيلة جداً على الورق وتضج بالإقناع عندما يُسخّر عينيه المعبرتين ويديه المشغولتين دائماً في إلقائهما، تبدو وكأنه يعنيها ومن المحتمل أنه يعنيها فعلاً. «أعتقد أنه يرى نفسه كمارتن لوثر بالنسبة للاشتراكية الروسية» هذا ما قاله دبلوماسي أمريكي معجب بعد مشاهدة إحدى خطب غورباتشوف، وقال أيضاً «إنه يعود بالاتحاد السوفييتي إلى الجذور اللينينية».

لقد أعلن عن معظم برامج غورباتشوف المتعلقة بالإنعاش المحلي في خطابه أمام اللجنة المركزية عام ١٩٨٧، لقد أدان عادات الماضي بتعابير كان من المفترض أن تهز المجتمع البليد الخارج من تحت فترة حكم بريجينيف التي امتدت خدمته لحوالي عقدين، لم يحدث من قبل أن سمع السوفييت لغة كهذه من واحد من زعمائهم، فقد قال «إن انتشار إساءة استعمال الكحول والمخدرات، وارتفاع معدل الجريمة أصبحا مؤشرين على الانحطاط في أخلاقيات المجتمع، إن عدم احترام القانون وحشو التقارير، وأخذ الرشاوى، ـــ وتمسيح الجوخ ـــ والتشجيع على التزلف، كل هذه الأمور لها تأثير مخرب على الجو الأخلاقي للمجتمع».

ومع أن غورباتشوف لم يذكر شيئاً بالاسم إلا أنه كان يشير بوضوح

إلى القيادة السابقة لليونيد بريجينيف ، عندما أعاد إلى الأذهان قائلاً « التوزيع الجماعي للمكافآت والألقاب والجوائز » وقوله « ازدهار الروتين والأمور الشكلية ، نتج عن ذلك عدم التسامح مع النقد نهائياً » . وأضاف قائلاً « في تلك الأيام لم يكن هناك عقبات كأداة موضوعة في طريق المخادعين والمترفين والجشعين الذين يهدفون إلى المكاسب الشخصية من عضويتهم بالحزب » .

لقد انتقد غورباتشوف فترة بريجينيف من قبل ، وقد كان هذا واضحاً في خطابه الرئيسي إلى مؤتمر الحزب السابع والعشرين في شباط الماضي ولكن لم يشهر به بهذه القسوة وهذه الشمولية . لقد كان الخطاب بارزاً لأن الذين كانوا يستمعون إليه بشكل أساسي من أعضاء اللجنة المركزية المنتخبين في عهد بريجينيف لم يتبدل منهم سوى ٤٢ ٪ في مؤتمر الحزب السابق ، وبهذا الشكل أصبح الخصوم المحتملون للعديد من أفكار غورباتشوف يشكلون الأغلبية ، فعندما تحدث عن « التساهل والانضباط الرخو والإدمان على الكحول والمصلحية وضيق الأفق ومظاهر الوطنية » فقد كان يتحدث عن العديد من الذين يجلسون أمامه في قاعة الكرملين ، وقد اعتبر هذا الحديث تحدياً (للمعارضة) المبهجة والتي اشتكى منها منذ بداية فترة حكمه ، واستمرت شكواه لقيادته فقال في هذه المناسبة « لا يوجد إنسان يجاري متطلبات الحياة ، ويوجد فقط عدد قليل من الناس يتباطؤون في تخلصهم من تبعات الماضي ، ويتبنون موقفاً لمتفرج ، ويضعون العصي في دواليب مسيرة التقدم » .

بدا غورباتشوف في بعض الأحيان أنه لا يكسب لمعركته ضد البيروقراطية ، وغالباً ما كان يتحدث بيأس عن معارضة تهاجم باستمرار ولكن نادراً ما كانت تحدد « بين الناس الذين يريدون هذه التغييرات

ويحلمون بها، وفي القيادة يوجد طبقة إدارية وهي أجهزة الحزب والأجهزة الوزارية لا تريد هذه التغييرات، لأنها لا تريد أن تُحرم من بعض الحقوق والميزات» هذا ما قاله في اجتماع مع مجموعة من الكتّاب، وقد قال في أحد أكبر معاقل البيروقراطية أي لجنة تخطيط الدولة: بالنسبة لسادتنا الكبار لا يوجد أي سلطات، ولا أي سكرتيرين عامين ولا لجان مركزية، يفعلون ما يحلو لهم، والموقف المفضل لديهم هو حينما يتوجب على كل إنسان أن يذهب إليهم طالباً مليون روبل، أو ٢٠ جراراً، أو حتى ٤٠٫٠٠٠ جراراً، حيث يتوجب على الجميع أن يتوسل».

بالإضافة إلى ذلك، وإضافة إلى لوحة للمعارضة كان غورباتشوف مجبراً على تعديل بعض خططه ليكيفها مع آرائه، وقد ظهر الحد الذي يتوجب على غورباتشوف أن يحمي فيه أجنحته السياسية لوضوح قضية زميله وحليفه السياسي رئيس منظمة الحزب في موسكو (يلتزن)، وهو سياسي انفعالي وسريع الغضب ختم مستقبله السياسي في تشرين الأول عام ١٩٨٧ بإلقائه خطاباً عشوائياً أمام اللجنة المركزية، واشتكى فيه أسىً من بعض أعضاء القيادة، ولم ينشر هذا الحديث أبداً. ولكن أوضحت التقارير الداخلية أن خلافه الرئيسي كان مع صاحب الأيديولوجية المحافظة في الحزب يوجور ليغاتشييف Yegor Ligachev. ومهما يكن الكلام الذي قاله يلتزن فقد أُعتبر زائداً عن الحد، وقد أُجبر بعد أسبوعين للتعرض إلى جلسة (نقد ذاتي) كانت قاسية جداً إلى الحد الذي أدخله المستشفى بعد ذلك بقليل، لمشاكل في القلب.

سواء كان لأسباب سياسية أو لغضب متأصل، فإن غورباتشوف قد قاد بنفسه الهجوم على يلتزن وبذلك صدم العديد من الموسكويين الذين رأوا يلتزن خصماً قوياً للفساد والمصالح، وقد خرج غورباتشوف من هذه الجولة سليماً وربما أقوى سياسياً. وعلى الرغم من شعبية يلتزن إلا أنه كان قد عزل المئات من السياسيين الفاعلين والذين أظهروا امتعاضهم في موسكو، كما أظهر أعضاء الكونغرس امتعاضهم في واشنطن «فقط فكر يلتزن كجيمس وات James watt في السياسات السوفييتية» هذا ما قاله أحد الدبلوماسيين الغربيين مشيراً إلى قضية حيوية ومثيرة للجدل وهي قضية وزير الداخلية الأمريكي الذي أجبر أخيراً على الاستقالة من حكومة ريغان.

على الرغم من الأثر البغيض الذي تركته قضية يلتزن فقد بنى غورباتشوف بثبات أغلبية مؤيدة له وصلت إلى حد الإجماع في المكتب السياسي، وهو هيئة تشريعية هامة، تصنع سياسة الحزب وتتألف من ثلاثة عشر عضواً، وقد جمع نواة قوية من المؤيدين في المكتب السياسي في السكرتارية وهي هيئة تتألف من اثني عشر عضواً تدير شؤون الحزب اليومية، من بين أعضائها مدير حملته الدعائية التي اختارها بيده الكساندر ياكوفلوف Alexander Yakovlev، وموجه سياسته الخارجية أناتولي دوبرينين Anatoli Dobrynin، وفيكتور نيكونوف Viktor Nikonov الذي يشغل وظيفة غورباتشوف القديمة كسكرتير الزراعة، وليف زايكوف Lev Zaikov وهو شخص من لينينغراد أيده ضد رومانوف، وقد كوفئ باحضاره لموسكو كبديل ليلتزن، وقد عزل معظم المحتفظين بمناصبهم من فترة حكم بريجينيف

بما فيهم جيدر عالييف Geidar Aliev الذي عزل لأسباب صحية، وسيرغي سوكولوف Sergei Sokolov وزير الدفاع الذي أُجبر على التقاعد العاجل وذلك بعد أن اخترق شاب ألماني يدعى (ماتياس رست Mathias Rust) بطائرته الوحيدة المحرك دون أن يواجه أية عوائق عبر مئات الأميال من المجال الجوي السوفييتي هابطاً قرب الساحة الحمراء. إن مغامرة (رست) التي سببت إحراجاً لسلاح الدفاع الجوي السوفييتي المتبجح مكنت غورباتشوف أن ينهي ما صمم على القيام به قبل أكثر من عام: أي جلب دماء وأفكار جديدة إلى قيادة القوات المسلحة، والفضل يعود لهذا الشاب الألماني الذي مكّن غورباتشوف من وضع رَجُلَه المفضل وهو الجنرال ديمتري يازوف Dmitri Yazov وزيراً للدفاع.

إن رجلاً يستطيع بناء هذا النوع من البنيان لا يمكن أن يكون متطرفاً، لقد أظهر غورباتشوف هذه الحقيقة برفضه التعامل مع الفترات الأكثر بغضاً من التاريخ السوفييتي، وذلك في حديثه يوم ٢ تشرين الثاني احتفالاً بالذكرى السبعين للحكم الشيوعي. لقد تطلع الكثيرون إلى (الغلاستوست) منذ الخطاب السري لخروتشوف أمام المؤتمر العشرين للحزب وخاصة لإصرار غورباتشوف المتكرر على ملء (الصفحات الفارغة) من التاريخ السوفييتي، ولكن هذه التطلعات لم تتحقق، وقا استعمل غورباتشوف عبارة للدلالة على التنظيم الإجباري للشعب ـ كانت ستبدو مضحكة لو أن الموضوع لم يتضمن جرائم بشعة ومعاناة واسعة ـ فقد قال أمام حشد من أصحاب الوجوه المتجمدة كالحجارة ـ بعضهم

أكبر منه سناً ـــ «يجب أن يقال بصراحة إنه في المرحلة الجديدة كان هناك نقص في الموقف اللينيني المعتدل من مصالح الطبقات الكادحة. لقد كانت هذه طريقة غريبة لوصف الممارسة الوحشية لمصادرة الأملاك و الاعتقالات والجرائم والمجاعات»، وقد تناول غورباتشوف بتعابير شديدة الحساسية التخلص الدموي والعقوبات الدموية في سنوات الثلاثينيات التي ذهب ضحيتها ملايين الأشخاص بما فيهم معظم قيادة الحزب نفسها، حيث اجتاحتها موجة من الاعتقالات والإدانات والمحاكمات الظالمة والإعدامات فقال أيضاً: «من الواضح أن غياب مستوى معين من الديمقراطية في المجتمع السوفييتي كان هو السبب الذي سهل أمر إعجاب الحكام بأنفسهم، والتعديات على الشرعية والإجراءات العميقة والوحشية في الثلاثينيات، إنني أضع الأمور بوضوح، لقد كانت هذه الأعمال جرائم حقيقية ناتجة عن سوء استخدام السلطة، لقد تعرض آلاف من الناس من داخل وخارج الحزب إلى إجراءات قمع جماعية، هذه هي الحقيقة المرة أيها الرفاق».

في الواقع فإن ملايين وليس آلافاً قتلوا بالرصاص، وجاعوا حتى الموت مجرد أنهم قمعوا على يد أجهزة ستالين (NKVD). وقد تأكد أمر استعداد القيادة السوفييتية لإعطاء وصف حقيقي عن تاريخ الحزب من قبل الكساندر ياكوفلوف عضو المكتب السياسي ومستشار غورباتشوف الرئيسي للرأي العام والدعاية، فقد قال هذا الرجل، الذي يدعوه البيض (السيد غلاسنوست)، عندما سئل عن التراجع في صدق وصراحة غورباتشوف «لماذا تعتقدون أنه لو قال ملايين بدلاً من الآلاف فسيكون قد

تكلم بصدق أكثر؟ أنا على معرفة بالإشاعات التي تنتشر في الغرب... ولكني أعتقد أن العديد من هذه الإشاعات يتوقف على ضمائر أناس معنيين».

إن ياكوفلوف وغورباتشوف ربما يكون لديهما أسباباً تجعلهما يشعران بالضيق من الصراحة الزائدة بالنسبة لموضوع ستالين، الذين تعلموا أن يحبوه ويحترموه خلال أعوامهم التكوينية «أستطيع أن أقول إنني لم أشارك في أحداث العشرينيات أو الثلاثينيات وذلك لصغر سني حينها» هذا ما قاله ياكوفلوف الذي يكبر غورباتشوف بثماني سنين وتابع قائلاً «ولكنني اشتركت بالحرب وأشعر بالخجل من قولي بأنني أؤمن وأعتقد بحقيقة أن قيادة ستالين كانت صحيحة».

ومع أن غورباتشوف كان حذراً في حديثه إلا أنه فتح نافذة وإن كانت ضيقة في الحائط الذي لا يمكن اختراقه عبر التاريخ المشبوه، فقد أشار إلى بعض الأسماء التي لم تذكر أبداً على شفاه أي مسؤول سوفييتي رفيع المستوى (منذ أن قتلوا) في العشرينيات والثلاثينيات، وقد تحدث بإيجابية عن بعضهم فمدح نيكولاي بوخارين الذي حوكم وقتل عام ١٩٣٨ بمدافعته عن المثاليات اللينينية واعترافه بأخطائه السياسية، ولكن السكرتير العام لم يستطع مدح ليون تروتسكي الذي قال عنه إنه «أظهر طموحاً مبالغاً فيه للوصول إلى القيادة العليا للحزب، وبذلك يؤكد رأي لينين بالعامل، بأنه سياسي واثق من نفسه جداً تعوّد على التذبذب والخداع». وعلى الرغم من

ذلك فلقد كانت المرة الأولى في التاريخ المعاصر التي يذكر فيها زعيم سوفييتي اسم تروتسكي، وهذه الحقيقة لها مدلولاتها بالنسبة للمؤرخين والكتّاب والفناني السوفييت، بتحدثه علانية، وإن كان بشكل لطيف، عن جرائم عهد ستالين، فإن غورباتشوف بالنتيجة يكون قد أعطى الضوء الأخضر لآخرين يمكن أن يعالجوا مواضيع كهذه بحرية أكبر. بإعلانه أيضاً بأنه سيشكل لجنة خاصة لدراسة وإعادة كتابة تاريخ الحزب كأنّ له بعض الأهمية وذلك لأن غورباتشوف يؤمن بأن هذا على الأقل يعطي فرصة ومكاناً يتمكن فيه المفكرون السوفييتي من النقاش في أمور كان النقاش فيها محظوراً.

وقال غورباتشوف: «كان علينا أن نفعل ذلك لأنه ما تزال هنالك محاولات لتجنب المسائل المؤلمة في تاريخنا، وكل هذه المسائل دون أن نظهر لأحد أن شيئاً خاصاً قد حدث». ولم يذكر من سيكون في اللجنة أو متى سيعيد دراسة التاريخ بشكل علني، لكنه أشار بأن التوصل إلى بعض الأرشيف الذي يضم شهادات عن جرائم ستالين والذي كان محظوراً سيجد له طريقاً الآن. وقال: «يقال أحياناً بأن ستالين لم يكن يعلم العديد من الحوادث غير القانونية، لكن الوثائق التي بين أيدينا تظهر أن هذا ليس صحيحاً. إن جرائم ستالين وتسلطه داخل الحزب وفي صفوف الشعب وإجراءاته التعسفية البعيدة عن القانون عديدة، ولا يمكن التسامح بها. إن هذا درس لجميع الأجيال وبشكل خاص لجيل المؤتمر العشرين للحزب».

عندما أصبح غورباتشوف زعيماً عالمياً، كان هناك سؤال يدور في ذهن كل شخص في الاتحاد السوفييتي وفي الخارج: هل يستطيع أن يبقى؟ أو بشكل أدق هل يستطيع الشيوعيون المتشددون والمحافظون أن يحيلوا الغلاسنوست (الانفتاح) إلى طفرة قصيرة الأجل؟ وهل تتلاشى البيريسترويكا في منتصف الإجراءات المتخذة مثلما حصل للبيريسترويكا في أوائل أعوام بريجينيف؟.

يتمحور النظام السوفييتي دائماً بطبيعته وبحسب العادة حول الخوف والقوة، ويعلن غورباتشوف الآن للحكام والمحكومين بأن هذا النظام يسير نحو الوراء، ومن أجل جعله يتقدم نحو الأفضل، فإن غورباتشوف يرغب في قيادة زملائه نحو مستقبل تستبدل فيه الأوامر والخوف بالرضا والمنافسة. فإذا حاول ذلك فهل سيتبعونه؟ وإذا فعلوا هل سيكون المجتمع الناتج هو الاتحاد السوفييتي؟ فالماركسيون دأبوا منذ أمد طويل على الإشارة إلى التناقضات في الأنظمة السياسية الأخرى، والآن يجبرهم غورباتشوف على مواجهة التناقضات الموجودة فيهم. كيف ومتى يستطيع غورباتشوف حل هذه التناقضات؟ يعتبر هذا من المسائل الهامة في هذا العقد، وربما في هذا العصر.

الفصـــل الســـادس

يـوم واحـد في حيـاة ميخـائيـل سـيرجيفيتـش

لا تشرق الشمس في أوائل الشتاء الباكر في موسكو، قبل الساعة التاسعة صباحاً، ومـع ذلك، لا تؤخـر العتمـة سكـان موسكـو، كما لا يؤخرهم البرد، ولعل تأثيرها عليهم أقل من تأثير البرد. وبعد أيام الخريف الكئيبة، الكثيرة الأمطار الخفيفة، يتطلع الناس إلى قدوم الشتاء. وقد تكون ساعات ضوء النهار قصيرة، إلا أنه كلما تجدد سقوط الثلج، اكتست العاصمة الرمادية المغبرة، بطبقة من القطن النظيـف الطـازج النـاصع البياض. ورغم البرد فإن الناس يملؤون الشوارع، وكذلك لا يغادر باعة (الآيس كريم) أماكنهم. ويأتي الظلام مبكراً، وفي حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر، إلا أن ذلك لا يؤثر على سرعة حركة السير. أما في الصيف حيث

يبدو أن الشمس لا تغيب ، فلا يطرأ أي جديد ، سوى أن الحركة والضوضاء يمتدان ويطولان ، ويصبح معدل درجة الحرارة في موسكو خلال شهر تموز ، معادلاً لدرجة الحرارة في باريس . وينشط باعة (الآيس كريم) في هذه الفترة ، ويقومون بأعمال أكثر من الأعمال التي يقومون بها في الشتاء . وتزدحم الحدائق العامة قليلاً ، ويطرأ تبدل أكثر على سرعة الحركة ، إلا أن شوارع موسكو ناشطة في جميع فصول السنة .

يعتبر ميخائيل غورباتشوف ، أحد أهالي موسكو ، فقد عاش في العاصمة باستمرار منذ عام ١٩٧٨ ، وأمضى فيها كطالب ، مدة خمس سنوات ، وهكذا فقد كانت أنوار الشمس تدخل منزل غورباتشوف ، صباح كل يوم عادي ، سواء في الصيف أو في الشتاء . وللعائلة الأولى منزل يقع بعد بناءين ، إلى جهة الغرب من مبنى الكرملين إلا أنه لم يكن ذات المنزل الذي أقام فيه بريجينيف وأندروبوف أو تشيرنينكو (لأنه لا يوجد سكن خاص بالسكرتير العام ، يعادل البيت الأبيض الأمريكي) .

وغالباً ، ما كانت عائلة غورباتشوف ، تقيم في منزلها في روبليوفسكوي شوس Rublyovskoye Shosse ، بالطرف الغربي من المدينة ، حيث كانت تشتعل الأضواء باكراً . وتعني لفظ (داتشا dacha) ، عدة أشياء في الاتحاد السوفييتي . فهي تبدأ من البيت العمالي ، الذي يتألف من غرفة واحدة ، تشبه في أحسن أحوالها البيوت المتواضعة ، لقضاء إجازات وعطل نهاية الأسبوع ، إلى قصر ما قبل الثورة المنيف ، القائم وسط بقعة خضراء ، تقع

داخل الحزام الأخضر المحيط بموسكو. ومثل هذا القصر مخصص لإقامة أكبر مسؤول حزبي. ولا يمنع أن يسكن بعض هذه القصور مالكوها أنفسهم، أما القصور الفخمة فإنها من ممتلكات الدولة. ويبقى شاغلو تلك القصور من المسؤولين الرسميين، مقيمين فيها، ما داموا في وظائفهم، فإذا فقدوا مراكزهم، كان عليهم إخلاؤها.

وكان القادة السوفييت، منذ أيام ستالين، يشغلون بيتاً أو أكثر من أحسن بيوت الدولة، وقد شغل ليونيد بريجينيف مثلاً، أحد تلك القصور، في اوسوفو Usovo خارج موسكو. وكان قد شغله من قبل ستالين وخروتشوف، كاستراحة للصيد في زافيدوفو Zavidovo على مسافة ٧٠ كيلو متراً، شمالي غرب موسكو. ويروي الصحفي هدريك سميث Hedrick Smith في كتابه (الروس) الصادر عام ١٩٧٦، يروي فيه قصة بريجينيف، عندما أحضر والدته المسنّة من منزلها في دنبرود زرجينسك Dneprod Zerzhinsk، إلى موسكو مباشرة، وذلك بعد أن أصبح سكرتيراً عاماً، لترى محل إقامته الجديد. وبعد أن طاف بها حول اوسوفو نقلها بطائرته المروحية الخاصة إلى زافيدوفو وأخيراً، سأل بريجينيف والدته وهما في صالة الولائم، حيث توجد مدفأة جدارية كبيرة، «والآن أخبريني يا أماه، ما رأيك بما شاهدته؟» وهنا نظرت الأم حولها، وهي تستعرض الفخامة المحيطة بها، ثم قالت: «حسن، شيء جيد، ليونيد. ولكن ماذا لو عاد الحمر مرة أخرى؟».

أما المكان الذي كان يقيم فيه غورباتشوف، فإنه مكان يحيط به

الغموض، ويقع في منطقة عليها، إشارة ممنوع الدخول الدولية، لوحة مستديرة حمراء عليها خط أصفر، الإشارة المتعارف عليها بالروسية بلفظة كيرپيتش Kirpich أي (آجر)، وتحرس المنطقة دوريات من سيارات الأمن. أما المنطقة الواقعة شمال روبليوفسكوي شوس فإنها منطقة مغلقة في وجه الأجانب، ربما لأنها منطقة مكتظة بمساكن كبار المسؤولين. وكان قد دعي بعض الزوار من ضيوف غورباتشوف الأجانب لزيارته في منزله، من أهمهم رئيس وزراء الهند راجيف غاندي Rajiv Gandhi وزوجته صونيا Sonia الإيطالية المولد. ومن الواضح أن عائلة غاندي هي من الأصدقاء الرسميين والشخصيين لعائلة غورباتشوف، وكانت قد توثقت هذه الصداقة بين رايسا وصونيا خلال زيارة عائلة غاندي لموسكو عام ١٩٨٥، وخلال الزيارة الثانية عام ١٩٨٧ دعيت عائلة غاندي إلى عشاء عائلي ودّي في منزل غورباتشوف. ويذكر أن رايسا لا تحب استقبال الضيوف في منزلها حتى أن كثيرين من الناس لا يعرفون داخل الأماكن التي يقيم فيها غورباتشوف، في منطقة موسكو، ولم يسبق أن نشرت أية تفاصيل عن حجمها أو مفروشاتها.

في عام ١٩٧٨، عندما دعي غورباتشوف إلى موسكو ليصبح السكرتير الحزبي المسؤول عن الزراعة، منح هو وزوجته رايسا عدداً من الإمتيازات والعلاوات، كان من ضمنها المنزل الرسمي المخصص لإقامتهما، ويستمتع أعضاء النخبة المسؤولة في موسكو، (وأمثالهم في المدن الأصغر، على مستوى أكثر تواضعاً)، بأمكنة سكن خاصة، فضلاً عن العلاج

الصحي، وما شابه من المنافع الأخرى، التي لا يستفيد منها المواطن السوفييتي العادي. وكان هذا النظام من الإمتيازات الوظيفية قد بدأ في عهد ستالين، وازدهر في عهد بريجينيف، وبدأ يتحدد في عهد الأمين العام الحالي. ومن أهم إصلاحات غورباتشوف إلغاؤه المخازن الخاصة، المخصصة فقط لكبار المسؤولين من الموظفين، وتعني النظرية الكامنة وراء هذه الخطوة، أنه ينبغي على الأفراد الذين يحكمون الاقتصاد السوفييتي، أن يعرفوا كيف يكون الوقوف، بانتظار موظفي المخازن الشرسين، لكي يبيعوا الناس بعض السلع البسيطة.

والغالب، أن عائلة غورباتشوف لم تعان من مثل هذه المذلة، منذ أن عادت إلى موسكو، ومن المحتمل جداً أنها كانت مثل كبار عائلات الكرملين، ممن يرسل إليهم كل ما يحتاجونه من مواد السلع الاستهلاكية (البقالة) وهو الأسلوب الشائع في المدن الغربية، إلا أنه أسلوب غير معروف على الغالب في الاتحاد السوفييتي. وكتب سميث فقال: إن لنظام الإمتيازات السوفييتي شكلياته الخاصة، فالحاجات توضب وتؤمن حسب مرتبة المسؤول، حيث يأتي في المقدمة، قادة المكتب السياسي للحزب الشيوعي الأوائل، يليهم أعضاء اللجنة المركزية الحزبية القومية، ثم الوزراء الحكوميين، فالجماعات التنفيذية الصغيرة التي تدير مجلس السوفييت الأعلى ، أو البرلمان، فإنها تحصل على ما يسمى (الكريملوفسكي بايوك Kremlovsky Payok)، أي إعاشة الكرملين، وهو يتألف من مواد غذائية كافية لتغذية عائلاتهم، تغذية باذخة، كل شهر مجاناً... وتحدد قيمة وكمية

المواد الغذائية بموجب نظام تنازلي، حسب مرتبة المستفيدين منها، وقد رأى غورباتشوف أن المستفيدين من مخصصات الإعاشة، يجب أن يدفعوا كامل ثمنها، الذي يمكن أن يزيد عن مبلغ يتراوح بين ١٠٠ — ١٢٠ روبلاً كل شهر، وهو مبلغ تنفقه عائلة متوسطة تتألف من أربعة أشخاص، إلا أن المستفيدين من مخصصات التموين لا يزالون يتمتعون بنوعية من الطعام؛ لا يحصل عليها المواطنون العاديون بأي ثمن.

وللحق نقول، إن رواتب القادة الذين يحكمون أمة تزيد على أكثر من (٢٨٠) مليون نسمة، هي رواتب متواضعة كثيراً بالمقارنة مع المقاييس الغربية. ورغم أن راتب غورباتشوف غير معروف، إلا أنه ربما لا يكون أكثر من (٩٠٠) روبل شهرياً، أي (١٤٠٠) دولار. وهو ما كان يقبضه بريجينيف ومقابل هذا، يتناول رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية مبلغ (٢٠٠،٠٠٠) دولار سنوياً، يضاف إليه (٥٠،٠٠٠) دولار نفقات مختلفة، و(١٠٠،٠٠٠) دولار للسفريات و(٢٠،٠٠٠) دولار لقاء الحفلات وما شابه من الضروريات اللازمة التي تمكنه من منافسة أقرانه السوفييت ومضاهاتهم.

وكما أن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، لا يربح المرابح الكبيرة، التي يكسبها عشرات الألوف من الأشخاص الأمريكيين المشتغلين في مختلف الأعمال التجارية والمهنية والفنية والرياضية. كذلك الأمين العام للحزب الشيوعي السوفييتي، فإنه لا يستفيد من أفضل الأجور التي تدفع

لعمال الدولة، والمؤلفون ومنظمو الحفلات السوفييت، يمكن أن يربحوا عوائد تقدر بعشرات الألوف من الروبلات سنوياً. إن أعلى الرواتب في الاتحاد السوفييتي لا يتقاضاها الموظفون الحزبيون، إنما هي من نصيب العمال المهرة الذين يعملون في الأماكن البعيدة الخطرة، مثل عمال مناجم الذهب في سيبيريا الذين يتقاضون ما بين: (٧٠٠) إلى (١٢٠٠) روبل شهرياً. ومع ذلك فإنه لا يوجد ما ينفقون عليه هذه الأجور، ما عدا الفسحات المحددة داخل البلاد، أو في سوق الأجهزة الالكترونية السوداء، وذلك بسبب النقص في السلع الاستهلاكية، وعدم وجود النوعية الجيدة من المواد الغذائية والألبسة، مما يجعل الأفراد، الذين يكسبون أكثر من / ٧٠٠ / روبل شهرياً، لا يعرفون ماذا يفعلون بما يملكون من المال، حيث أن تأمين المستلزمات الضرورية، هو الشيء الجوهري في الحياة المريحة وليس النقود.

إن أحد أبرز ظواهر الوضع الراهن في الاتحاد السوفييتي، السيارة التي يقودها سائق، وتأتي سيارة الزيل Zil في قمة الهرم. وهي سيارة فائقة الفخامة، مصنوعة بالتجميع اليدوي، ويزيد سعرها على (١٠٠,٠٠٠) دولار، وهي تشبه سيارة لينكولن كونتيننتال. وهناك إجمالاً عدد محدود من كبار المسؤولين السوفييت، ممن يستحقون استعمال سيارة الزيل. ويليها سيارة تشايكا Chaika التي تشبه سيارة الليموزين المغلقة الواسعة، المنتفخة من الوسط، والتي تعود إلى أوائل السبعينيات. ويستحق أعضاء مجلس الوزراء والنخبة من القادة العسكريين، وكبار الزوار الأجانب هذه السيارة التي يصل سعرها الذي يمكن شراؤها به من قبل الأجانب، يصل إلى مبلغ

(٨٥٠٠٠) دولار. ومنظر سيارة التشايكا وهي تنتقل في شوارع موسكو الرئيسية، عبر الخط الأوسط المخصص للسيارات الرسمية، منظر مألوف، يشيرون إليه عادة بقولهم، خط تشايكا. أما سيارة الفولغا فتأتي في المرتبة الثالثة، بين نخبة السيارات ذات الأبواب الأربعة، وهي تشبه السيارات الأمريكية متوسطة الحجم قبل عشر سنوات، وهي في موسكو بلون أسود تقريباً، إلا أن العديدين من موظفي الضواحي يفضلون منها السيارة ذات اللون الأبيض.

ومع ظهور الغلاسنوست (الانفتاح)، أصبحت حتى السيارات الحكومية الرسمية، موضع سخرية، في فيلم جديد بعنوان (لحن المزمار المنسي)، للمخرج الدر ريازانوف Eldar Ryazanov وهو كوميديا عن أزمات الحياة في عصر موظفي البيريسترويكا البيروقراطيين. وكان رواد السينما السوفييت يصفرون عند بدء العرض، عندما كانت تظهر أرتال السيارات الرسمية وهي تحمل كبار المسؤولين المهمين بأشخاصهم، تنقلهم إلى وزاراتهم، وتتوقف السيارات فجأة محدثة بعجلاتها زعيقاً عالياً، بينما يشير شرطي المرور بعصاه البيضاء إلى سيارة كبيرة مسرعة لتأخذ طريقها وسط الشارع.

وكان ستالين معروفاً، بأنه يستخدم في تنقلاته موكباً يتألف من خمس سيارات في وقت واحد، وكان في بعض الأحيان يركب سيارة ماركة (باكار) الأمريكية الصنع. أما خروتشوف فكان موكبه يتألف من أربع

سيارات . أما بريجينيف فقد احتفظ بالعدد نفسه من السيارات ، وقد فكر مرة في إنقاص هذا العدد ، إلا أنه عدل عن ذلك ، عندما أقدم أحد الضباط الساخطين على إطلاق الرصاص على موكب الزعيم السوفييتي ، عند مدخل الكرملين ، في أحد أيام شهر كانون الثاني من عام ١٩٦٩ .

عندما بدأ غورباتشوف عمله كأمين عام ، كان المواطنون السوفييت يصفونه بإعجاب بأنه شخص متواضع ، يستعمل في تنقلاته في أرجاء المدينة سيارة زيل واحدة ، بالإضافة إلى سيارة فولغا سيدان متواضعة ، تحمل على ظهرها عدداً من عناصر الأمن ، وهو يسير ضمن السرعة المحددة بـ ٨٠ كم في الساعة . بخلاف بريجينيف الذي كان موكبه ينطلق في الشوارع زاعقاً بسرعة تزيد على ٨٠ كم في الساعة ، أما غورباتشوف فقد زاد عدد الحرس الخاص لموكبه بشكل واضح . ويذكر هنا بأن ثمة إشاعات ، كانت قد راجت عن محاولة الاعتداء على حياته ، إلا أنها لم تتأكد . وفي جميع الأحوال فقد زاد من الاحتياطات الأمنية من حوله منذ مطلع عام ١٩٨٦ ، حيث بدأ يظهر إلى جانبه في معظم صوره الفوتوغرافية شخص ضخم ذو شعر ضعيف مُسرَّح إلى الخلف ، تبدو عليه سيماء القوة ، هو رئيس حرسه الخاص .

منذ عام ١٩٨٨ بدأ الأمين العام ، يتنقل في موكب يتألف من أربع سيارات زيل يمتطي الأمامية منها ، المجهزة بالأنوار الكاشفة ، رجال أمن يحدقون عبر نوافذ السيارة ، يليها السيارة التي يركبها غورباتشوف ، ثم سيارة الليموزين المغلقة السريعة ، المملتكة برجال الأمن . وأخيراً السيارة ذات

الستائر والهوائيات المنتصبة، التي يبدو واضحاً أنها أثقل السيارات الأخرى فضلاً عن هدير محركها وأزيز إطاراتها، وصوت انسيابها في الهواء. ور كانت تحمل أجهزة ضرورية للاتصالات اللاسلكية لإعطاء الأوامر للقوا العسكرية، لاستعمال الأسلحة النووية في حالة الضرورة. وقد حددت سلطات موسكو، منذ عام ١٩٨٨، استعمال صفارات الإنذار والأنوا الكاشفة، من قبل عدد كبير من السيارات الرسمية. ومع ذلك فإن موكب الأمين العام لا يزال يستعمل صفارة تشبه الصفارة الأوروبية، (وي واو المعتدلة الصوت، وذلك لكي تفسح السيارات الأخرى، الطريق، لموكب سيارة التشايكا.

والسوفييت مثل بقية الناس، في كل مكان، مغرمون بالسيارات فقد كان بريجينيف مثلاً، يملك ويقود عدداً من السيارات الأجنبية الغالية الثمن، ومن بينها سيارة رولس رويس، ومعظمها هدايا من دول أجنبية. ولا يعرف بصورة خاصة فيما إذا كان غورباتشوف يشارك بريجينيف هذه الهواية. وربما كان السكرتير العام، لا يملك أية سيارة إطلاقاً، مع أنه يعرف قيادة السيارة، رغم أنه كان قد استعمل في شبابه عدداً من السيارات. ومما لا شك فيه أنه كان يقود السيارة الحكومية بنفسه، في ستافروبول كراي وذلك أيام الشباب، عندما كان مسؤول الكومسومول، إلا أنه يذهب إلى مكتبه سيراً على الأقدام. بعد عودته إلى موسكو عام ١٩٧٨ ـــ اختار سيارة رسمية منذ اليوم الأول لوصوله إليها ـــ إلا أنه لم ير جالساً في المقعد الأمامي إلى جانب السائق، أبداً، وهو ما كان يرتاح إليه المسؤولون

السوفييت الكبار، ممن يريدون أن يظهروا أنفسهم بمظهر التعاطف مع الطبقة العاملة.

مع نمو موكب غورباتشوف في موسكو، أصبح له حاشية يأخذها معه في رحلاته الخارجية. وتنطلق طائرة غورباتشوف عادة من مطار فنوكوفو Vnukovo وهو مطار خاص في ضواحي موسكو مخصص للمسافرين من أصحاب المستويات العالية. وطائرة غورباتشوف من نوع اليوشن — ٦٢ وهي عماد الطيران المدني في الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية. وهذه الطائرة المصممة على أساس الطائرة الانكليزية من نوع ف س — ١٠ في الستينيات، التي لم تعد تستعمل في الخدمة المدنية، وهي تشبه طائرة البوينغ ٧٠٧ التي يستعلمها الرئيس الأمريكي ريغان.

عندما وصل غورباتشوف إلى باريس في تشرين أول عام ١٩٨٥ كان يصطحب معه جواً، ثلاث سيارات زيل لاستعماله الشخصي، وكانت إحداها مخصصة لتنقلاته الشخصية، وكانت الثانية لتأمين الاتصالات اللاسلكية، أما الثالثة، فكانت للسفير السوفييتي وغيره من المسؤولين الكبار الآخرين. إلا أن إحدى السيارات الثلاث تعطلت في باريس، مما اضطر معه ركاب السيارة الثالثة، إلى استعمال سيارة سيتروين فرنسية، بدلاً من سيارة الزيل السوفييتية المعطلة. ونتيجة لهذه الحادثة، فقد جرى نقل أربع سيارات زيل إلى جنيف، وذلك بمناسبة الاجتماع الذي تمّ بين ريغان وغورباتشوف في جنيف سويسرا. وربما كانت السيارة الرابعة من تلك

السيارات من باب الاحتياط لاستعمالها في حالة الطوارئ . أما في اجتماع ريكافيك Reykjavik الذي كان اجتماع عمل، أكثر منه اجتماع قمة، فإنه لم يستلزم استعمال أكثر من ثلاث سيارات زيل. أما في قمة واشنطن التي انعقدت في كانون أول من عام ١٩٨٧ فإن السوفييت لم يحتاطوا بتوفير أية سيارات إضافية، لأن موكب غورباتشوف كان يتألف من ثماني سيارات زيل كان بينها سيارة الاتصالات اللاسلكية، التي كانت تسير على مسافة / ٥٠ / ياردة خلف موكب السيارات المذكورة.

وحاشية غورباتشوف في مثل تلك الرحلات الخارجية، هي حاشية صغيرة، بالمقارنة مع مقاييس الولايات المتحدة. فقد كان موكب غورباتشوف في جنيف يتألف مما يقرب من / ١٤٠ / شخصاً، بمن فيهم نحو (٣٠) صحفياً، وعدد من الخبراء والعلماء، والمختصين بمراقبة التسلح، وعدد مماثل من الأخصائيين، الذين كان عملهم، كما يبدو، الاجتماع إلى الصحفيين المحليين لبيان وشرح كل ما يتعلق بخط واتجاه الاتحاد السوفييتي. هذا في مقابل أكثر من / ٥٠٠ / أمريكي أحضرهم الرئيس الأمريكي معه إلى جنيف، عدا عدة آلاف من الأمريكيين وغيرهم من الصحفيين الأجانب الذين حضروا لتغطية هذا اللقاء. ومع مؤتمر قمة واشنطن بدأت حاشية غورباتشوف تقترب من مستوى الحاشية الأمريكية، حيث رافق غورباتشوف نحو ما يقرب من مائتي شخص، وبلغ عدد الوفد الصحفي المرافق أكثر من خمسين شخصاً.

يبدأ اليوم النموذجي في حياة ميخائيل سيرجيفيتش، في موسكو وليس خارج البلاد، يبدأ بالنهوض باكراً، دائماً كفتى في مزرعة ستافروبول ليتصفح أهم الصحف اليومية السوفييتية، وربما، بعض الوثائق أو المعاملات الرسمية أيضاً. ثم يقصد المكتب، وذلك عندما يكون في منزله الداتشا dacha وينطلق أزيز موكبه عبر طرقات كوتوزوفسكي Kutuzovsky، باتجاه الكرملين، في حوالي الساعة التاسعة صباحاً، أبكر بساعة واحدة كاملة من بريجينيف.

ولغورباتشوف على الأقل، مكتبان رئيسيان، أحدهما في الكرملين، والآخر في مقر اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، حيث المباني المعقدة في ساحة ستارايا Staraya على مسافة ثلاث عمارات من الكرملين. وكلا المكتبين عاريان وخاليان من مظاهر الحياة، بخلاف غرفة الاجتماعات. ويستعمل المكتبان بالدرجة الأولى، أو بصورة رئيسية لاستقبال الزوار، والغرف متشابهة من حيث الديكور، والجدران مغطاة بطبقة من الحرير الأصفر، وقد علق عليها لوحتان، لماركس ولينين، وهما يحدقان في طاولة الاجتماعات الطويلة المغطاة بغطاء من قماش أخضر، ومن حول هذه الطاولة، نحو / ٢٠ / مقعداً، وفي أحد طرفيها، يوجد مكتب مصنوع من الخشب الأصفر، وعليه أربعة أو خمسة أجهزة هاتف، لونها قهوة بحليب، ويذكر أحد الصحفيين الذي وجد في كل من الغرفتين، عدة مرات، أنه لم يسمع أيّاً من تلك الأجهزة الهاتفية، يرن ولو لمرة واحدة.

ويرتبط عمل غورباتشوف ارتباطاً وثيقاً بمقر اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، حيث توجد مكاتب كبار الأمناء الحزبيين في ممر الطابق الخامس المغطى بسجادة شرقية، ومن على جانبيه، أبواب عريضة مزدوجة الردفات، تحمل أسماء شاغليها، بخط أسود أنيق على أرضية بيضاء ناصعة، إلى جانب كل باب. ويبدو أن غورباتشوف يشغل عدة مكاتب في واجهة هذا الطابق، فيها غرفة اجتماعات احتفالية واسعة، متصلة بمجموعة من الأبواب المزدوجة، تؤدي إلى غرف السكرتاريا، وتوجد خلف هذه الغرف، الغرف الخاصة، التي يعتكف فيها غورباتشوف.

ولا يغامر بالدخول إلى هذا المكان، من الغرباء، سوى المسؤولين السوفييت الكبار، ويذكر زوار غورباتشوف في مكاتبه السابقة في موسكو وستافروبول أنه لم يكن يشاطر ذوق البيروقراطية السوفييتية النموذجي، في المفروشات الفخمة الثمينة، وصفوف زجاجات المشروب والكؤوس التقليدية وما شابه، وهو يميل إلى عاداته الشخصية النظامية، كطالب جامعي، ومن المحتمل جداً، أنه يميل إلى إنهاء جميع الأعمال التي أمامه دون أن يبقى منها شيء، ليظل المكتب الذي يعمل عليه نظيفاً.

ويقضي غورباتشوف يومه، شأن رجال الأعمال المشغولين، في سائر أنحاء العالم، يقضيه في الاجتماعات والاتصالات الهاتفية. وربما كان غورباتشوف ميالاً، أكثر من أسلافه السياسيين، إلى إعطاء التوجيهات بالهاتف، هذا الميل الذي يتناسب مع طبيعته الفعالة. فقد اختار مثلاً، أن

يتصل بأندريه زاخاروف، في غوركي البعيدة، هاتفياً، وذلك بعد أن انتهى إبعاد عالم الطبيعة المنشق. إن أي أمين عام غيره، كان يفضل أن يبعث رسولاً إلى غوركي، أو أن يدعو زاخاروف إلى مقابلته في موسكو. خاصة وأن الاتصالات الهاتفية السوفييتية العادية، حسب المقاييس الغربية، اتصالات بدائية جداً، ولا يمكن الاعتماد دائماً على الخطوط الهاتفية في موسكو، فضلاً عن أن الاتصالات الهاتفية بين المدن فظيعة جداً.

ولغورباتشوف، في جميع الأحوال، اتصالات هاتفية على مستوى عالٍ، تتم بين مكاتبه، ومقسم موسكو المركزي. كما أن له إضافة إلى ذلك، اتصالاته مع المدن السوفييتية. أما اتصالاته الخارجية، فإنها تتم على الغالب، بواسطة قنوات خاصة عبر الأقمار الصناعية. ويستعمل العديد من المؤسسات السوفييتية الكبرى، مثل وزارة الدفاع وأكاديمية العلوم، شبكات اتصالات لاسلكية، ذات كفاءة عالية خاصة، وذلك من أجل نقل الصوت والمعلومات. وربما امتلك الحزب الشيوعي مثل هذه الشبكة أيضاً. حيث إن أكثر الرسميين الذين ربما يرغب غورباتشوف الاتصال بهم، هم من موظفي الحزب المحليين الموجودين خارج موسكو، مما يجعل من الضروري، وجود خطوط اتصال على درجة عالية من الجودة، تصل بينه وبينهم، خاصة وأن غورباتشوف يستعمل هذه القنوات بانتظام.

أما الاجتماعات الوحيدة المنتظمة، والمهيأة، والمعروف أن غورباتشوف يحضرها، فهي اجتماع لجنة المكتب السياسي الأسبوعي، الذي يبدأ بعد

ظهر كل يوم خميس، ويعقد في غرفة المؤتمرات الخاصة، في الكرملين. فضلاً عن اشتراكه في الاجتماعات الدورية لأمناء الحزب الاثني عشر. إلا أنه من الواضح أن الأمين الثاني يغور ليغاتشيف **Yegor Ligachev** هو الذي يرأس الاجتماعات العادية، بينما يرأس غورباتشوف اجتماعات لجنة الدفاع ذات السرية العالية، التي تضم أربعة أو خمسة من الزعماء الكبار.

ويذكر أن لغورباتشوف فعالية خاصة في قاعة المؤتمرات، حيث يستطيع أن يكشف عن قوة ذاكرته العجيبة، التي تتميز بدقة متناهية، وبحضور يشبه بحرارته، حضوره الشخصي، لدرجة أنه يجعل الحاضرين يشعرون أنه يعرف من يكونون، تماماً، وأنه مطّلع على أعمالهم، ومهتم بها. ويقول أحد مساعديه: إنه يستطيع أن يملي صفحة كاملة من المعلومات، دفعة واحدة.

ويكشف غورباتشوف عن تلك المواهب، خلال جلساته مع الزوار الأجانب. ففي مقابلة له، مثلاً، مع محرري التايم في الكرملين عام ١٩٨٥، احتفظ بقصاصات صحيفة طبق الأصل ــ واضح أنها كانت توجز خلاصات معلومات أو أخبار (صحفية ــ احتفظ بها على المكتب أمامه، وكان مؤشراً على تلك القصاصات، بالأحمر والأخضر والأزرق، ولم يكن في وسع الزوار أن يفهموا ماذا تعني تلك الخطوط. ففي موضوع معين، التقط قصاصة واحدة من بين مجموع تلك القصاصات، وذكر ترجمة ما كانت كتبته الصحيفة الأمريكية ماري ماك غروري **Mary McGrory**

كما أبدى اهتمامه أيضاً، بمختلف المجلات التي أصدرتها مؤسسة التايم. وأثنى على بادرة هنري غرونوالد Henry Grunwald الذي كان رئيساً لتحرير التايم، ثم سفيراً للولايات المتحدة لدى النمسا، أثنى على بادرته، عندما وعده أن يرسل إليه أعداد مجلة التايم. ومنذ ذلك الوقت كان غورباتشوف يتسلم أسبوعياً مجموعة من إصدارات مجلة التايم. ولا يعرف فيما إذا كان الأمين العام، وقد اطّلع على تلك المجموعة أم لا، ومعرفته باللغات الأجنبية، بدائية على أفضل حال. وفي جميع الأحوال، فقد أخبرت رايسا مراسلة التايم نانسي ترافر Nancy Traver، خلال مؤتمر القمة في واشنطن، أنها تقرأ التايم بانتظام.

والأمين العام، على اتصال وثيق مع مساعديه الستة، فهو يتحادث معهم بالهاتف شخصياً، كل يوم. ومن المألوف جداً، أن يتلقى هؤلاء المساعدون، عدة مكالمات هاتفية من الأمين العام، في اليوم الواحد، يسأل فيها عن هذا الموضوع أو ذاك. وغالباً، ما يعتمد غورباتشوف في مسائل السياسة الخارجية، على نصيحة اناتولي دوبرينين، كبير مشاوريه في القضايا الدولية، وكذلك على وزير الخارجية شيفاردنادزه كما أنه كثيراً ما يدعو عضو المكتب السياسي الكسندر ياكوفلوف ويغور ليغاتشيف لمناقشتهما في السياسة الداخلية. أما الوزير الأول نيكولاي ريجكوف فهو المختص في القضايا الاقتصادية. أما فيكتور نيكونوف فهو خبير الأمانة العامة في الشؤون الزراعية.

ونادراً ما يقابل الزعيم السوفييتي، الموظفين من ذوي المراتب المتوسطة ممن هم أقل مرتبة من دوبرينين إلا أنه يسمح في بعض الأحيان لمساعدي الكرملين الأقل مرتبة حضور اجتماعات أعضاء المكتب السياسي، إلا أنهم قلما يجتمعون بالأمين العام بمفردهم. وذكر أحد موظفي المرتبة المتوسطة، ممن حضروا مثل تلك الاجتماعات مع غورباتشوف: «أنه ليس واحداً ممن يمكن أن تدعوه ميشا Misha إلا أنه من ناحية ثانية يمكنك أن تتحدث إليه بسهولة، وكما قلنا فإنه لا يتصرف كما لو كان في احتفال صيني، فلا يوجد هناك شيء كثير من انحناءات الاحترام».

وغورباتشوف يدقق بشدة في جدول مواعيده، بخلاف بريجينيف، الذي كان مساعدوه، في سنيه الأخيرة، يتنقلون به من احتفال إلى احتفال، دون أن يكون لديه، في بعض الأحيان إلا فكرة غامضة عمن سيقابلهم، ولماذا يقابلهم. أما غورباتشوف فإنه يقرر بنفسه، من يقابل ومن لا يقابل. وهو لا يحب الاجتماع لمجرد الاجتماع والاحتفال فقط. وكما قال أحد كبار موظفي الخارجية: «إنه يريد شيئاً مختلفاً قليلاً، فمثلاً عندما سمع بوجود جماعة من مدرسي اللغة الروسية الأمريكان يزورون موسكو، فإنه دعاهم على الفور إلى الاجتماع به، واستمتع بذلك كثيراً. وهو يريد من اجتماعاته أن تثمر حديثاً جدياً، وتبادلاً حقيقياً للمعلومات، وهو يضيق بالاجتماعات الشكلية حيث لا يفعل الموجودون أكثر من الجلوس».

ويدعو غورباتشوف المسؤولين الكبار، في مختلف المهن

أو الصناعات، إلى اجتماعات منتظمة، فهو يعقد جلسات مع المسؤولين عن الزراعة أو الصناعة أو الدفاع، بواقع جلسة واحدة في الشهر. وكان قد عقد اجتماعين مع كبار المحررين السوفييت على الأقل. وغالباً ما تستمر الجلسات مع غورباتشوف خمساً أو ستَّ ساعات، حيث كان يسأل الحاضرين بيان آرائهم بكل حرية، وكان يبدي في بعض الأحيان، ملاحظاته على تلك الآراء. وفي أحد اجتماعات غورباتشوف مع أساتذة العلوم الاجتماعية، كما ذكر المؤرخ الأمريكي موشه ليوين Moshe Lewin، شكا غورباتشوف من أن التوجيهات في معظم أنظمة العلوم الاجتماعية، أصبحت مملة، وشكلية، وبيروقراطية، بعض الشيء، وقال: «من الآن فصاعداً سيكون الأمر اليومي كازه نوه Kazennoe ويعني تقريباً (كسر العادات السابقة المألوفة).

أما أهم العناصر الايجابية الفاعلة، في سياسة غورباتشوف الإدارية، التي لم يسبقه إليها أحد من أسلافه في السلطة من قبل، فهي أنه يخرج من مكتبه ويقابل المواطنين العاديين. وهو يقوم بمثل هذه الجولات في الأقاليم على أسس منتظمة، بمعدل رحلة واحدة كل شهرين تقريباً. ويترأس في كل هذه المناسبات، بشكل مثالي، اجتماعاً أو اجتماعين، للقادة السياسيين والمدنيين والصناعيين. وتنقل هذه الاجتماعات في العادة، بواسطة التلفزيون، وهي تعطي فكرة عن طريقته في إدارة الاجتماعات المغلقة في الكرملين: فهو يتحدث عن مختلف المشاكل المحلية والقومية، وكثيراً ما يقاطعه أحدهم

ليسأل: «هل ذلك كذلك؟» و«هل توافق على ذلك؟». ومن خلال مثل هذه الطريقة، فإن الحضور يعربون، عادة، عن موافقتهم الصامتة.

ففي آب من عام ١٩٨٧، مثلاً، زار غورباتشوف رامنسكي Ramensky، وهي مجموعة زراعية صناعية، قرب موسكو. وكان المسؤولون المحليون المتحمسون، في مزرعة زافوروفو Zavorovo الحكومية قد بنوا درجاً خاصاً، ليوفروا على ضيفهم المتميز، عناء التوغل في التل الوعر في حقول البطاطا أسفل الطريق العام ويبدو أنه لم تكن هناك ضرورة لأن يزعج أولئك المسؤولون المحليون أنفسهم، حيث توقفت سيارة الزائر ممثل الكرملين، السوداء اللون المغلقة طراز زيل ZIL، وترجل منها غورباتشوف وألقى نظرة على بناء خشبي جديد، شُيِّد حديثاً، وأشار بيده إشارة تدل على عدم رغبته فيما عرض عليه. وأخذ طريقه في منحدر شديد، وهو يرتدي بزة رمادية مكوية ونظيفة، تاركاً مرافقيه المندهشين، مضطرين إلى الجري خلفه. هذه اللحظة الطريفة، التي لم يشهدها الرجال الخمسة، من فريق مزارعي البطاطا، الذين كانوا ينتظرون بلهفة، لقاء الزعيم السوفييتي عند طرف الحقل المحروث لم يشاهدوها وحدهم فقط، إنما شاهدها معهم ملايين المواطنين السوفييت، ممن صادف أنهم كانوا يشاهدون (الفيريميا) وتعني هذه اللفظة (الوقت)، أي وقت إذاعة الأنباء المسائية.

وكان الحديث الذي تلا ذلك، والذي سجلته كاميرا التصوير التلفزيوني، التي كانت تتلصص، عبر أكتاف المزارعين، كمشاهد غير

منظور داخل زحام، كان ذلك الحديث نموذج الأسلوب الغورباتشوفي، الذي كان يجري بلهجة موطنه في إقليم ستافروبول، اللهجة الروسية العذبة، حيث يغدو حرف (g) الحلقي سهلاً ناعماً ويخرج بشكل حرف (h). وفي كل مرة كان يحاول فيها مدير المشروع أن يعطي مزارعي البطاطا، الفرصة لحديث صغير. كان غورباتشوف يسأل عن الحالة العامة لإقليم زافوروفو، ويجيب العمال: «العمل يسير بطريقة جيدة»، وهم واقفون بقبعاتهم الملطخة بالوحل، وثياب العمل الخاكي، إلى جانب صف من المعدات الزراعية، المجهزة أحسن تجهيز، مثل جنود في استعراض عسكري.

ولم يكن بإمكانهم أن يقدموا إلى غورباتشوف مدخلاً أفضل من هذا. وقد كان ذلك الجواب منتظراً، وكان غورباتشوف قد سمعه قبل ذلك مراراً عديدة. وكان القائد السوفييتي مستعداً دائماً، لأن يجعل من ذلك الجواب موضوعاً رئيسياً لخطابه في الجماهير، حيث ردَّ على ذلك الجواب قائلاً: «أنتم تعرفون أنني أسمع دائماً الجواب نفسه» وأضاف غورباتشوف، متجهماً، مكرراً ذلك الجواب: «جيد. طبيعي. ممتاز». وما إن دخل موضوع الحديث في موضوع البيريسترويكا أي برنامجه لإعادة بناء الاقتصاد السوفييتي، حتى تلاشى من عينيه البنيتين، ذلك التألق الذي كان يلتمع فيهما، حيث قال: «أنتم تعلمون أنه يوجد دائماً مشاكل، ولدينا حتى الآن الكثير منها، ولو لم تكن عندنا مشاكل، إذن لما كان هنالك مهام كبيرة نتولى معاً القيام بحلها».

يتضح من ذلك أنه كانت في رأس الزائر القادم من الكرملين، عدة أشياء، كان يريد أن تشاركه فيها جموع الفلاحين السوفييت، وتابع كلامه وسأل: «هل يوجد لديكم كل شيء هنا، سوى الفودكا؟». مشيراً بهذا السؤال إلى حملته لمكافحة تعاطي الكحول. وعندما غمغم الفلاحون بما يفهم منه، أن كل واحد منهم مكتفٍ وراضٍ بما هو فيه. تجاوز غورباتشوف الشكليات المألوفة، ليس النقطة الحساسة، التي يعرف أن كل واحد من الحاضرين، والجالسين أمام أجهزة التلفزيون في كافة أنحاء البلاد يعاني منها، تجاوز الشكليات قائلاً: «لا، لم يكن هناك في الحقيقة سبب يجعلكم مكتفين وراضين، فقد تلقت اللجنة المركزية، رسائل تشكو من نواقص كثيرة وبصورة خاصة، من نقص السكر مع حاجتها إليه». وقد واتت الشجاعة أحد المزارعين ليصرح، بأنه عندما كان الموسم هو موسم صناعة المربيات والجلاتين، وكانت توجد حاجة كبيرة للسكر، كان غورباتشوف إذ ذاك، يلقي محاضرة تلفزيونية عن مخاطر تعاطي الكحول.

وتابع غورباتشوف خافضاً صوته، حتى إنه لم يعد مسموعاً بوضوح، فقال: «يوجد لدي شيء أريد أن أقوله لكم، وأنّ على الصحفيين أن ينقلوه إلى كل البلاد». ثم استدار لينظر إلى أحد مساعديه، لتأييده فيما يقول. وأضاف الزعيم السوفييتي أنه كان قد أعد بعض الحقائق والأرقام القليلة، مردداً من الذاكرة، بعض تلك الأرقام والحقائق، عن استهلاك السكر في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية، وذلك لتوضيح وجهة نظره من أن استهلاك الفرد السوفييتي من السكر سنوياً، قد ازداد بمقدار

عشرة كيلو غرامات، فوق المعدل المقرر طبياً، وتساءل قائلاً: ما هو السبب؟، وأجاب: السبب نور القمر، (وتعني هذه العبارة في الاصطلاح الأمريكي، تقطير الكحول بالسر، خفية عن الحكومة)، وأضاف غورباتشوف قائلاً: إن المقطرين الهواة، كانوا يشترون كميات كبيرة من السكر، للقيام بأعمال التقطير المحلي، والالتفاف على التعليمات المشددة في بيع المشروبات الكحولية، وتابع يقول: «ليصارح أحدنا الآخر» إلى أن أضاف: «ألم يحن الوقت بعد، لوضع نهاية لصناعة التقطير الخفي؟... ولا ريب بأن تلك الأنواع من الناس، تنتمي إلى الزمن الذي كانت تعيش فيه الديناصورات». مما جعل مزارعي البطاطا يضحكون.

إن هذا المزج المتقن بين مخاطبة الحضور وإبلاغ رسالته في الموضوع الذي يتحدث عنه والطريقة التي تصرف بها خلال زيارته لمزرعة زافوروفو، كانت تصويراً حسناً لمهارة غورباتشوف في الاتصال بالجماهير. وكان الرئيس السابق للشرطة السرية الروسية (K.G.B) يوري أندروبوف أول من أدرك أنه آن الأوان، بعد انعزالية سنوات الانحدار، في عهد بريجينيف، آن الأوان، للدوائر الحاكمة أن تغامر بالخروج، من وراء أسوار الكرملين لتختلط (بالنارود) أي الشعب. وقد توفي أندروبوف قبل أن تتاح له الفرصة الكافية، لوضع ذلك المبدأ، في الاتصال بالجماهير، قيد التطبيق العملي. ومع ذلك فقد قام بزيارة واحدة إلى مصنع الآلات الميكانيكية، سيرجو اوردجونيكدزه Sergo Ordzhonikidze في موسكو، وتحدث حديثاً طويلاً مع العمال، ذلك الحديث الذي سجلته البرافدا بتمامه.

ولم يضع غورباتشوف الوقت تجاه متابعة العمل في هذا الخصوص. وفي نيسان من عام ١٩٨٥، بعد أن أصبح أميناً عاماً، بشهر واحد، قام بجولة في منطقة بروليتارسكي الصناعية، في موسكو، لزيارة أسواقها الكبيرة، والتحدث مع العمال في مصنع جرارات ليخاشيف Likhachev، وكذلك التحدث مع الأساتذة في المدرسة رقم (٥١٤)، في موضوع التدريب على الحاسبات، والتحدث أيضاً مع موظفي مستشفى المدينة، رقم ٥٣ في موضوع الحاجة إلى زيادة الرواتب. كما وجد الوقت لتناول فنجان من الشاي مع زوجين شابين من المواطنين السوفييت، عندما ظهرا عند باب مسكنهما.

وقد عرضت، في نشرة الأخبار المسائية فقط صور فوتوغرافية غير متحركة، لتلك الجولة المبكرة لغورباتشوف في إقليم بروليتارسكي Proletarsky. وكانت عدسات التلفزيون، في الرحلات التالية التي قام بها غورباتشوف من كييف Kiev إلى خاباروفسك Khabarovsk، ومن حقول النفط السيبيرية في تيومن Tyumen إلى حقول القمح في كازاخستان Kazakhstan، كانت عدسات التلفزيون تدور، بينما كان غورباتشوف يكشف عن مواهبه في أحاديثه المرتجلة مع المواطنين الذين كانوا بين خجولين معقودي اللسان، وبين طلقين يتكلمون بصراحة. وكثيراً ما كان غورباتشوف يلقي خطباً مختصرة تشبه افتتاحيات البرافدا المنعشة، إلا أنه كان يعرب عن موهبته الطبيعية، بإيجاد الفكاهة في أي موقف.

وعندما كان غورباتشوف محاصراً بمواطني لينينغراد المتدافعين، نادته امرأة من بين الجموع المحتشدة: «اقترب من الشعب». فرد عليها غورباتشوف ضاحكاً «كيف أستطيع أن أقترب أكثر؟». وسرعان ما برهن على سرعة جذبه، وذلك عندما بدأ مزارعو منطقة تسيلينوغراد Tselinograd، في كازاخستان بإلقاء اللوم، في انخفاض الإنتاج على تقلبات الطقس، فقال لهم غورباتشوف: «أيها الرفاق، لقد وجد المناخ هنا، ليبقى في بلادنا لمائة سنة قادمة، وسواء أكان هنا مطر أو لم يكن هناك مطر، فإننا بحاجة إلى الغلال». بعد أن أمطره المستهلكون الغاضبون، في مدينة كومسومولسك Komsomolsk الواقعة في الشرق الأقصى من البلاد، بشكاويهم من كل شيء ابتداء من عدم وجود المفروشات وثياب الأطفال إلى نقص الفواكه والخضار، قال لهم غورباتشوف «لدينا مشاكل كثيرة، في الواقع كومة كبيرة منها. وإن ما نحتاجه هنا هو بلدوزر كبير». وعندما وصل غورباتشوف إلى تشيكوسلوفاكيا، في نيسان من عام ١٩٨٧، كان يدفع الجموع مبتهجاً بثقته بنفسه، الثقة المبهرة، كأي سياسي غربي، حيث كان يقابل بصيحات الصداقة التي تعلو من حوله (دروزهبال! دروزهبال!) وهي كلمة روسية تعني الصداقة، والتي كانت تطلقها جماهير سكان براغ المعروف عنهم أنهم غير محبين للروس.

ومهما تكن نتيجة مسعى غورباتشوف لتحديث الاقتصاد السوفييتي، فقد استطاع أن يحدث تغييراً هاماً واضحاً، في الكرملين بالنسبة للعلاقات العامة. أما لينين فقد كان بعيد النظر بما فيه الكفاية،

ليدرك ما لصناعة السينما الفتية، من قوة تأثير عظيمة، كأداة للدعاية، رغم أنه كان أولاً وقبل كل شيء، خطيباً حماسياً مصقعاً، من طراز خطباء القرن التاسع عشر. وأكد ستالين بقامته القصيرة، ولهجته الجورجية الكثيفة، أكد شخصيته، بالظهور وسط لوحات سياسية مرتبة بعناية وإتقان، كتمثال صامت كبير.

وجاء خروتشوف، فسحر الغرب، وأربك وضلل عدداً قليلاً من مواطنيه، بأمثاله الريفية اللاذعة، ومحاضراته التي كان يؤكدها بتحريك أصابعه، والضرب بحذائه على المنصة. إلا أن كل ذلك، كان مسرحيات، قام بها ممثلون حديثون من الأرياف، وقد تمت وانقضت. وأي فرق كان يمكن أن يكون، لو أن الزعيم السوفييتي الثائر، لم يجعل، بطريقة ما، أطر شاشات التلفزيون مناسبة تماماً، لما فعله شريكه في القمة، جون ف. كندي؟ في وقت لم تكن تملك فيه العائلات السوفييتية، من الأجهزة التلفزيونية، إلا بنسبة اثنتين وعشرين عائلة من كل ألف عائلة سوفييتية. وخلال العشرين سنة التالية، ازدادت نسبة العائلات التي تملك أجهزة تلفزيونية في الاتحاد السوفييتي، إلى أكثر من عشرة أضعاف النسبة، المذكورة في كل ألف. أي أنها ازدادت إلى ٢٤٩ عائلة. ذلك أن قيادة الكرملين المتقدمة في السن بطيئة في الاستفادة من كامل القوى الكامنة، للثورة التقنية، في مجالات الاتصالات اللاسلكية. فقد كان لدى كل من بريجينيف وأندروبوف وتشيرنينكو، أسباب كافية، لتجنب فضول عدسات التلفزيون القريبة. أولئك القادة، الذين كثيراً ما كانوا يتميزون أيضاً، بوجوه

منتفخة، نتيجة لتعاطي الكورتيزون، وكذلك بخطوات ضعيفة، وأنفاس رجل مريض، لها أزيز ونشيج.

وتختلف الحال، بالنسبة لغورباتشوف، الذي يعلم أنه عندما يتحدث مع عمال حقول النفط في تيومن، أو مع مزارعي القمح في كازاخستان، فإنه يبعث برسالة، يمكن أن تشاهد وتسمع من كاريليا Karelia إلى كامتشاتكا Kamchatka، وهو يعتز بحماس، بأنه يملك صحافة الكترونية، ومنصة خطابية، من أجل البيريسترويكا، وهو يشعر بالارتياح أمام عدسة التصوير، وقد تعلم حقيقة بسيطة، وهي أن أحسن طريقة للتعامل مع عدسات التصوير هو تجاهلها، أو التظاهر بتجاهلها.

أما الشيء الذي يؤكد طبيعة غورباتشوف العادية، فهو وجهه المستدير، وذقنه المزدوجة الخفيفة، وصفحة رأسه الخالية من الشعر، اللهم إلا من بضع شعرات قليلة خطها المشيب، تنتصب في قمة رأسه، وباستثناء وجهه بلون النبيذ المعتق في جبهته، ولا توجد فيه خصائص مميزة، مثل حاجبين كثيفين، أو تؤلول، وأنف منتفخ، مما يصلح لإلهام رسام كاريكاتور. أما العينان فإنهما تشعلان النشاط في تلك الملامح الهادئة، وتعطيان الجاذبية لإبتسامة مشرقة، يمكن أن تتحول فجأة، التماعاً على شفتين مكتنزتين. وهو يعرف كيف يستعمل عينيه، ويقول غورباتشوف في أثناء محادثته للجماهير، في بعض الأحيان، أنه يستطيع أن يعرف من هو المخلص، بمجرد النظر في عينيه. وكل من يلقاه يتأثر دائماً بنظرته. وينهي

لقاءه بالمصافحة والشد على الأيدي بقوة. ويترك بنظرته التي لا تنسى، والتي يُثَبِّتُها بعض الوقت في الآخرين، يترك أطيب الأمنيات لدى كل واحد منهم حسبما يريد ويتصور. وما كان للعيون التي تحدث بها إلى مستقبليه في براغ، ما كان لها أن تكذب أبداً.

واللغة الروسية، لغة تتحدث بالأيدي والحواجب المقوسة، وهز الرأس أحياناً، من جانب إلى جانب، أو هز الأكتاف. وغورباتشوف أستاذ في لغة الإشارات، فهو يحرك يديه كثيراً، للتعبير عما يريد، كمن يريد أن يضرب الهواء بحركات يديه، بضربات تشبه ضربات الكاراتيه المعتدلة. وهو قد يصالب يديه، كدولاب الأسهم النارية واضعاً الواحدة فوق الأخرى، وقد يمدهما في أحيان أخرى، مديراً كفيه إلى أعلاه، ليعود في حركة هجومية، بعد لحظة، ويشد على قبضته وفي صيف عام ١٩٨٧ عندما دخل قاعة مزرعة ستارنيكوفسكي Starnikovsky ليتحدث مع مربي الماشية، خلال جولته في ريف موسكو، ابتعد عامداً عن صف المقاعد الموجودة فوق المنصة، ليقف إلى جانب المنضدة بحيث يكون حراً في التجاوب مع الحاضرين، وكانت حركته صغيرة إلا أنها كانت ذات دلالة معبرة، بخلاف سابقيه المرضى الذين كانوا بحاجة إلى مقعد متين، ليتمكنوا من الاستعانة به، لإراحة سواعدهم المتعبة.

ربما كانت خطب غورباتشوف المعدة مسبقاً، تبدو للغربيين، طويلة وعقائدية، بطيئة مملة، وهم الذين تعودوا على الخطب السياسية المليئة

بالأقوال الرنانة ، المعدة بعناية ، لتكون صالحة لفترة تلفزيونية ، موسمية معينة . ولكن ، حتى في حال وجود العبارات البيانية الرنانة من أقوال ماركس ولينين المنمقة ، كان المواطنون السوفييت ينصتون إلى غورباتشوف الخطيب المصقع المفوه ، بالمقارنة مع سابقيه ، الذين كان المواطنون السوفييت يغلقون أجهزتهم التلفزيونية ، بمجرد ظهور بريجينيف أو تشيرنينكو ، رغم أن غورباتشوف كثيراً ما يصدمهم ويفزعهم بما يقوله لهم . ففي خطاب له ألقاه في مدينة مورمانسك Murmansk في تشرين الثاني من عام ١٩٨٧ ، مثلاً ، تحدث فيه مع المواطنين ، في موضوع إنهاء دعم المواد الغذائية ، وأشار فيه إلى سلع المخابز التي كانت رخيصة جداً ، حيث قال : «أنتم ترون كيف أن الأطفال يستعملون رغيف الخبز كما لو أنه كرة قدم» .

وغورباتشوف بعد هذا ، ليس من المولعين بالانغماس في العموميات الغامضة . ففي حديثه إلى اللجنة المركزية ، في حزيران من عام ١٩٨٧ انتقى غورباتشوف عدداً من كبار الوزراء والقادة الحزبيين ، ووجه إليهم الانتقاد ، وكان من بينهم رئيس لجنة التخطيط الحكومية القومية ، كما امتدح أفراداً من مزارعي البطاطا ومربي الأغنام ، وحددهم بالاسم ، وذلك لمساهمتهم في برنامجه الإصلاحي . وقد كان لبعض أفكاره جرس لينكولي (نسبة إلى لينكولن) ، لدى البعض في خطابه الذي ألقاه بمناسبة الذكرى السبعين للثورة البولشفية . تحدث غورباتشوف عن الحاجة إلى تطوير الإحساس بمسؤولية الحكم الذاتي في الاتحاد السوفييتي ، وذلك عن طريق «حكومة شعبية ، يحكم الشعب من خلالها ، نفسه بنفسه ولمصلحة الشعب» .

وربما تكون خبرته الخطابية، التي تدرب عليها، في مدرسة حقوق جامعة موسكو الحكومية، في أحسن حالاتها، عندما يتحدث دون الاستعانة بنص مكتوب مسبقاً. وقد حدث أن عمد غورباتشوف في نهاية جولته الزراعية في منطقة رامنسكي، إلى طرح سياسته الإصلاحية البيريسترويكا على أعضاء الحزب العاملين المحليين حيث قال: «نحن نتحدث معاً، ونحن ننظر في أعين بعضنا البعض، وأنا أريد أن أقول مرة أخرى، بأنه ينبغي أن لا يكون هناك تردد، بأننا بحاجة إلى إعادة البناء، حتماً، وما زلنا بحاجة إلى إعادة بناء أنفسنا».

ولا ريب، بأن غورباتشوف ليس بطرس الأكبر الماركسي، المصمم على إكراه العقائديين الحزبيين على تنفيذ التحديث، بحلق ذقونهم وارتداء الملابس الغربية. إلا أنه يعرب، في بعض الأحيان، عن نفاذ صبره من الاحتفالات الفارغة، والقيام بإلقاء الخطب الرنانة. وذلك لأنه يميل إلى قول وعمل ما هو غير متوقع، تاركاً المسؤولين في حيرة واضطراب.

خلال زيارته لمعمل سفن البلطيق، في لينينغراد، في تشرين الثاني من عام ١٩٨٧، فقد حدث أن قام من خلال اجتماع ترحيب قصير، مع مدير المعمل، ليتحدث مع جماعة صغيرة من أعضاء الحزب العاملين، والعمال المتجمعين في الخارج وليقول لهم بفرح: «لقد وجدت الآن الوقت لانتقاد مديركم» قال هذا، بينما وقف إلى جانبه المدير الذي وجه إليه النقد، بنكتته، متجهماً، تبدو عليه علامات عدم الارتياح. وعندما جال غورباتشوف في

أرجاء المصنع ، ·انتصب أحد العمال ، ليلقي كلمة العمال المتجمعين ، وبدأ بإلقاء كلمة الترحيب المعدة مسبقاً ، والتي أعرب فيها عن الرغبة في أن تمضي البيريسترويكا ، بخطا أوسع وأسرع ، فقاطعه الزعيم السوفييتي مداعباً بقوله بالروسية (دافاي ! دافاي !) أي دعنا نفعل ذلك . وهنا انفجر حشد المجتمعين بالضحك . ولم يتمكن المتكلم من شدة المفاجأة من استعادة رباطة جأشه لإنهاء كلمته الترحيبية .

ومن الأسئلة العديمة المغزى ، عن عهد غورباتشوف ، السؤال عما إذا كان يستطيع الزعيم السوفييتي أن يقاوم الإغراء ، باستخدام شعبيته لتدعيم عبادة الشخصية . والجواب عن هذا السؤال في الحادثة التالية ، فقد حدث أن تذمر غورباتشوف كثيراً خلال المؤتمر السابع والعشرين للحزب عام ١٩٨٦ ، وذلك عندما قام مخرج سينمائي سوفييتي بارد بترديد اسم غورباتشوف عدة مرات . وعندما حاول هذا الشخص الإعراب عن شكره مرة أخرى ، بقوله له : « ميخائيل سيرجيفيتش » قاطعه غورباتشوف ، بإشارة سريعة إلى تمرين من تمارين القواعد المدرسية ، قائلاً : « دعنا نوقف إعراب ميخائيل سيرجيفيتش » ، وانفجر الحاضرون في القاعة بالتصفيق والضحك . ومن القصص الواسعة الانتشار التي تروى عنه ، أن الأمين العام الجديد ، اتصل برئيس تحرير البرافدا ، فيكتور أفاناسييف Viktor Afanasyev ليسأله فيما إذا كان يوجد تحت يده أعمال لينين ، وعندما ردَّ عليه الصحفي بالإيجاب طلب منه غورباتشوف الطلب التالي : « أكون ممتناً لو تتحدث عنه وتنقل أقواله بدلاً عني » .

ومنذ ذلك الوقت، اكتفى كتاب التراجم بإضافة معلومات إخبارية محددة، إلى ترجمة حياة غورباتشوف الرسمية، ويذكر بهذه المناسبة، أنه نشرت في الولايات المتحدة مجموعة مختصرة لخطب الزعيم السوفييتي، تحت عنوان: (مهمة غورباتشوف من أجل السلام). نشرتها مؤسسة بيبر جاكس **Paper Jacks**، نيويورك عام ١٩٨٧. وتلاحظ هذه المجموعة باعتزاز، أن مواهب غورباتشوف الطبيعية وعقله المتفتح وانضباطه الذاتي، وطاقته، وحبه للأرض، من المواهب التي ظهرت مبكرة منذ طفولته. ويؤكد كاتب الترجمة «أن غورباتشوف كان قادراً ــ كعامل في رابطة الشباب الشيوعية ــ على التأثير بألمعيته في الناس... وأن أصالة فكره وسحره، هي التي كانت تجذب الناس إليه». وأشار الزعيم السوفييتي إلى ما نُشر عنه في حديثه إلى القرويين في المقر الرئيسي لمزرعة المقاتلين الجماعية **Borets** خارج موسكو فقال: «ربما تتضمن الطبعة المقبلة أفكار غورباتشوف الخاصة عن أولئك الذين يهتمون فقط بالصورة»، ويضيف: «من السيّئ أن تروا أن البعض لا يعملون حقاً بجهد، ويحظون بمظهر خاص من الأناقة والجاذبية، وهذا ما يجعلكم تتساءلون ماذا تفعلون بمثل هذا الشخص. ومن الواضح للجماهير دائماً، أن هذا يحصل عندما يبدأ الشخص بفقدان اتصاله بالجماعة والمجتمع».

وغورباتشوف نفسه، يمكن أن يتهم، ولو إلى حد ما، بأنه أنيق وبهي المظهر، فهو يلبس لباساً لائقاً، محافظاً، ومن النوع الغالي الثمن. فهو يملك مجموعة من البزات الجيدة، المصنوعة خارج البلاد، في إيطاليا،

وانكلترا. وكان يتعامل لدى شركة جيفز وهـوكس Gieves&Hawkes الانكليزية المشهورة في لندن، كان قد ذكر لأحد معارفه، أنه أخذ قياسات لغورباتشوف لعمل بزتين، وذلك خلال زيارة غورباتشوف لانكلترا عام ١٩٨٤، ثم جرى إرسالها إلى موسكو، بعد وقت قصير. علماً أن أسعار خياطة البزات لدى جيفز وهوكس هي أسعار مذهلة تصل إلى (٦٠٠ و ٧٠٠) دولار، مما يساوي أجور عدة أشهر لكثيرين من العمال السوفييت.

ورغم سمعة الألبسة السوفييتية المتواضعة في الخارج، فإن غورباتشوف ربما لا يحتاج إلى صنع بزاته في الخارج، لأنه يوجد عدد صغير من مؤسسات الخياطة اليدوية الخاصة القليلة، التي ربما تقدم خدماتها للنخبة، هذا عدا مجموعة الامتيازات المخصصة لكبار المسؤولين في موسكو. وإذا بدا أن بزات غورباتشوف أفضل من بزات بريجينيف وتشيرنينكو ـــ كما يقولون ـــ فربما كان ذلك لأن غورباتشوف يعتني بخياطة ألبسته. ولسنوات قليلة لم يكن الرجال السوفييت يهتمون بألبستهم بصورة خاصة، حيث كان يعتبر أي ميل أو رغبة في هذا الاتجاه، استهتاراً وقلة رجولة. ولعل أحد مميزات عصر غورباتشوف هو الظهور المفاجئ للمسؤولين الأكثر شباباً، والأفضل ثقافة، والأكثر أناقة في الاتحاد السوفييتي.

ويحتفظ الأمين العام، بساعة ذهبية ستنلس ـــ ستيل ماركة رولكس Rolex ثمنها ألف دولار. وخلال زيارة غورباتشوف لباريس عام ١٩٨٥، شوهد وهو ينتعل حذاء جيد جداً، لا يحمل في نعله أية آثار استعمال، مما

يشير إلى احتمال أن يكون قد اشتراه خلال رحلته. وربما كان غورباتشوف يرسل قمصانه الخارجية والداخلية إلى مصبغة خاصة قرب فندق اوكرانيا Ukraine في موسكو، المصبغة التي تقدم خدماتها إلى كبار المسؤولين. ويفضل غورباتشوف القمصان البيضاء المنشاة جيداً، ويظن أنها من صنع سوفييتي، مع احتمال أن يكون قد انتقى بعضها من القمصان الأجنبية خلال رحلاته. وإن إحدى ملبوسات الأمين العام هي دون شك، روسية الصنع، وهي ربطات عنقه، الحائلة اللون، التي تشبه المعدن تقريباً، ويعرف السوفييت عموماً بهذه الربطات المتميزة.

وفي يوم نموذجي من حياة الأمين العام، يترك غورباتشوف مكتبه ويقصد بيته، حوالي الساعة السادسة مساء، وفي بعض الأحيان، يتأخر عن هذا الموعد بسبب اجتماع المكتب السياسي يوم الخميس، حيث يستمر الاجتماع إلى وقت متأخر فلا يشاهد موكبه منطلقاً باتجاه كوتوزوفسكي عائداً إلى بيته حتى الساعة التاسعة ليلاً، وربما بعد هذا الوقت. ويحمل غورباتشوف معه العمل إلى المنزل، حتى في الأيام التي يغادر فيها مكتبه في الأوقات العادية. أما في الصيف، فإنه يأخذ عطلة طويلة، مدتها نحو خمسة أسابيع، كما حصل عام ١٩٨٧، ربما أمضى بعضها في موطنه، الذي يعتبر منتجعاً حسناً لقضاء العطلة فيه. وفي أيام العطلة، يقدم له مساعدوه، المعاملات بانتظام، التي يعيدها بدوره إليهم بعد أن يطّلع عليها. وفي الفترة التي مرت، قبل مؤتمر قمة واشنطن، كان كل واحد في المكتب السياسي

يعمل مرة سبعة أيام في الأسبوع. أما في الأحوال العادية فإن غورباتشوف يعمل ستة أيام في الأسبوع ويعطل يوم الأحد.

أما عن هوايات غورباتشوف، فلا يعرف عنها الكثير، فيما عدا حضوره المسرح مع رايسا، ومع ذلك فقد حاول الأمين العام أن يتحدث عن موضوع هواياته، ومن خلال مقابلة مع الصحيفة الإيطالية يونيتا L'Unita وذلك عام ١٩٨٧، عندما قال: «أما بالنسبة لأوقات الفراغ، فليس لدي أي وقت الآن، وأنا لست وحيداً في هذا، إنما جميع أعضاء القيادة السوفييتية كذلك، وهذا ليس طبيعياً، إنما هو أمر مفروض، بسبب ضيق الوقت، والأوضاع التي تشبه ظروف الثورة، عندما يتوجب على المرء أن يعطيها كل ذاته، دون النظر إلى أي اعتبار آخر». وربما كان غورباتشوف قد أدرك أنه ذهب إلى أبعد مما ينبغي، فلم يجب على السؤال، وختم كلامه بقوله: «وكما ترين، أننا لم نستطع الحديث عن الاسترخاء ووقت الفراغ».

ولغورباتشوف ابنة، اسمها (ايرينا Irina) من مواليد ١٩٥٩، وهي طبيبة، متزوجة من طبيب، وله حفيدان معروفان. أما لأي مدى يرعى غورباتشوف أسرته في بيته، فإن هذا يمكن تقديره من خلال بعض الأشياء التي لا تعرف بالتأكيد. اسم زوج ايرينا، فقط أمكن معرفة الاسم الأول لزوجها وهو أناتولي Anatoli، وكذلك اسم الحفيد فقد ذكر أنه اوكزانا Oksana أو كسينيا Xenia. ويرجح رجال المخابرات الغربيون أن الاسم الثاني هو الصحيح كسينيا. أما عمرها فربما من مواليد ١٩٨٠. أما عن جنس

واسم الحفيد الثاني (فقد ذكر غورباتشوف باعتزاز، للرئيس السابق للولايات المتحدة جيمي كارتر، الذي زار موسكو في صيف ١٩٨٧، أنه ولد له حفيد، إلا أنه لم يزد على ذلك شيئاً آخر).

والحقيقة، أنه بالنسبة لرجل يقود إحدى أعظم قوتين في العالم، وقد قدم في المحادثات السوفييتية الرسمية، مقياساً جديداً من نوعه للانفتاح، فإن ما يعرف عن عاداته الشخصية، أو كيف يمضي أيامه، وهو قليل نسبياً، ولكن مع هذا، فإن الاتحاد السوفييتي، هو غير الغرب، حيث أن الحياة الخاصة للأشخاص العامة، سواء أكانوا سياسيين، أو من المعنيين بالشؤون الشعبية، تعتبر مسألة مسلية للصحافة. وأن الكثيرين من المواطنين السوفييتي لا يهتمون بصفة خاصة، بمثل هذه الأمور عندما تتعلق بغورباتشوف، حتى أن بعض الناس يعتبرون مثل هذا الفضول أمراً معيباً.

إلا أن المواطنين السوفييت يمكن أن يكونوا معذورين، إذا هم راقبوا صوت موكب سيارات الزيل الأربعة المنطلقة باتجاه الغرب، حيث ضاحية أو منتزه كوتوزوفسكي بروسبكت Kutuzovsky Prospect، منطقة الداتشا، وهي مكان سكن الرئيس غورباتشوف، وذلك في عتمة الليل، لأن بعضهم، قد يكونون يفكرون في اليوم الذي قضاه زعيمهم، والأعمال التي قام بها في مكتبه، ويتساءلون، هل عساه أصاب نجاحاً في مخططاته الهادفة إلى إعادة بناء الاقتصاد السوفييتي، من شأنه أن يؤدي إلى مزيد من الانفتاح الحكومي، وبالتالي تطوير نوعية الحياة بالنسبة لطبقة العمال

المتوسطة؟ وربما كان ثمة مواطن آخر من سكان العاصمة يتساءل أيضاً، عن نوع الحياة التي يتطلع غورباتشوف إلى تحقيقها لوطنه، في نهاية المطاف، وما إذا كان هذا المواطن سيتمتع هو أيضاً، في يوم من الأيام، ببعض الرفاهية والامتيازات والعلاوات التي يتمتع بها قائده؟

الفصـــل الســابــع

رايســـا

إن الزيارة التي قام بها الأمين العام للحزب الشيوعي السوفييتي، السيد ميخائيل غورباتشوف والسيدة حرمه رايسا، للمملكة البريطانية عام ١٩٨٤م، لفتت الأنظار أنظار الغرب للمرة الأولى لتلك الشخصية القائدة الفذة ذات الروح المتسامحة. في إحدى الأمسيات وخلال تناول طعام العشاء مع مارغريت تاتشر، دار الحديث حول موضوع الطبقة العاملة إجمالاً، حيث أعلن الرئيس غورباتشوف أن الجميع في الاتحاد السوفييتي ينتمون لهذه الطبقة بقوله «نحن كلنا طبقة عاملة»، إلا أنه قوطع من قبل زوجته رايسا بقولها «كلا، نحن لسنا كذلك» مشيرة إلى الدور القيادي الذي وكّل به. ارتد الرئيس غورباتشوف عند سماع كلمات زوجته، ورد عليها

سريعاً موافقاً «ربما أنك على حق»، «وربما أن هذه العبارة ليست سوى واحدة من أكثر العبارات المتداولة في وطننا».

رغم كل الأحداث التي تستحق الذكر خلال هذه الزيارة، إلا أن تلك المبادلة بين القائد وزوجته رايسا كانت الأكثر لفتة للأنظار، حيث كان يكفي أن تدهش الجميع عندما عارضت زوجة عضو المكتب السياسي السوفييتي زوجها بشكل علني، وهو شيء لم يكن في الحسبان، لأنه أمر غير مسموح به خصوصاً أمام العناصر الأجنبية. لم تكتف رايسا بمعارضة زوجها فقط، بل تمادت لأكثر من هذا حتى استطاعت كسب رضاه وتسامحه. كان هذا مؤشراً للعالم الذي كان معتاداً على تجاهل زيجات قادته، بأن يبدأوا بإعارة الانتباه إلى رايسا ماكسيموفنا غورباتشيف، تلك المرأة المعجزة، صاحبة العقلية الذاتية، التي لا تختفي في ظل وكر زوجها. وخلال حفلة العشاء الساهرة مع السيدة تاتشر، لوحظ أن السيدة غورباتشوف كانت تتصرف بطريقة مألوفة تماماً في عالم الغربيين، إلا أنه كان نمطاً جديداً بالنسبة للاتحاد السوفييتي. واستطاعت رايسا الدخول إلى عالم العلاقات الاجتماعية، فغطت جميع اللقاءات التي قامت بها خلال رحلتها من مدينة مورمانسك **Murmansk** وحتى بوخارست **Bucharest**. وكانت تشرف على اجتماعات القمة خلال تناولها الشاي مع نانسي ريغان **Nancy Reagan**، وتقطع الشريط لافتتاح معرض للصور الملونة لفنانين أمريكيين في موسكو، وتتحدث بثقافة واسعة عن الفن والأدب أمام ممثلين مختصين أجانب في هذه المجالات. كما بدأت تساعد في توطيد روح الثقة والعزم في

نفوس الشباب، مما كان له دور كبير في تطوير مجال الفن في الاتحاد السوفييتي. وبهذا استطاعت رايسا الانغماس تماماً في مجال الحياة الاجتماعية، لتصبح المرأة الأكثر لفتاً للأنظار منذ أيام المرأةالسوفييتية الأولى التي اشتركت في تشكيل الثورة.

كل هذا فتح باباً للصراعات والنزاعات الداخلية، بين مؤيد ومعارض لسياسة رايسا وتصرفاتها. فدوت في أرجاء موسكو القصص المتحدثة عن ولع رايسا بالفراء والمجوهرات والأزياء الراقية، واهتمامها بالمظاهر الحضارية الساطعة، إضافة لتأملاتها الواسعة وقوتها السياسية التي تمتعت بها ومرّنتها خلال همسها في إذن زوجها القائد السوفييتي. وأهم ما أكد على ذلك، أي على اهتمام رايسا بالمظاهر الباهرة هو شريط الفيديو الذي سجل عنها والذي دارت الكثير من الأحاديث عنه في موسكو. زعم النقاد فيه أن رايسا تنتمي للطبقة البرجوازية، وأكد على ذلك الصور التي التقطت لها وهي تبتاع مشترياتها في أرقى محلات لندن خلال زيارة عام ١٩٨٤ بواسطة شيك أمريكي مضمون. كل هذا لم يكن كذباً أو افتراء، حيث أن الشيك كان مسجلاً باسم رايسا. وكذلك فقد اعتادت رايسا حقيقة الخروج كل يوم لابتياع كل ثمين من أحدث الأزياء والمبتكرات، إلا أنه ما من أحد في موسكو كان على علم بوجود مثل هذه الشريط، حيث تمّ إخفاء أمره حتى عن أنظار المراسلين السوفييت. ولكن رايسا لم تسلم من القيل والقال، ولم تبق قصة الشريط مخيفة طويلاً، فأصبح دليلاً على الشبهة العامة. فقال أحد نقاد رايسا للإشارة إليها بأنها شبيهة بالملكة الروسية سزارينا Czarina.

وهكذا أثارت العديد من الاتهامات الهامسة من قبل ذوي النعرات القومية في الاتحاد السوفييتي، محتجين بمضايقة الزوجة لزوجها السكرتير العام ومواطنيه، حتى غدا الأمر شائناً افترائياً لامرأة بارزة لها أثرها. بتلك الطريقة جاء اتهام إحدى الوزارات الأجنبية الرسمية لرايسا عندما رافقت زوجها لاجتماع القمة عام ١٩٨٦ مع رونالد ريغان Ronald Reagan في ريكيافيك ـــ نانسي بقيت في منزلها ـــ (لماذا تريد رايسا دفع نفسها للصف الأمامي؟ ومن اختارها لتمثل الاتحاد السوفييتي؟) الإجابة على هذا السؤال واضح تماماً: زوجها، السكرتير العام.

لم يكن هذا النقد هو الوحيد من نوعه بل ظهرت انتقادات أخرى عكست الغيرة الواضحة. إلا أن رايسا قد لا تكون تلك المرأة المتوحشة كما وصفتها الصحف البريطانية خلال زيارة لندن عام ١٩٨٤، بل على العكس تماماً فهي امرأة رقيقة، جميلة، ذات شعر أسمر مائل للحمرة، تلبس ثياباً غاية في الأناقة والتناسق، والتي هي فوق مستوى إرادات وأحلام معظم النساء السوفييت. وفي أغلب الأوقات يبدو شعورها في محبتها للأزياء والأناقة غير محبوب لبعض مواطنيها الذين أعلنوا أكثر من مرة عدم رضاهم عن أعمالها في راديو (صوت موسكو الفتية) ضاربين مثالاً عن هذا في الزيارة التي قام بها غورباتشوف حديثاً لميناء مدينة مورمانسك، فقد شوهدت رايسا في لباسين متمايزين في يوم واحد: «هذا ما نقول عنه O.K بالنسبة لباريس ولكن ليس بالنسبة لمورمانسيك التي يحصل الناس فيها على اللحم والزبدة مرة واحدة فقط شهرياً.

ولنكن نحن عادلين بجهتنا، فرايسا تمثل مصدراً وإلهاماً للفتنة للعديد من النساء السوفييت «سيداتنا الأوائل كن جميلات، لكنهن بَدَوْنَ كالجدّات» قالت ايرينا سالغوس Irina Salgus، ٥٩ سنة، المُدرِّسة في موسكو. «رايسا هي المرأة الأولى لدينا التي بدت كامرأة متحضرة. فنحن جميعاً ندهش لأسلوبها في ارتداء ملابسها. فعندما تقوم بإحدى رحلاتها نتلهف على الجلوس أمام التلفاز لرؤية ما تلبسه، وبذلك نعلم بتغيرات الأزياء المعاصرة. نحن جميعاً نريد أن نكون نسخة عنها». إن بعض المعلقين يظنون أنه ليس من الحسن ظهور رايسا مع زوجها في كل مكان، فترد رايسا على التعليق قائلة: «قد يكون هذا رأي سائق عربة خيول من أجدادنا، ولكن الجيل الجديد يرحب بذلك ويقول له O.K» وعلى الرغم من هذا فالعديد يقول: «أنه ليس عليها التصرف كالسكرتير العام، وعلى المرأة أن تعرف مكانها».

وفي رأي بعض المحررين الأجانب الذين قاموا بمقابلتها، فإن رايسا لتبدو أكثر جاذبية مما هي عليه في الصور بابتسامتها الدافئة وبشرتها الخزفية. إنها وبوضوح تبدو أكثر عصبية وأقل راحة من زوجها القائد في المقابلات الاجتماعية. إن نفسها قد طبعت بالروح الطيبة، فقد ظلت تكرر في ذهنها أصوات القبعات الكادحة، فئات العمال خلال مرافقتها لزوجها ميخائيل في زيارة لمنطقة زراعية قرب مدينة براتيسلافا Bratislava (تشيكوسلوفاكيا) وهي تدعو قائلة «شكراً لكم على هذه الزيارة ـ شكراً لكم على هذه الزيارة». إن رايسا وبالرغم من عدم قربها لزوجها في معظم زياراته حيث

تقف على بعد منه إلا أنها كانت دائماً عاملاً حثيثاً وإيحاءً له. فصدف مرة أن كانا يستعدان لاستقلال السيارة بعد مرورهما عبر جموع الجماهير أمام مقابر الشهداء في براغ، حيث لاحظت رايسا أماً ترفع ابنها في اتجاههما، ولم ينتبه القائد العام للطفل، فخاطبته رايسا مشيرة إليه «ميخائيل سيرجيفيتش» وأرجأ انطلاق السيارة، وتقدم القائد وحمل الصبي في كلتا يديه ودعاه لزيارته في موسكو.

إن معظم النقاد السوفييت يجمعون بأن رايسا ليست سوى شكلاً متناقضاً، ولذا فهم يعاملونها بشيء من الحرص والحذر. فصورها تنشر في الصحف باستمرار واقفة إلى جانب زوجها. والتعليق في الأعلى هو على الشكل (السيدة غورباتشوف وزوجها)، وكم من مرة تساءل التلفزيون السوفييتي فيما إذا كان غورباتشوف يعرض مناقشاته السياسية الصعبة المنال على رايسا. في لقاء دار في نهاية عام ١٩٨٧ بين السكرتير العام وتوم بروكا Tom Brokaw المراسل من وكالة الـNBC الأمريكية، سأل الأخير فقال: «هل تذهب للمنزل مساء وتتناقش معها في الصعوبات السياسية والسياسة العامة، وما يستجد من أمور في هذه البلاد؟» أجاب غورباتشوف: «إننا نناقش كل شيء». وعندما تمَّ نقل اللقاء وعرضه على الشاشة السوفييتية، ظل السؤال الأول المقدم من بروكا، ومحتفظاً بأصالته فيما إذا كان غورباتشوف يناقش زوجته في مسائل الحياة العامة. أما السؤال الثاني فقد حذف بالتأكيد، والسبب هو أن العارضين السوفييت صدموا عند سماعهم

أن غورباتشوف يأخذ رأي زوجته في (القضايا السوفييتية على المستوى العالي).

فتلك القضايا يجب عدم مناقشتها مع زوجة، حتى ولو كانت السيدة السوفييتية الأولى. فصحيح أن النساء قد منحن حق المساواة القانوني والسياسي مع الرجال أيام الثورة البولشفية، وصحيح أيضاً أن هذا الحق بقي محفوراً في ذهن الرأي السوفييتي، ولكن في الحقيقة فإن الاتحاد السوفييتي هو مجتمع تغلب فيه الذكورة على الأنوثة، وتذعن النساء فيه لأزواجهن أكثر من أي بلد اشتراكي آخر. فالنساء السوفييت يعملن خارج منازلهن أعمالاً شاقة لا تعرف في الغرب. بدأ هذا العذاب منذ أعمال التدمير، والحروب الداخلية، وعمليات التأميم والتصنيع عام ١٩٣٠، تلا ذلك بداية الحرب العالمية الثانية، والتي كانت نتيجتها قتل الملايين من الرجال في ساحات المعارك، ونفي الآلاف منهم خارج البلاد. إن بعض الأخصائيين يعلنون أن أكثر من ٨٥٪ من النساء اللواتي تتراوح أعمارهن بين ٢٠ ـــ ٣٥ سنة يعملن طوال النهار. وهكذا فإن أكثر من النصف هن في طوق العمل في مجالات التجارة والخدمات الاجتماعية. فالنساء السوفييت يشغلن العديد من الأعمال الثقيلة المتنوعة، ويتقنّها. ففي محلات المواد التموينية هناك النساء وليس الرجال، فهن يحملن أفخاذ الأبقار وأكياس البطاطا. وفي الجمعيات السكنية هناك النساء أيضاً يرفضن أن يقعن تحت أقدام الخديعة. إن أكثر ما يجذب انتباه زوار الاتحاد السوفييتي هو مشهد النساء المسنات اللواتي يتحدين البرد القارص وهن ينظفن

بأكمامهن المرفوعة ممرات الشوارع من الجليد والثلج . إن القانون السوفييتي ولا شك يحمي النساء من بعض الأعمال الصناعية الخطيرة ولكن هذا لا ينفذ دوماً . ففي عام ١٩٨٥ قامت مجموعة من النساء العاملات في مصنع للصناعات التعدينية بإرسال رسالة إلى صحيفة (المرأة العاملة) يشكين حملهن لـ ٢٥٤ طناً من المعادن يومياً ، وهن لا يتمتعن بالمساواة في المنزل . في أغلب البلدان الغربية الرجل لا يزال هو المعيل الرئيسي للعائلة ، لذا فمقدار ما يدفع من رواتب للنساء يقل ٧٠٪ عن رواتب الرجال كما تدل الإحصاءات والدراسات في الولايات المتحدة. إن أغلبية الأطباء والمعلمين السوفييت هم من النساء إلا أن رواتبهم ضئيلة ، أما الرياضيون وموظفو الاستعلامات ومرشدو المدارس فهؤلاء أغلبيتهم من الرجال .

وكما في المجتمعات الأخرى فإن المرأة السوفييتية تقع عليها مسؤولية شراء المواد التموينية ، والإشراف على المنزل وتدبيره وتربية الأطفال . وكما هو متداول في الاتحاد السوفييتي يقوم الرجال بإهداء أمهاتهم وزوجاتهم وبناتهم باقات من الورود في يوم المرأة العالمي (٨ آذار وهي عطلة رسمية في الاتحاد السوفييتي) فالرجال قليلاً ما يعملون في المنزل ، والنساء على الرغم من عملهن طوال النهار سواء في المنزل أو مكان العمل إلا أنهن يستطعن التوفيق بين كل هذا . ففي كتاب طبع عام ١٩٨٥ للكاتب البريطاني مارتين والكار Martin Walkar والذي تحدث فيه عن الاتحاد السوفييتي (The Waking Giant) قائلاً : «إن المرأة السوفييتية تقضي حياتها هائجة مضطربة ، فهي تستيقظ باكراً لتحضير الفطور ، وتصطحب طفلها لدار الحضانة ، ثم

تذهب للعمل وتستغل ساعة الغداء لتتسوق، وأحياناً تأخذ في سبيل ذلك ساعة من ساعات العمل، وتعود بعدئذ لتأخذ طفلها وتحضر وجبة العشاء، ومن ثم تنظف الصحون والأطباق، وهكذا حالها دائماً. والتسوق هو أكثر ما يسبب ألماً في الرأس».

إن معظم العائلات الروسية تمتلك سيارات خاصة، إلا أن النساء لا تقودها إلا بصعوبة فتحبذ السفر بالباصات، وتلك مشكلة أخرى، فهي دائمة الازدحام، والركوب في الترام يعني ساعات من الاهتزاز، وليست تلك نهاية المشكلة، فالمخازن أيضاً مزدحمة، دوماً فيها الدفع والشد، كما أن نظام التسوق في البلاد يجبر المرء على الوقوف في الطابور ثلاث مرات لشراء غرض واحد. فهناك دور لاختيار السلع وآخر لدفع السعر وثالث للاستلام. والبائع ليس مسؤولاً عن تغليف هذه السلع فتضطره المرأة السوفييتية لحمل أكياسها الخاصة المسماة **Avoska**.

إن حياة المرأة في روسيا تمنحها القليل من الوقت للمشاركة في القضايا العامة، فربع أعضاء الحزب الشيوعي السوفييتي فقط هن من النساء المؤهلات لمناقشة القضايا العامة. ومن الجدير بالذكر أن عدد الإناث يتناقص بشدة في الطبقة البيروقراطية السوفييتية، وأن النساء قد مثلن جيداً لدى السلطة التشريعية، وأن ٥٪ فقط من ممثلي الحزب هم في وضع القيادة من زوجاتهم كما هي حال السكرتير العام. والكسندرا بيريوكوفا **Alexandra Biryukova** أصبحت في عام ١٩٨٦ المرأة الأولى التي خدمت قضايا وطنها

طيلة خمسة وعشرين عاماً، بين أحد عشر سكرتيراً للحزب المركزي للسكرتاريا (عملها كان الإشراف على البضائع الاستهلاكية والصناعية الخفيفة) حيث لم يكن هناك عضو نسائي في المكتب السياسي الحاكم منذ ايكاتارينا فورتسيفا Ekatarina Furtseva في بداية الستينيات. ولم تكن النساء قد تدخلن بعد في رئاسة الوزراء، ولم تكن الوزراة تولي اهتماماً كبيراً لاحتياجات النساء الأساسية. فالفوط النسائية على سبيل المثال: لم تكن تصنع في الاتحاد السوفييتي، ورغم التحذيرات الطبية، فإن حشوتها الخارجية بقيت سميكة بشكل غير مريح. فالنساء يستعملن لهذا الغرض قطع قماش قطني عادي. ولم يقتصر النقص على هذا فقط، بل امتد لأمور كثيرة أخرى.

لم تكن هذه حالة النساء العاديات فقط، بل أيضاً كانت حالة نساء الزعماء مشابهة لذلك، رغم الانقلاب الحاصل في الثورة البولشفية، والذي ضم بعض النساء البارزات المدافعات عن حقوق المرأة. وكانت منهن الكسندرا كوللونتاي Alexandra Kollontai، ممثلة ومتحدثة باسم حقوق المرأة وأول سفيرة نسائية للنرويج في العشرينيات. ونادايجدا كروبكسايا Nadzhda Krupskaya زوجة لينين، كانت الممثلة الأولى للحقوق النسائية بالإضافة لكونها كاتبة وباحثة اجتماعية، فكانت قد كونت حول نفسها حلقة الشهرة بعكس زوجتي جوزيف ستالين اللتين كانتا تلمحان بصعوبة في الحياة الاجتماعية. ومهما يكن فإن زوجات الكرملين لم يكم دورهن إلا دوراً ثانوياً في اتخاذ القرارات. ولقد كانت كل من نينا خروتشوف Nina

Khrushchev وفيكتوريا بريجينيف Viktoria Brezhnev وآنا تشيرنينكو Anna Chernenko دليلاً قاطعاً على انغماس زوجات الكرملين في الحياة الاجتماعية ، ولكن على الرغم من سيمتهن الطيبة ووجهن اللطيف ، فإن مظهرهن الخارجي كان أشبه بمظهر الجدة المريضة المسماة بالروسية بابوشكا babushka . وقد صيغت في بريطانيا عام ١٩٨٧ نكتة غير لطيفة تقول أن رايسا غورباتشوف هي أول زوجة لقائد سوفييتي تزن أقل منه . فنظيرتها تاتيانا أندروبوف Tatiana Andropov لم تكن تظهر للعيان بسبب سمنتها الهائلة حتى يوم وفاة زوجها يوري عام ١٩٨٤ حيث كان هذا أول ظهور لها أمام العامة .

على كل حال فإن رايسا غورباتشوف هي ممثلة النوعية الجديدة للنساء السوفييت المثقفات والمحترفات في عملهن . فهي امرأة متفهمة جريئة كزوجها ، ولم يكن تحصيلها الأكاديمي سوى عاملاً مساعداً لزوجها . ومن الجدير بالذكر أن الحكومة السوفييتية لم تسمح بصدور السيرة الرسمية لحياة رايسا ، حتى قابل زوجها رونالد ريغان للمرة الثالثة خلال لقاء واشنطن عام ١٩٨٧ . فجاءت عملية النشر دقيقة جداً ، واقتصرت على بضع جمل جعلت من سيرة زوجها ذات مأخذ إيجابي .

من المعروف الآن أن اسمها الحقيقي هو رايسا ماكسيموفنا تيورنيكو Raisa Maximovna Titorenko في سيبيريا . وهناك افتراضات قائلة أن أصلها ليس روسياً ، مما أثار الخلافات العديدة التي حلت في منتصف عام

١٩٨٧ من خلال ضغطها على زوجها لكي يولي اهتمامه للمظاهرة التي قام بها التتار العائدون لأصل روسي، والذين هاجروا نحو سيبيريا مع ستالين في الأربعينيات، إبرازاً لسلطتهم القانونية. فاهتمامها بهذا الموضوع هو دليل قاطع على أصلها التتاري، وللقضاء على أي شك دائر حول خلفية أصالتها، أوضحت رايسا في الخطاب الذي ألقته في عيد الاحتفال ليوم الثورة في الساحة الحمراء في موسكو في شهر تشرين الثاني عام ١٩٨٧ قائلة: «أنا روسية خالصة».

الناس الذين عرفوا رايسا كطالبة في جامعة موسكو عام ١٩٥٠، زعموا أنها من ذوات الأصل الأرستقراطي الحاكم. فأحد الطلاب أوضح أن والدها قد يكون البروفسور العالم الاقتصادي السوفييتي مكسيم تيتورينكو Maxim Titorenko في العشرينيات، الذي نفي لسيبيريا من قبل ستالين، إلا أنه ليس هناك من شواهد تثبت هذه النظرية. إن سيرة حياة رايسا تنص على أنها ولدت في بلدة سيبيريا التابعة لمقاطعة رويت سوفسك في ألتاي كرايAltai Krai، وأن والدها كان مهندساً في السكك الحديدية.

أما سيرتها في الكرملين فلا تعطي تاريخاً دقيقاً لميلادها. وما سجل هو نهاية عام ١٩٣٤، إلا أن السياسيين الذين اطّلعوا على أوراقها قبل أن يصبح غورباتشوف السكرتير العام، زعموا أن رايسا مولودة في كانون الثاني عام ١٩٣٢، وتبقى سيرتها غامضة تماماً فيما إذا كان لها أي خلفيات بسبب مركز زوجها. وزوريس مدفيديف العالم البيولوجي السوفييتي المقيم في

بريطانيا، والذي بقي على صلة مع قضايا وطنه عبر أخيه روي، أكد أن لرايسا أختاً متزوجة من شخص اسمه شيباكين Shipakhin الذي أصبح بعدئذ أخاً لغورباتشوف في الحكم. ففي الكتاب الذي أصدره مدفيديف عام ١٩٨٦ تحت اسم غورباتشوف، قام بتوضيح حياة شيباكين الذي كان بيطرياً خلال الحرب العالمية الثانية. وفي عام ١٩٦٥ عين سكرتيراً لمدينة صغيرة في ستافروبول كراي قبل أن يعين غورباتشوف عضواً للحزب فيها. وهكذا أوضح الكاتب أن شيباكين أصبح من أقرب المقربين لغورباتشوف بعد تعيينه من قبل الحزب مسؤولاً في إحدى القضايا الحزبية عام ١٩٧٧. ومن ثم تعيينه في مركز قيادي هام للتنظيم الاستهلاكي. وهكذا أقفلت الأخبار عن عائلة رايسا.

في بداية الخمسينيات كانت رايسا طالبة فلسفة في جامعة موسكو، مظهرها الجيد، وحسن سلوكها، وثقافتها الواسعة جذبت الانتباه، وحازت على الإعجاب. وكان من بين المعجبين شاب من الأرياف اسمه ميخائيل غورباتشوف، كان يدرس القانون ويسكن في الطابق ذاته في سكن الطلبة ستروميتكا. ورايسا بدورها انجذبت نحو صراحته وأفكاره الواسعة، والمهام السياسية التي كان يمارسها كقائد للمنظمة الشبابية الكومسومول. وكما علم مسبقاً فقد كان كل منهما يعلم ولع الآخر به. وعلى الرغم من هذا فقد كان يلتقيان بندرة في المناسبات، وبعدها تزوجا في بداية عام ١٩٥٤ وتخرجا في العام التالي، ومن ثم انتقلا للعيش في منزل غورباتشوف في منطقة ستافروبول

النتيجة التي توصلت إليها رايسا «جذبت الانتباه لمجموعة من القضايا التي لا توافق الآداب الاجتماعية الروسية، ولمس في عبارات الأجور تمييزاً طبقياً، فالعامل الصناعي يميز عن المزارع التعاوني».

كل هذا الدليل واضح على ما سماه الباحثون أنه انتماء لرايسا بأفكارها الجازمة لأفكار كارل ماركس. وفي أثناء قراءته لإحدى مقالات رايسا، أعلن هذا القارئ الأمريكي أن رايسا قد انزعجت عند اكتشافها أن نصف القرى التي زارتها يتابع فلاحوها الاحتفال بالمراسيم الدينية لعيد الميلاد وعيد الفصح ويوم الثالوث، كما انزعجت لأسباب غير واضحة من إعجاب الفلاحين بلعبة الدومينو. فهي من جهتها لم توافق على هذا بل دعت وأوصت (بمراسيم التثقيف) كزيارة المسارح والعروض ذات المغزى الجيد لتصرف عقول المزارعين عن الدين والدومينو. فقال هذا القارئ الأمريكي معلقاً على بحثها بأنه: «غاية في التأديب والجزالة».

ساعدت تلك الموضوعات رايسا دون شك في دفع عملها الأكاديمي نحو القمة. فعندما عاد غورباتشوف لموسكو عام ١٩٧٨ فازت بالمركز الرئيسي كمعيدة في فلسفة ماركس ــ لينين، وحصلت على الوظيفة في جامعة موسكو. وهكذا نقل غورباتشوف إلى موسكو مسؤولاً ممثلاً للمزارعين، ووصل بعد أقل من سنتين إلى منزلة العضو في المكتب السياسي الحاكم. وعلى كل حال فقد تابعت رايسا التدريس في جامعة موسكو حتى عين غورباتشوف سكرتيراً عاماً للحزب الشيوعي السوفييتي عام ١٩٨٥.

عندها فقط سلمت عملها الأكاديمي، وانتقلت لمركز جديد ملأ وقتها، وأطلق عليها اسم (السيدة الأولى).

إننا لا نعلم شيئاً محدداً عن حياة رايسا التدريسية، ولكن بإمكاننا أن نرسم صورة المكان الذي عملت فيه. فجامعة موسكو هي منطقة عرض لنظام تثقيفي لنظام سوفييتي تضم طلاباً من أبرز العائلات المثقفة، تضم ٢٤ ألف طالب من مختلف المستويات مثل ميخائيل غورباتشوف ورايسا تيترينكو عام ١٩٥٠، ولكن نسبة معظم الطلاب فيها هم من أبناء وبنات الحزبيين غير الاعتياديين أي هم أولاد الثوار الروس. فالطالب الضعيف على حد القول يستطيع دخول الجامعة نتيجة لمكانة أهله، لكن شروط النجاح تتطلب عملاً جاداً. فالطلاب يعلمون بأن أداءهم وعملهم في الجامعة وتلقيهم للتوجيهات من قبل الأساتذة سيحدد منزلتهم للمستقبل.

ومن أهم المحاضرات في جامعة موسكو فلسفة ماركس ـــ لينين. فكل طالب يتابع دراسته العليا في أي كلية يجب عليه الإطلاع عليها، ولا أحد يحصل على درجة النجاح حتى يمتحن في هذه المادة، إضافة لوصوله لمعدل النجاح في المواد الأخرى، فالعلامة العظمى هي من (٥)، ومن تنزل علامته عن (٤) خلال العمل الأكاديمي يفقد حق المنحة التي تغطي مستلزمات الطالب، ومهما يكن فدرجة النجاح هي من (٣).

محاضرات الفلسفة الماركسية ـــ اللينينية مشابهة للمواضيع الفلسفية

وهذا يؤيد قولها عشية تناول طعام العشاء مع تاتشر في كونهم ليسوا من الطبقة العاملة، وهذا لم ينتشر بالتأكيد في الصحافة السوفييتية.

هكذا كانت زيارة لندن من أهم عوامل تفتيح الذهن والفكر لدى رايسا، وإليكم بعضاً من صورها المتحضرة التي التقطت لها:

١ ـــ باريس ١٩٨٥: رايسا ترافق غورباتشوف في أول زيارة له للغرب كرئيس، رايسا تسبحر دانييل ميتران Danielle Mitterand (السيدة الأولى في فرنسا) بابتسامة واضحة متفحصة مكتب ميتران الحديث بقولها: «أعطني بعض النصح، فأنا لا زلت في بداية الطريق». رايسا تتفحص رسومات متحف Jeu Paume مذهلة الأمريكيين بمعلوماتها الواسعة عن رسومات القرنين (١٩ ـــ ٢٠)، تمّ هذا في معرض للفن الأمريكي في موسكو في تشرين الثاني ١٩٨٧. لقد تجاذبت أطراف الحديث بكل بساطة مع بيركاردان في معرض أقيم في صالونه الخاص فأعلنت إعجابها بإبداعاته قائلة: «إنني أحترمها كأعمال فنية». وفي خلال جولة تعارف مع مدينة باريس قامت بزيارة مخازن الكتب الموزعة على نهر الراين برفقة دانييل ميتران حيث أعلنت «إنني أبادل باريس محبتي». كما قامت باستدعاء مصممي أزياء الرقي في باريس لتسألهم عن إمكانية عودة الألوان الفاتحة كسابق عهدها، لأنها كما زعمت تلمع في عينيها بعد أن طلب منها مرتين الظهور باللباس القاتم من قبل الصحف الباريسية. وعلق مراسل صحيفة باريس ماتش السيد لورانس ماسوريل Laurence Masurel قائلاً: «إنها ليست من النوعيات التي لا تعلم

ما تريد، بل على العكس تماماً تعرف مرادها تماماً». لذا علقت صحيفة الماسوريل كالتالي «لقد تغيرت صورة العالم السوفييتي تحت تأثير وجه امرأة».

٢ ــ جنيف ١٩٨٥ : كان لرايسا مؤثراتها الجانبية في لقاء القمة الأول بين ريغان وغورباتشوف، فخلال زيارتها لمتحف الساعات الأثرية أبدت إعجابها بقطعة جوهرية أثرية ثمينة، فتحدثت بالإنكليزية قائلة بركاكة «إنها جميلة»، ثم أبدت رأيها في ضرورة الحفاظ على الأشياء عوضاً عن تدميرها.

وفي حديث دار في جامعة جنيف حول العلاقة بين الفلسفة والفيزياء نصبت من نفسها قارئاً دائماً للكاتب السويسري فريدريك ديورنمات Friedrich Durenmatt. وخلال مرورها من بعض المدن قطعت بلافتات كتب عليها بالروسية عبارة (المملكة البريطانية قاتلة). أهم نشاطاتها التي سلطت عليها الأضواء كانت حفلتي الشاي مع نانسي ريغان فجعلت من نفسها ثرثارة هائلة. من هنا أتت تصريحات نانسي كونها وجدت رايسا ذات حذلقة وعِندْ، إلا أنهما أمسكتا يدي بعضهما بشدة ووفاق أمام عدسات المصورين حيث أعلنت نانسي «أنا أظن أنها سيدة لطيفة جداً».

٣ ــ ريكافيك ١٩٨٦ : تقرر رايسا مرافقة زوجها لحضور الاجتماع، والعديد من الأمريكيين المتعصبين لنانسي ريغان يدعون شهرتها رغم ملازمتها منزلها، على عكس رايسا التي تتدخل في كل شاردة وواردة جارية وراء الشهرة، ورغم ذلك فهي لا تعني الشيء الكثير.

تلبس الحداد على وفاة والدتها. «لم يبدُ أن رايسا حاولت مشاركة نانسي أحزانها بالرغم من كونها قد أخبرت عن جدية الأمر إلا أنها عمدت إلى الكلام أكثر من الاستماع».

تكلمت رايسا وللمرة الثانية عن العشرين مليون شهيد في الحرب العالمية الثانية «نعم لقد سبق وأوضحت هذا» أضافت نانسي، وعندما زعمت رايسا أن الولايات المتحدة لم تشهد حرباً في منطقتها، تحدثت نانسي عن الحرب الداخلية، فبادرتها رايسا بمعلومات سريعة، وعندما اصطحبت السيدة ريغان السيدة غورباتشوف في جولة في البيت الأبيض أغرقت الأخيرة نانسي بالأسئلة (هل هذه الثريا عائدة للقرن التاسع عشر؟ هل عاش جيفرسون Jefferson هنا؟ وعلى كل حال متى بني البيت الأبيض؟) فاضطرت للإجابة إلى استشارة خبير بالآثار «بُني بين ١٧٩٢ ـــ ١٨٠٠» وعند سؤالها فيما إذا كانت تحب الإقامة فيه قاطعت رايسا قائلة: «إنه مسكن رسمي والطبيعة الإنسانية تحب العيش في مسكن عادي».

هكذا ازدادت شهرة رايسا خارج بلادها بعد لقاءات القمة، فتصدرت غلاف الصحف الغربية التي نشرت قياساتها في ارتداء الملابس الباريسية (٣٦ ـــ ٣٤ ـــ ٣٦) وتحدثت عن الصالون الذي تصفف فيه شعرها في الفندق الدولي في موسكو، وكيفية اختيارها لثيابها، تلك معلومات موثوق منها لأنها أخذت من رايسا بالذات، وقد أجابت عن سؤال طرح عليها إذا كانت تتعامل مع المصمم الروسي الشهير سلافة زايت

سيف فكانت إجابتها بالنفي ، وشرحت أن موديلات الثياب تعرض عليها فتختارها مدفوعة بذوقها الكلاسيكي ، أما لونها المفضل فهو الألوان جميعاً . وأحد المصممين الذين تعاملت معهم رايسا في موسكو هي تمارا موكييفا Tamara Mokeyeva (٥٨ سنة) مصممة ملابسها خلال رحلة باريس .

خلال عودة رايسا لموسكو حاولت الحفاظ على بريق نجمها . فدعت نساء بعض الوزراء الأجانب مثال ذلك صونيا غاندي (زوجة رئيس الوزراء الهندي) التي اصطحبتها في رحلة لمتحف الفنون في موسكو عام ١٩٨٥ . وقامت خلال تحضيرها للقاء القمة بواشنطن بحضور الافتتاح لمسرحية صدر السلام الدرامية التاريخية التي تتحدث عن أوائل سلطة لينين ، وخلال مقابلة أجرتها رايسا في مجلة المرأة العاملة قالت : « على كل حال فالناس السوفييت لا يرتدون الآن لباساً فقيراً . كل هذا وإذا تحدثنا عن القضايا الاستهلاكية فجميعنا نطرح أسئلة صعبة عن النوعية والكمية وهي أمور يجب حلها سريعاً » .

هكذا بدأت شهرة رايسا في موطنها أيضاً ، فقامت في تشرين الثاني بافتتاح معرض للفن الأمريكي تحت إشراف أرماند هامير Armand Hammer ، فشجعت دخول الشباب مجالات الفنون ، وهذا دليل واضح على كونها انقلبت عن المرأة السوفييتية المعروفة . وكم من مرة قالت رايسا « إنني محظوظة جداً مع غورباتشوف ، إننا بحق أصدقاء ، أو إن كنتم تفضلون فنحن جسد واحد » . ابدا هذا واضحاً في ندوة الجمعية الفرنسية في باريس

الفصل الثامن

السيد غورباتشوف يذهب إلى واشنطن

حلم رونالد ريغان بسيناريو هوليودي حقيقي لأول زيارة لغورباتشوف إلى الولايات المتحدة، كان يريد أن يأخذ السكرتير العام برحلة تجوالية في البلاد، يريه الأسواق الوفيرة وأحواض السباحة الخلفية المتلألئة، والضواحي المزدهرة ومدن ناطحات السحاب. ظن ريغان أنه إذا استطاع أن يُري القائد السوفييتي هذه الأعاجيب بشكل مباشر فلربما يدرك أن ثمار الحرية والديمقراطية والرأسمالية هي المجلية بامتياز عن أي شيء شيوعي يمكن أن يصنعه.

كان لدى غورباتشوف موضوع آخر يشغل باله، وضح ذلك الإعلاميون الذين سبقوه عندما أشاروا في لقاءاتهم أنه يريد قمة واشنطن

(فعالة)، جدية وقصيرة. إضافة لتوقيع اتفاقية الأسلحة النووية متوسطة المدى (INF) فإن جدول الأعمال سوف يقتصر على مباحثات حول تخفيض الأسلحة الاستراتيجية، والمسائل الإقليمية وحقوق الإنسان. كما أن لغورباتشوف برنامجاً شخصياً وهو تسويق سياسته إلى الشعب الأمريكي خلال حملة علاقات جماهيرية ذات لقاءات اوركسترالية وظهورات تلفزيونية، وحتى إجراء بعض المصافحات الارتجالية والتي مع الزمن سوف تجعله يبدو أكثر من مرشح لرئاسة الولايات المتحدة عن كونه قائداً للقوة الشيوعية.

في الواقع كان غورباتشوف مرشحاً ولكن ليس لانتخابات ديمقراطية مشابهة، جمهور ناخبيه كانوا هناك في الاتحاد السوفييتي، حيث يمتدح رجال بلاده إصلاحاته الاقتصادية بمزيج من الأمل مع التشكك أو الرفض الكلي، إن الطرد من المكتب السياسي في أواخر عام ١٩٨٧ لحليفه السابق بوريس يلتزن قد أثار جدلاً مستمراً ما بين قادة الكرملين. في المعامل والحقول في طول البلاد وعرضها، في المدن حيث يطلب من الناس العمل الدؤوب أكثر وأكثر، الكل ينتظر بمزيج من الصبر النتائج النهائية.

لقاء هذه الستارة الخلفية كان يعرف غورباتشوف أنه يجب أن يعود من واشنطن ببعض الإحرازات الواضحة: خفض التوتر العالمي، والتقدم نحو اتفاقات مراقبة التسليح، وهذان الهدفان مطلوبان لتحويل الإنفاق من الجناح العسكري إلى الاقتصاد المدني. كان يأمل ريغان من جانب كسب

المصادقة على معاهدة (INF) والوصول إلى اتفاق حول الأسلحة الاستراتيجية من أجل أن يعوض دوره في التاريخ أثناء أحداث المشاكل خلال فترة رئاسته. إذن خشبة المسرح مهيأة الآن لقمة ١٩٨٧، لقاء الآمال الكبيرة والتوقعات التي يظن كلا القائدين أنها سوف تكون أكثر فعالية من اللقاءين السابقين لهما، إضافة إلى أنها سوف تكون أول زيارة لواشنطن من قبل قائد سوفييتي منذ زيارة السكرتير العام ليونيد بريجينيف في عام ١٩٧٣ . ربما من المثير أن هذه الزيارة سوف تكون أول مرة ينظر فيها الشعب الأمريكي للرجل الذي سبب تلك الاضطرابات السياسية الجذرية في الاتحاد السوفييتي.

عندما اقتربت الأليوشين ــ ٦٢ الزرقاء والبيضاء من قاعدة اندروز Andrews الجوية بعد ظهر السابع من كانون الأول، كان غورباتشوف يعرف أن عشرات الملايين من مواطنيه ينتظرون كيف سيبدو تصرف قائدهم وسلوكه تحت الأضواء الأمريكية. «الزيارة قد ابتدأت» قالها لسكرتير الولايات المتحدة جورج شولتز George Shultz الذي كان يرحب به في أرض المطار، «لذا دعنا نأمل، ليكن الله في عوننا»، هذه التعويذة الإلهية في الواقع عبارة عن جملة روسية شائعة ــ لها علاقة بسيطة بالدين، ولكنها تعني الكثير من الأهمية التي يوليها غورباتشوف إلى هذه اللحظة التاريخية. لقد أحرز في اليومين السابقين نجاحاً دبلوماسياً بيّناً خلال الساعتين اللتين توقف بهما في بريطانيا، حيث قابل هناك رئيسة الوزراء مارغريت تاتشر في قاعدة برايز نورتون Brize Norton الجوية قرب اكسفورد Oxford . بعد هذا

اللقاء صرحت تاتشر بتدفق صميمي تأييدها لغورباتشوف وإصلاحاته. كما أدلت للتلفزيون السوفييتي بما معناه «أن بريطانيا كلها قد أُثيرت واهتزت مشاعرها من مجيئه»، وحيت هذه العلاقة الحارة.

كان هناك حوالي ٢ ـــ ٣ دزينات من اليهود لم تكن بهذه الإثارة، قد تجمعوا في ساحة سمولنسكي Smolensky في موسكو عشية مؤتمر القمة في مظاهرة احتجاجية يطلبون فيها حقهم بالهجرة، تنكر بضع مئات من البوليس السري السوفييتي ضخام الجثة، بأزياء مدنية وتدافعوا ضمن الحشود بغرض تقطيع الكوابل التلفزيونية ونزع الكاميرات التصويرية من أيدي الصحفيين الأجانب الذين كانوا يجاهدون لتغطية الحدث. أحد الصحفيين الأمريكيين بيتر ارنت Peter Arnett من شبكة كابل نيوز حمل إلى باص شرطة واحتجز لمدة أربع ساعات، المنظر كان بشعاً وأعاد إلى الأذهان طرق اليد الحديدية التي يبدو أنها لم تختفِ نهائياً وأنه لا زال هناك حدود معينة لإعادة البناء (الغلاسنوست).

الحادث بدا بعيداً عندما كان موكب السكرتير العام ذو ١٤ ـــ عربة، تسعة مع وفده نزولاً إلى وسط واشنطن، عندما كان يجيل النظر عبر النوافذ الضيقة لعربة الليموزين السوداء زيل ـــ ١١٤، لمح تجمعات متفرقة من المتفرجين تحمل لافتات متضاربة مثل: «تذكر بيرل هاربر» ـــ «أهلاً غورباتشوف» (وهذا يشير إلى أن يوم وصوله يصادف الذكرى السنوية الـ ٤٦ لقصف بيرل هاربر، وهذا ربما يعني التعبير عن رفض هذه الزيارة).

رأى غورباتشوف داخل العاصمة وسط تماثيل الرخام البيضاء للديمقراطية الأمريكية منظراً درامياً لرحلته التاريخية: العلم الأحمر ذو المنجل والمطرقة الذهبية يرفرف بجانب النجوم والخطوط في شارع بنسلفانيا **Pennsylvania**، وحتى على بناء البيت الأبيض. ولو كان قد قَدِم في اليوم السابق لكان قد رأى حوالي ٢٠٠,٠٠٠ شخص يتظاهرون في (مال) يعارضون معاملة حكومته لليهود السوفييت. على أي حال، خلال زيارة غورباتشوف طافت مجموعات كثيرة من المتظاهرين في بودهيست مونكس **Buddhist monks** لدعم المقاومة الأفغانية، ولكنهم أبعدوا عن السفارة الروسية في الشارع السادس عشر مبنى رقم ١١٢٥ على بعد أربع عمارات من شمال البيت الأبيض حيث كان يقيم هو ورايسا زوجته خلال زيارتهما التي دامت أربعة أيام.

لم يكن هناك جدول لإعمال قمة في أول مساء حيث من المفروض أن يترك الرئيس السوفييتي وزوجته ليلتقطوا أنفاسهم من الرحلة الطويلة. تعشى غورباتشوف بشكل خاص في السفارة مع مجموعة من الرسميين السوفييت. شاهدا قبل النوم فيلم فيديو بعنوان (Top Gum) بطولة توم كروز كطيار بحري أمريكي جريء. بناء على طلب من موظفين رسميين سوفييت فقد أرسل جاك فالينتي **Jack Valenti** رئيس مؤسس الصور المتحركة في أمريكا الفيلم إلى السفارة مع نسخ من أفلام (بلاتون) المصور عن فيتنام و(صرخة الحرية) وهو فيلم عن ستيفان بيكو الذي استشهد في نشاطات السود في جنوب إفريقية.

كان غورباتشوف موضع ترحيب استعراضي كبير عند بوابة ساوث لون للبيت الأبيض صباح الثلاثاء، بالرغم من أن هذه البوابة ليست رأس الولايات (كما كان يردد دائماً الرئيس أندريه غروميكو). خصص للسكرتير العام مراسيم الشرف كاملة من حيث عزف الأبواق وإطلاق ٢١ طلقة تحية، والأنساق المصطفة من حرس الشرف العسكري باللباس الكامل لكلا زيّي المستعمرات والزي الحديث. بعد أن عزفت الفرقة العسكرية الأمريكية النشيد الوطني الروسي والذي عزف آخر مرة في البيت الأبيض خلال زيارة بريجينيف، خطا الرئيس ريغان ليصبح قرب الميكرفونات على المنصة المركبة على البساط الأحمر. ورحب بضيفه: «كنت دائماً أشعر أنه سوف يكون لشعبينا أفضل صديقين» قالها بلهجة تحمل الصدق والشعور الطيب، تلك اللهجة التي كانت مهيمنة على معظم أحداث القمة. «ولكن لتكن لدينا الشجاعة الكافية لنعترف أن هناك اختلافات كبيرة بين أنظمة حكومتينا، اختلافات لا يمكن حلها بالتمنيات الطيبة أو التعبير عن الرغبة الجيدة مهما كانت هذه الرغبة صادقة، هذه الحقيقة غير المريحة يجب أن لا تكون سبباً للتشاؤم، وإنما يجب أن تزودنا بالتحدي واغتنام الفرص من أجل الانتقال من المجابهة إلى التعاون». كان غورباتشوف ينصت بإصغاء إلى المترجم الروسي الذي يترجم له كلمات ريغان، وكان يومئ بالموافقة، تلك الإيماءة التي غالباً ما تكررت خلال الأيام التالية.

أخذ القائد السوفييتي على عاتقه بتصريحاته إلى الشعب السوفييتي أن يكون: «دعامة حيوية في الحفاظ على السلام وتدعيمه أينما كان على

الأرض» ويردد صدى آمال ريغان في أن كلتا الأمتين يمكن أن تتقدما باضطراد نحو الهدف الأساسي ألا وهو تخفيض سلاحهما الاستراتيجي النووي بمقدار ٥٠ ٪، وبخلاف ريغان أضاف غورباتشوف العبارة: «بصياغة ضمان راسخ للتوازن الاستراتيجي». من خلال التصريحات العلنية عن مراقبة التسليح كان من الواضح أن العائق الأساسي في المباحثات السوفييتية ـ الأمريكية: اتفاقية ١٩٧٢ للصواريخ البالستيكية (IBM) وما تتضمنه من الدفاع الاستراتيجي الأولي الذي يهتم به ريغان. صرح السوفييت مراراً أن الاتفاقية حوت كل شيء باستثناء المسألة الأكثر حساسية وهي أبحاث حرب النجوم. في اللقاءات الرسمية للرئيس ريغان حول المنازعات والمجادلات عن الاتفاقية كان يصر على إجراء أبحاث ودراسات متقدمة في الفضاء، مؤكداً ومجابهاً الخلاف الأساسي الذي سيكون محور مباحثات هذه القمة.

تجنب الرئيس ريغان الإجابة على أسئلة الصحفيين والمحررين خلال الاستراحة القصيرة في جلسة التصوير بعد انتهاء الجولة الأولى من المباحثات، ولكن ضيفه بدا شغوفاً للأخذ والعطاء مع الصحافة الأمريكية. سئل غورباتشوف الذي يرتدي البزّة الرمادية المخططة الأنيقة فيما إذا أحضر معه مفاجآت حول مراقبة الأسلحة فأجاب عبر مترجمه: «أنا لا أعتقد أن السياسات تصنع من المفاجآت، السياسات المسؤولة وخاصة تلك التي تكون بين بلدين مثل الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة يجب أن يفكر بها ملياً وعلى أساسها يمكن أن تتخذ القرارات المسؤولة». بعد الرد

على بعض الأسئلة الأخرى ـــ وقول القليل من الجوهر ـــ قال للصحفيين ورجال الإعلام: «أعتقد أنكم أخذتم مني الكثير».

نسبياً لم يأخذ ريغان الكثير من السكرتير العام، على الأقل خلال الثلاثين دقيقة من الجلسات الإفرادية المغلقة. ابتدأ الرئيس كالعادة بالموضوع الحساس وهو حقوق الإنسان. ما لم يتفهم السكرتير العام إلى أي عمق يشعر الشعب الأمريكي بأهمية هذا الموضوع، قال ريغان، «فليس هناك سبيل لترسيخ العلاقات ما بين بلدينا»، «كيف تظن الولايات المتحدة تلك الأمة من المهاجرين، التي تشعر بحقيقة أنك لا تريد أن تسمح لشعبك بالهجرة بحرية؟» سأل الرئيس مشيراً إلى مظاهرة واشنطن الـ ٢٠٠,٠٠٠ في عطلة الأسبوع الماضي كدليل للرأي العام الشعبي، أجاب غورباتشوف بغضب «أنا لست في محاكمة هنا» وتابع بنزق «وأنت لست القاضي». وبدأ السكرتير العام يشير إلى أن الولايات المتحدة تنظم استدراجاً للادمغة وتشجيع بعض المواطنين السوفييت الأفضل تدريباً والأكثر ذكاءً لأن يغادروا بلادهم. استعرض أشكال حقوق الإنسان في سجلات الدولة للناس الذين ليس لهم مأوى يتمددون في شوارع العاصمة الأمريكية، أكد أيضاً على أن للولايات المتحدة مسلحين مدربين على الحدود المكسيكية لمنع المواطنين من الدخول إلى الولايات المتحدة، بينما الاتحاد السوفييتي يسمح بالهجرة للداخل بدون أي عوائق (أو بالأحرى بعض الاستفسارات البسيطة تتطلب القليل من الانتظار لتدخل الاتحاد

السوفييتي) ، أجاب ريغان : « هناك فرق كبير ما بين أن تنظر وأنت تدخل وأن تنظر وأنت تخرج » .

بالرغم من أنه هناك حركة بسيطة في جبهة حقوق الإنسان ، أكد الرسميون الأمريكان أنه كان هناك تقدم في أن الاتحاد السوفييتي أصبح الآن جاهزاً لمناقشة هذا الموضوع . « مجمل مباحثاتنا اختلفت كلياً عما كانت عليه » . شرح شولتز للصحفيين بعد ذلك « لم نكن نستطيع مناقشة هذه المسألة مع غروميكو على الإطلاق » .

بعد هذه المحاورة التقابلية بين الرئيسين توسعت المباحثات لتضم أعضاء الشيوخ الأمريكان والرسميين السوفييت . وافق كلا الطرفين على تشكيل مجموعتي عمل : الأولى ــ فريق مراقبة السلاح برئاسة المستشار الرئاسي بول نيتــز Poul Nutze والمارشال سيرغــي أخروميــف Sergei Akhromeyev رئيس أركان القوات المسلحة السوفييتية كمساعد للرئيس . والثانية ــ مجموعة مختصرة تتعامل بكل من المواضيع الأخرى ، برئاسة السكرتير المساعد للولايات المتحدة روزان ريدجوي Rozanne Ridgway والنائب السوفييتي لوزير الخارجية الكساندر بيزميرتنيــخ Alexander Bessmertnykh . قبل أن يغادر كلا الرئيسين للغداء إفرادياً أهدى ريغان ضيفه زوج من أزرار القميص الذهبية مماثلة لتلك التي كان يرتديها الرئيس . كانت الأزرار ترمز إلى النبي(أشعيا Isaiah) وهو يكسر السيوف ويجعل منها نصلات محاريث . لم يكن هذا الرمز حرفياً حسب الكلمات الواردة في

الانجيل فحسب وإنما كان أيضاً من معظم المعاني الواردة في خطب غورباتشوف.

عاد الرئيسان فظهرا في القاعة الشرقية للبيت الأبيض في الساعة الواحدة و ٤٥ دقيقة بعد الظهر مع المظاهر الاحتفالية للقاء القمة الأعظمي من أجل: التوقيع الرسمي على اتفاقية للحد من أصناف معينة من الأسلحة النووية من أوروبا وبقية العالم. بعد نتاج ست سنوات من المباحثات استدعت الضرورة تدمير ١٧٥٢ صاروخاً سوفييتياً و ٨٥٩ صاروخاً أمريكياً وتعزيز إجراءات التحقيق الصارمة، التي من المؤمل أن تعبد الطريق إلى اتفاقيات طموحة أكثر من أجل الأسلحة البعيدة المدى في مباحثات تخفيض الأسلحة الاستراتيجية (START). بالرغم من تلاسنهم الحاد في لقاء صباح اليوم حول حقوق الإنسان فقد أبدى كلا الرجلين حرارة ومزاجاً فكاهياً طيباً عند مراسم التوقيع، وكأنهم في فريق ملهاة متقن الإخراج. في إحدى اللحظات ذكر ريغان العبارة الروسية دافرياي نو برافيرياي davereai no proveryai (أثق ولكن أتحقق) فقط من أجل أن يقاطعه غورباتشوف ذو الطبيعة المرحة «أنت تكرر ذلك في كل لقاء». عندما هدأ ضحك الـ ٢٥٠ مدعواً ابتسم ريغان ابتسامة عريضة ووقف أمام غورباتشوف بانحناءة بسيطة وأجاب «أنا أحب ذلك» انفجر الحضور مرة ثانية بالضحك.

«نحن نستطيع فقط أن نأمل» قال ريغان «أن هذا التاريخ يصنع

اتفاقيات لا لتنتهي بذاتها، ولكن لتكون بداية لعلاقات عمل تمكننا من الارتقاء بها إلى مسائل أخرى، مسائل هامة وعاجلة تقف أمامنا». عبر غورباتشوف عن أمله في أن تاريخ توقيع المعاهدة «سوف يحدد الحد الفاصل ما بين حقبة التهديدات بالحرب النووية وبين حقبة التجريد العسكري للحياة البشرية» مع التنبيه بأن طريق المباحثات لا زال يجثم أمامنا قاسياً، كما أضاف السكرتير العام «أعتقد أن الوقت لا زال مبكراً لنضع أكاليل الغار على بعضنا البعض».

بعد ذلك جلس كلا القائدين على طاولة كانت مرة تستخدم في مكتب ابراهام لنكولن Abraham Lincoln's، ووقعوا أسماءهم ثماني مرات على المجموعتين الضخمتين لوثائق المعاهدة، حفظت النسخة الأمريكية في مجلد أزرق بينما الروسية في مجلد أحمر خمري. عندما انتهوا من الكتابة تبادل كلا الرجلين الأقلام، ثم وقفوا على أقدامهم وتصافحوا بالأيدي وسط حضور متحمس مرحب. استدارت نانسي ريغان الجالسة في الصف الأول إلى رايسا غورباتشوف وقالت: «أعتقد يجب علينا أن نتصافح أيضاً»، طوقتها رايسا بذراعيها مع ابتسامة ثم مصافحة. تفاعل الحضور بهيبة الجالسين وتأثر الرسميون الأمريكان بحيث بدت على بعض منهم آثار الدموع في العيون.

هبط ريغان وغورباتشوف برشاقة ونشاط إلى القاعة المركزية للعشاء، وكان بانتظارهم رجال الصحافة والتلفزيون حيث نقلوا للشعبين الأمريكي والسوفييتي مناظر الرئيسين تحت النظرة الصارمة لصورة لنكولن المعلقة. تحدث ريغان بمواضيع مألوفة تدور حول (حقوق الإنسان) و(الإخلاص

والعائلة) و(الحلم الكبير للسلام) غورباتشوف بالمقابل تكلم عن (تكريس حقوق الإنسان للحياة) ولكن تضمنت كلماته أيضاً تعابير موجهة إلى جمهوره، إذ في سياق حديثه بيّن أن لينين مؤسس السلام الحالي والسياسات اللاعدوانية وأنه بصدد العمل حثيثاً لنجاح البيريسترويكا في الوطن. أشار أيضاً إلى إمكانية «الاستقطاع الجوهري للقوات والأسلحة في أوروبا التي نشأت وتضخمت لأسباب شرعية». الجملة الأخيرة كانت موجهة إلى تلك المدن في الولايات المتحدة وأوروبا التي تخاف من نقصان الصواريخ الأوروبية مما يترك حلف الناتو غير حصين بالنسبة إلى حلف وارسو Warsaw المتقدم تقليدياً. كان يجاهد غورباتشوف بشكل خاص لتلطيف استقبال المعاهدة (INF) في مجلس شيوخ الولايات المتحدة، تلك الاتفاقية التي صادق عليها لتوه بتوقيع وثائق تاريخية وسط جعجعة طنانة.

تضم كل مجموعة من المعاهدة ذات الـ ٤١ صفحة بروتوكولين ومكملاً واحداً، أرفق بها تفاصيل عن إجراءات حرق وتفجير وتحطيم وتدمير كافة الصواريخ قصيرة ومتوسطة المدى خلال فترة ثلاث سنوات، كل ذلك تحت رقابة مباشرة من قبل كلا الطرفين. المكتب الإعلامي للرئيس ريغان نشر فوراً ثلاث وثائق منها للجمهور بينما بقيت الرابعة التي تنص على أماكن توضع الصواريخ الأمريكية والسوفييتية، مصنفة. صرح الناطقون الرسميون أن المعلومات بقيت طي الكتمان منعاً لتشجيع الإرهابيين من احتمال تنظيم المظاهرات ضد أماكن توضع الصواريخ الأمريكية. السوفييت من طرفهم تفهموا فوراً الموضوع وأبدوا انفتاحاً أكبر من الأمريكان. «كان انطباعنا

خلال مباحثات (INF) أن الجانب الأمريكي ميال نحو نشر المعاهدة» قال المفاوض الحربي السوفييتي اليكسي اوبوخوف Alexei Obukhov مضيفاً إلى أن الوثائق سوف تُنشر قريباً في الاتحاد السوفييتي. «هذا مدهش» علقت صحف موسكو «الأمريكان لا يريدون نشر بعض أجزاء هذه المعاهدة لأنهم يخافون من أن يستخدم الإرهابيون المعلومات الواردة بها، ولكننا سوف ننشر كل شيء كان يعتبر سرياً» بعد بضعة أيام رجع البيت الأبيض لقراره ونشر المكمل بالكامل.

بالرغم من انتشار الابتهاج والفرح الذي رافق توقيع المعاهدة، لم تستحسن بعض الفئات زيارة غورباتشوف لواشنطن. في بارك لافاييت Lafayette Park على طريق البيت الأبيض مزيج من التجمعات المتظاهرة انعقدت خلال فترة القمة. خرج أعضاء بيروبيد Berobed للمجتمع الدولي من أجل ذكرى كريشنا Krishna هاتفين منشدين على قرع الطبول من أجل السلام. كما خرج اللاجئون الأوكرانيون ملوحين بالبالونات السوداء دليلاً على حدادهم بفقدان أراضيهم. طالب المبشرون المسيحيون القادة بالتخلي عن مباحثاتهم وترك المستقبل للسيد المسيح. تظاهرت بعض مجموعات النساء لصالح (SDI) بينما أُخريات وقفن ضدهم. هتف بعض مؤيدي المقاومة الأفغانية «الموت لغورباتشوف» لمدن لاتفيا ولتوانيا واستونيا وعقدوا صلوات المساء تحت أضواء القناديل.

شبه بعض المحافظين الأمريكان القمة مثل مهدئ ميونيخ (اتفاقية

١٩٣٨ في ميونيخ لتهدئة هتلر) بتجول بيل جونز Bill Janes مؤيد الجناح الأيمن لسياسة المتطرف ليندون لاروش Lyndon Larouche بخيلاء في معطف صباحي أسود مع قبعة جولف مقلداً رئيس وزراء نيفيل تشامبرلن Neville Chamberlain (السلام في زماننا) بلهجة انكليزية متلعثمة. كان المحافظان ريتشارد فيغوري Richard Viguerie وهيوارد فيليب Howard Philips أقل تهيجاً ولكن بمرارة مشابهة. حيث عقدا مؤتمراً صحفياً نعتا به البطل المصلح رونالد ريغان بأنه «لا يتعدى كونه أحمق للدعاية السوفييتية». كما خرج اتحاد المحافظين في نيو هامبشير New Hampshire بعربة طروادية ارتفاع ١٠ أقدام للتجوال في المدينة.

في واشنطن خرج المعارضون بجماعات قليلة بشكل طيشي وبأجواء سيرك بهلوانية خلال فترة القمة، ولكن بشكل عام المزاج كان مبتهجاً ومتفائلاً. وصف بعض المعلقين هذه الظاهرة بـ(حمى غوربي) بالرغم من أنها لا تشبه تماماً الحمى المسعورة لحفلات البيتلز عام ١٩٦٠ أو ألعاب الجولف العظيمة، علق بائعو التحف والتذكارات في محلاتهم حمالات وأزرار (أنا أحب غوربي) وقمصان (رحلة غورباتشوف ٨٧). أذاعت محطات راديو لوكال توب ٤٠، أغاني للزعيم السوفييتي مثل أغنية مايكل جاكسون (الطريقة التي تجعلني أحس بها). غيّر فندق ميرو حيث يعتبر المركز الرئيسي لـ ٧٠٠٠ صحفي تسمية مشروب القهوة لديه ودعاه (كافيي غلاسنوست) أي (مقهى إعادة البناء). إضافة لتغطية الأحداث الرئيسية لمؤتمر القمة فقد زخرت الصحافة اليومية بحكايات ونوادر مع صور ملونة

متعلقة بمجريات القمة بما فيها مواصفات سيارة غورباتشوف الليموزين ١٩٨٥ زيل ذات الطول ٢٤٨ قدماً والعرض ٥ر٨١ قدماً والوزن ٦٨٠٠ ليبرة .

ظهر الوفد السوفييتي كالفرق (السيركية) والذي ضم ما يقارب الأربعين منتدباً رسمياً حكومياً ، كما تضمنت المجموعة من موسكو حوالي ٥٠ صحفياً و ٥٠ خبيراً أكاديمياً وحوالي ١٠٠رجل أمن من ك . ج . ب . عندما أقام غورباتشوف في السفارة ، كان بقية الزوار ينامون في فندقي ماديسون وفيستا الدوليين ، اللذين أحيط كل منهما بفرق أمن أمريكية وسوفييتية كبيرة . أكل معظم أعظاء الوفد وجبات محضرة في مقصف الفندق الخاص أو في غرفهم ذات الكلفة اليومية ١٦٥ دولاراً (أحد السوفييتيين المميزين ، ومن المحتمل أن يكون شيفاردنادزه وزير الخارجية أقام في جناح الرئاسة ذي ١٩٠٠ دولار في ماديسون أوتيل) . لم تكن المشروبات جزءاً من الكلفة مؤازرة لحملة غورباتشوف ضد المشروبات الروحية ، ولكن معظم الزوار السوفييت اكتشفوا بسرعة البارات الفردية الصغيرة في غرفهم وأفرغوا محتوياتها . بالرغم من أن السوفييت كانوا ينالون ٢٠ دولاراً في اليوم بالعملة الأمريكية فإنك تراهم يحتشدون أمام المخازن المحلية للبحث عن الأشرطة الأمريكية والمسجلات والجينز الأزرق والأدوات الكهربائية المنوعة . إن أحداث القمة المحمومة ــ وربما زيادة تغطية عناصر ك . ج . ب ــ جعلت الموفدين بعيدين عن الأنظار أو عن سهرات الخمر الصاخبة . كانت إحدى لحظاتهم

السياحية المفضلة في بارك لافايت حيث تجاهل السوفييت المتظاهرين والتقطوا الصور لبعضهم البعض مقابل البيت الأبيض.

أعلم الرئيس ريغان أن الصحافة سوف تركز على السكرتير العام وزوجته لذا نصح الرئيس بعدم ضرورة إجراء ما يؤدي إلى (خطف الأبصار). فبينما حافظ ريغان على منظر هادئ نسبياً أثار غورباتشوف حملات علاقات شعبية كبيرة مؤكداً أنه يريد أن يتوجه بقضيته إلى الشعب الأمريكي مباشرة. جرى في مركز هذه الحملات مجموعة لقاءات وجهاً لوجه مع بعض المواطنين الأمريكان ذوي النفوذ ظهروا متأبطين أذرع الرسميين السوفييت، وبدأ غورباتشوف يناقش معهم (أفكاره الجديدة) وماذا يجب عليهم أن يفعلوا لتشجيع هذه الأفكار. أولى هذه الجلسات انعقدت بعد ظهر الثلاثاء في السفارة السوفييتية في قاعة الفنون الجميلة الزخرفية حيث بقي المكلفون أسابيع عديدة يعيدون طلاءها وتجديدها قبل انعقاد القمة. عبر البوابات السوداء المنمقة لهذه القاعة مرت مجموعات مختلفة من المفكرين والفنانين الأمريكيين بما فيهم مستشار الولايات المتحدة هنري كيسنجر وسيروس فانس، والاقتصادي جون كينث غالبرايت والكاتب نورمال ميلر وجويس كارول اواتيس والممثلان بول نيومان وروبرت دي نيرو والمبشر بيلي غراهام والفلكي كارل ساغان والمغني جون دينفر وأخيراً يوكو أونو الذي لا يحتاج لتعريف.

حيا غورباتشوف شخصياً كل زائر عند وصوله للاستقبال مع تعليق

جيد ومناسب حول أعمالهم كما بدا القائد السوفييتي بكل سحر وفتنة وأناقة ، كتب جويس كارول اواتس Joyce Carol Oates بعد ذلك في المجلة النيويوركية التايمز : «أن تتصافح مع غورباتشوف ـــ يعني أن يدك تصافحت مع عزيمة وقوة ، وأنت تشعر أن الرجل يسرع الخطا نحوك من أجل غرضه لوحده حتى أنك تحس في لحظة ضبابية أنك أنت مركز عالمه » . على كل حال ابتدأ مونولج الـ ٤٠ دقيقة في القاعة الذهبية للسفارة جالساً حول طاولة دائرية مزينة بورود التوليب الأبيض وزجاجات المياه المعدنية ، استمع الضيوف للسكرتير العام وهو يشرح آماله في الإصلاح والسلام في العالم ، وباستخدامه لبعض التعابير المرحة للرئيس ريغان . قرأ جزءاً من رسالة مراهق أمريكي يدعو إلى (عائلة إنسانية واحدة) ، كما تكلم عن الإخلاص في نزع السلاح ، وعن مشاكل بلاده والتركيز حول الاستقلال الشخصي في الأفكار ، وقد توجه إلى الحضور بضرورة (إشعال النار) تحت قادة واشنطن والكرملين لحث حكوماتهم نحو (تحقيق عاطفة الشعب) لتدعيم العلاقات . بيلي غراهام Billy Graham الذي يتقن الوعظ والإرشاد عندما سمع ذلك دعا حديث غورباتشوف بـ« الصورة الجميلة للعالم حيث كلنا إخوة » .

فترة المناقشات التي تلت ذلك دخلت إلى حد ما حالة الجلسات العائمة ، والعروض المقترحة لتوحيد برامج مغامرات الفضاء وأبحاث الإيدز الأمريكية ـــ الروسية ، وأن تتضامن كلتا الدولتين لدعم ذلك ، بحيث يجب أن يتحول صانعو الأسلحة الأمريكيون إلى إنتاج الحواسب والبضائع

المستهلكة لمنحها للاتحاد السوفييتي ! . خلال تقديم العروض المثيرة والأفكار المذهلة سمع هنري كيسنجر يسأل جيرانه «عجباً من يكون هذا؟» .

انتهت الجلسة بشكل مفاجئ في الساعة ٦ بعد الظهر تاركين لغورباتشوف ساعة واحدة للتحضير للعشاء الرسمي في البيت الأبيض. نظراً لتعب السكرتير العام وزوجته من متاعب السفر والأحداث السريعة للقمة فقد طلب من البيت الأبيض اختصار الإجراءات بحيث يمكنهم أن يأووا باكراً إلى غرفهم. استناداً لذلك ألغيت جلسة الكوكتيل قبل الطعام، وقدمت القهوة مع الحلويات وليس بمفردها . كما أنه خلافاً للتقاليد وبناء على طلب سوفييتي فإن غورباتشوف وبقية أعضاء وخبراء سوف يرتدون بذلة العمل السوداء عوضاً عن عقدة الرقبة السوداء التي اصطلح على ارتدائها في العشاءات الرسمية .

برغم ذلك بقيت تلك أحد الأحداث الهامة والمضيئة للبيت الأبيض خلال فترة رئاسة ريغان . دعي للعشاء إضافة لأعضاء مجلس الشيوخ والرسميين السوفييت ١٢٦ ضيفاً بما فيهم رجال الأعمال دافيد روكفلر وارماند هامر ، والموسيقيون ديف بروبيك ومستيسلاف روستروبوفيتش وزوبن ميهتا ، والمغنون بيرك بيلي وكلوديت كولبرت والرياضيون كريس ايفرت لويد وماري لوريتون وجوي ديماجيو (الذي أحضر كرة بيسبول لكي يوقع عليها كِلا القائدين ولكن لسوء الحظ بقيت في جيب معطفه) . «كنت أعرف أن هذه اللحظة سوف تكون خاصة» قالت نانسي ريغان وهي تدخل قاعة

ساء مع زوجها وغورباتشوف وزوجته، كما صرحت بعد ذلك «الحضور كان راقياً».

حضر قائمة الطعام كبير طهاة البيت الأبيض جون هيل الذي قدم السلمون النهري الكولومبي والسرطانات وشرائح اللحم الممزوجة بالفطر والشمبانيا، والجبن الطري مع الجوز، والشاي المحلى بكريما العسل. إضافة إلى الأنواع المختارة من الخمور الأمريكية المعتقة والسلطات المميزة التي لسبب ما لم تلمس. تناول غورباتشوف عشاؤه باستمتاع وتلذذ ولكن لم يكن هو أو أي من ضيوفه يعطون للطعام أهمية بقدر ما كانت الآمال كلها معطاة إلى إقناع كلا الطرفين بضرورة المشاركة في تحقيق السلام «كنت متعجباً إلى مدى تأثير هذا المساء علي» قالها رئيس الحزب الديمقراطي روبرت ستراوس Robert Strauss الذي جلس إلى طاولة غورباتشوف «لقد انتابني هذا الإحساس سابقاً عندما كنت أتعشى مع السادات وبيغن».

خلال شرب الأنخاب أعاد غورباتشوف للأذهان قصة السبّاحة الأمريكية لين كوكس Lynne Cox التي عبرت في آب الماضي بيرينغ ستريت التي تفصل الآلاسكا عن سيبريا في مدة ساعتين «رأينا في التلفزيون» قال غورباتشوف «كيف كان اللقاء حاراً ومعبراً بين الناس ــ بين شعبنا والأمريكيين ــ عندما تخطت الميناء السوفييتي، وقد بيّنت بشجاعتها تقارب حياة شعبينا».

«إضافة لضرورة تقريب المسافات السياسية والأيدلوجية فيما بيننا» تابع

القائد السوفييتي ، « نريد أن نبحث عن الوسيلة لإيجاد طرق اقتراب لتلاقينا حيث يعتبر هذا من الأهمية الحيوية لكلا بلدينا وللإنسانية جمعاء » . لم تمنع هذه التعابير حول المشاعر الطيبة لغورباتشوف في حفل العشاء المبهج من بعض التصريحات المتفاوتة ، حيث قال ريتشارد بيرل Richard Perle زعيم البنتاغون والذي دعي فيما مضى لسياسته الدفاعية الحازمة بـ (أمير الظلام) ، قال « لا أعتقد أن أحداً منا قد أقنع الآخر » ، ثم استطرد بيرل بعد تقريع دمث حول المسائل الاقتصادية والدفاعية « ولكنه رجل ذكي ، ملفت للنظر ، قوي ولبق » .

شغل عازف البيانو التكساسي فان كليبورن Van Cliburn الذي حاز على جائزة تشايكوفسكي لعام ١٩٥٨ في موسكو ، الفاصل البسيط بعد العشاء في القاعة الشرقية ، تأثر غورباتشوف بغبطة عظيمة وعانق كليبورن عناقاً حاراً قبل وبعد برنامجه ، وأعطى الحضور شعوراً مؤثراً غير متوقف عندما شارك غورباتشوف وزوجته رايسا عازف البيانو في غناء الترنيمة الروسية (ليالي موسكو) . عندما بدأ بعض أفراد الوفد السوفييتي بإضافة صوتهم إلى الصوت الجهوري لغورباتشوف ، مال المحرر المحافظ جورج ويل George Will إلى الأدميرال ويليام كراو William Crowe وهمس في أذنه « هذه الأغنية كلفتك ٢٠٠ سفينة » . بعد أغنية غورباتشوف سخر بيرل بيلي Pearl Bailey من الموقف بقوله : « هذا الصبي قد لا يعود لبلده نهائياً ، كان يمتلك الكره » ، ولكن الـ ٤٥ دقيقة المخطط لها انتهت في الساعة العاشرة مساءً وأخيراً مكّنهم غورباتشوف من الخروج .

حسناً فعل كلا القائدين بذهابهم باكراً للنوم نظراً لأن الأربعاء يوم حافل كما دعته الناطقة الرسمية للبيت الأبيض مارلين فيتزووتر Marlin Fitzwater (بالحمل الثقيل). بدأ غورباتشوف يومه بمقابلات حاسمة وعصيبة: المقابلة الصباحية كانت مع تسعة أعضاء من الكونغرس بمن فيهم أربعة أعضاء من مجلس الشيوخ الذين يتوقف عليهم إلى حد ما إقرار معاهدة INF. بدأ السكرتير العام الجلسة المنعقدة في السفارة الروسية بالتنويه عن مسألة نزع السلاح الذي دعاها بـ(المسألة الأكثر أهمية في العالم اليوم) وحذر من (إنذارات الكونغرس) التي قد تنسف معاهدة INF. كما صرح أن لديه مشاكله الخاصة في بلاده من أجل تطبيق ما صدق في الوثائق من قبل أعلى مستوى سوفييتي: «لدينا محافظونا أيضاً» تابع غورباتشوف «هم يختلفون عن محافظيكم إذ تعود المحافظون عندنا على طريقة معينة من الحياة، نظام معين للأمور. يحتاجون إلى تغيير مواقفهم تجاه الحياة، وأن تبقى لهم اليد العليا دائماً. مسيرة (الإصلاح) غير قابلة للتراجع، بالرغم من أننا غير قادرون على تغيير كل شيء دفعة واحدة».

معظم المشرعين كانوا متأثرين بلباقة وذكاء وصراحة ونشاط غورباتشوف. قال السيناتور الجمهوري آلان سيمبسون Alan Simpson لولاية وايومنغ «يأتي إليك بستة أنوار كاشفة مثل شاحنة الماك Mack»، ولكن ترك غورباتشوف كثيراً منهم يدرك أن بعض الأعمال السوفييتية المعينة هي هامة لتحقيق العلاقات. اقترح رئيس الأكثرية في مجلس الشيوخ روبرت بيرد Robert Byrd أن غورباتشوف يستطيع إلى حد بعيد دعم وتعزيز المعاهدة

بالإعلان عن جدول زمني لانسحاب القوات السوفييتية من أفغانستان. أجاب غورباتشوف إن «موسكو ليست لها رغبة في البقاء في أفغانستان» ولكنها تحتاج إلى ضمان في أن تلك البلاد سوف تبقى (محايدة) بعد الانسحاب السوفييتي. سأل السناتور الديمقراطي ويب آلان كرانستون Whip Alan Cranston لولاية كاليفورنيا والداعم الكبير لاتفاقية INF الرئيس غورباتشوف ماذا يجب أن يتم للإسراع قدماً في المباحثات «أنت تعرف ما هي المتطلبات» أجاب غورباتشوف وهو يشير إلى أن الاتحاد السوفييتي قد أرسل الآن «نواياه الطيبة» وأضاف «نحن نحتاج إلى نوايا طيبة منكم»، أخبر السناتور الجمهوري روبرت دول Robert Dol في فترة جلسة الدفاع عن مسألة INF السكرتير العام أنه «ربما احتاج بعض الجمهوريين أن يأخذوا وقتاً أطول» لدراسة الاتفاقية قبل الاقرار حول دعمها أم لا. قام روبرت دول بدور المفتاح الواعي في مناظرة أعضاء مجلس الشيوخ. ونظراً لملاحظة أن روبرت دول قد يسبق ريغان بنجاحه في البيت الأبيض، فقد سحب غورباتشوف السناتور الجمهوري لولاية كنساس روبرت دول جانباً لمدة ١٠ دقائق بعد المقابلة. بعد أن غادر السناتور ابتسم غورباتشوف وتمنى له التوفيق في سباق الرئاسة «شكراً» أجاب دول «سأفوز». يجب أن يكتسب دول الثقة من كلمات غورباتشوف حيث نهاية الاتفاقية. وفي الأسبوع التالي كان يظهر بجانب ريغان في قاعة الصحافة في البيت الأبيض وقد أعلن عن تذليل عوائق كثيرة كانت تقف عثرة في طريق التصديق على الاتفاقية.

عندما وصل غورباتشوف إلى البيت الأبيض في الساعة العاشرة

صباحاً دعاه الرئيس ريغان إلى غرفة مكتبه الخاصة من أجل محادثة غير رسمية بينهما برفقة المترجمين فقط. عندما جلس الرجلان أخرج ريغان كرة البيسبول التي أراد جوي ديماجيو Joei Dimaggio أن يوقع عليها كلا القائدين خلال عشاء الليلة الماضية. كانت غاية الرئيس ليست مجرد تحقيق طلب الـ يانكي كليبر Yankee Clipper's ولكن أراد أن يستخدم كرة البيسبول كاستعارة مجازية إذ كان يريد أن يسأل غورباتشوف في الواقع «هل سنلعب بالكرة أم لا؟ هل يمكننا أن ننتقل للأعمال الجدية، ليس فقط في اليومين القادمين، وإنما في الأشهر القادمة؟» يريد الرئيس هنا أن يشير إلى أنه يريد أن يبدأ بالإقلاع بأسرع ما يمكن. وافق غورباتشوف من كل قلبه، بعد ذلك وقعّ كلا الرجلين على كرة البيسبول وعادا للانضمام إلى المكتب الدائري للبدء بجلسة الستين دقيقة مع مساعديهم.

استهل ريغان الخمس عشرة دقيقة الأولى بخطاب حول الأسلحة النووية ولأول مرة خلال فترة القمة استعرض الموضوع الشائك حول حرب النجوم «نحن نمضي قدماً بأبحاثنا والتطويرات الضرورية لبيان فيما إذا كان ذلك قابلاً للتحقيق أم لا». ثم أردف «وإذا كان ذلك ممكناً حقاً فإننا سوف نستخدمه». أثّر ذلك على تقدم المباحثات إلى حد ما منوهاً إلى أنه فيما إذا توصلت كلتا الأمتين إلى اتفاق حول تخفيض الرؤوس النووية بمعدل ٥٠٪ كما هو متوقع فإنها سوف تكون أكثر أهمية في التحول من الهجوم النووي إلى الدفاع النووي، حتى إنه كان واضحاً حين أشار إلى أن

السوفييت لا زالوا يأملون « بتقطيع أوتار » برنامجه علماً أنه ليس لديه أي منها حتى الآن.

أصغى غورباتشوف بتركيز إلى عيني ريغان وهو يلقي خطابه. عندما انتهى الرئيس أجاب القائد السوفييتي « السيد الرئيس، افعل ما تظن أنه يجب أن يفعل، وإذا رأيت في النهاية أن لديك نظاماً تريد أن تستخدمه، استخدمه. من أنا حتى أُملي عليك ما تفعل؟ إني أعتقد أنك تُبذّر أموالك. أنا لا أظن أنك ستنجح. ولكن إذا كان ذلك ما تريد أن تفعله، مهنياً » أضاف بتشاؤم « نحن نتحرك باتجاه آخر ونحتفظ بخيارنا لعمل ما نظن أنه ضروري ويتوافق مع المصلحة الدولية في هذا الوقت، ونحن نعتقد أننا قادرون على عمله بكلفة أقل وبفعالية أكثر ».

كان المنظرون الأمريكان غير واثقين مما كان يعنيه ولكنهم وضعوا عدة تفسيرات محتملة: أن السوفييت مستمرون في تجهيز نظام دفاعهم (الحقيقة التي أشار إليها غورباتشوف في مقابلته الصحفية مع مندوب NBC توم بروكا Tom Brokaw ومنذ أسبوع) وإنهم قد ينقضون القرار الرسمي حول الأنظمة المضادة للصواريخ مما يشل مكونات اتفاقية SDI الفضائية. أو أنهم قد يلجؤون إلى إبطال الاتفاقيات المعقودة ويعيدون إنشاء مصانعهم النووية. في الواقع أراد غورباتشوف من قوله ما يلي: موضوع حرب النجوم لا يحتاج لأن يدرس في هذه الفترة التي تتم فيها مباحثات (الإقلاع)، ولكن إذا بقي غير قابل للحل، وأن الولايات المتحدة سوف تستخدمه فإن كل المراهنات تصبح معلقة وأن موسكو تحتفظ بحقها باتخاذ كل الإجراءات المضادة التي

تراها مناسبة لها. هو لا يعني، كما تذمر ريغان لاحقاً، أنه ترك كل الاعتراضات على SDI، حيث أشار بوضوح أنه سوف لن يدع حرب النجوم بأن تكون (مفشلة القمة) في واشنطن كما حصل في ريكيافيك. لذلك عودة إلى عمل مجموعة مراقبة السلاح من أجل أن تشذب لغة الاتفاق من أجل التوفيق بين وجهات نظر كلا الطرفين السوفييتي والأمريكي كما وصف الناطق السوفييتي غينادي كاراسيموف Gennadi Gerasimov (تأجيل المشاحنات). تلك المهمة التي تركت فريق نيتزه ـ أخروميف Nitze-Akhromeyev مشغولاً طوال تلك الليلة.

انتقلت المباحثات صباح الأربعاء من مراقبة السلاح إلى المسائل الإقليمية. ألمح المساعدون السوفييت قبل أكثر من أسبوع من انعقاد القمة إلى أن غورباتشوف سوف يكشف النقاب عن جدول زمني لسحب قواته الـ ١١٥٠٠٠ مقاتل من أفغانستان خلال مدة ١٢ شهراً. ولكنه لم يفعل ذلك بل عوضاً عن ذلك قال للرئيس ريغان إنه يريد ضماناً بأن تشكل حكومة ائتلافية تحل محل السوفييت في كابول، وأن الولايات المتحدة سوف توقف فوراً مد يد العون إلى المقاومة الأفغانية. رفض ريغان الزحزحة عن موقفه وقال «إن حفاظنا على الخطة الموضوعة هو بسبب رفضك لتحديد موعد للانسحاب» كما قال بفظاظة «أنا لن أساعدك في هذه المشكلة بعدم تقديم العون إلى المقاتلين عن حريتهم». بالرغم من أن غورباتشوف سوف يبدأ باتخاذ الخطوات باتجاه الانسحاب من طرف واحد إلا أنه لم يبدُ هناك أي تحركات وشيكة خلال لقاءات واشنطن. كما أنه لم يكن هناك أي تقدم

من مواضيع أمريكا الوسطى أو الخليج العربي ، أو أي مسائل إقليمية . بالنسبة إلى هذه المواضيع كما حقوق الإنسان ، حققت القمة بعض التقدم بـ (الصراحة المتبادلة) لوجهات النظر .

بعد تناول الغداء في مديرية الولاية ــ الذي حوى على كل الأطعمة الأمريكية المميزة ــ مثل السرطان الملكي من آلاسكا والقريدس من لويزيانا ، والسرطان من ماري لاند ، وجراد البحر من ماين وطبق فطيرة الحلوى في النهاية ــ عاد غورباتشوف إلى السفارة الروسية لعقد جلسات أخرى مماثلة . كان ضيوفه هناك قادة رؤوساء الإعلام والصحافة الأمريكية ، ومن بينهم : رئيس CBS لورنس تيتش Lawrence Tisch ، ورئيس كابل نيوز نيتورك بريزدنت تيد تورنر Network President Ted Turner ومحرر (العلاقات الخارجية) ويليام هيلاند William Hyland ورئيسة واشنطن بوست كاترين جراهام Katharine Graham ورئيس تحرير التايم جيسون ماك مانوس Jason McManus . ابتدأ غورباتشوف بشرح إجراءاته الواضحة ــ التي أصبحت كلاسيكية حتى الآن ــ حول الإصلاح والحاجة إلى تعزيز العلاقات بين البلدين . وكما في الجلسات السابقة كان صريحاً في سرد مشاكل بلاده الاقتصادية . وذكر حول الاتحاد السوفييتي أنه « القوة العالمية من الدرجة الثانية » . تلك الملاحظة التي أدهشت كثير من الغربيين في القاعة والتي تتناغم مع الموضوع والذي يؤكد عليه في بلاده : أن الاتحاد السوفييتي يجب أن يواجه بأنصاف المشاكل في نظامه الاقتصادي . أخبر الناطق السوفييتي جيراسيموف لاحقاً جريدة التايم أنه هذه هي المرة الأولى التي

وصف غورباتشوف بلده فيها بالتقهقر، ونوه جيراسيموف مازحاً «هو يقصد بعد اليابان».

ولكن السكرتير العام أبدى مخاوفه أيضاً لأنه حتى الآن لم يصرح بذلك للجماهير خلال فترة القمة. والذي حمله على ذلك كان سؤالاً عن حقوق الإنسان من روبرت بيرنستين Robert Bernstein رئيس راندوم هاوس Random House لمؤسسات النشر «ما هو الحق الذي يجب على الولايات المتحدة أن تمنحه لنا أو إلى بقية المجتمع الدولي؟»، مشيراً بذلك إلى المجادلة التي حدثت سابقاً مع ريغان حول البنادق الأمريكية الموضوعة على الحدود المكسيكية. بعد ذلك ابتدأ بالتقريع على الصحافة لنشر الإشاعات والافتراءات «ما هذا العمل! الذي لا ينم عن مسؤولية والذي تفوح منه روائح غير طيبة». بتجاهل التقارير الصحفية حول الكرملين، أنزل يده على الطاولة مثل حد السكين وقال بإصرار: «ليس هناك انقسام في المكتب السياسي، ليس هناك انقسام في اللجنة المركزية، ويمكنني أن أؤكد لكم أنه سوف لن يحدث ذلك». ربما شعر أنه جازف قليلاً ونفر رجال الإعلام من جراء المحاورات الحادة والتصريحات القاسية فأضاف ببعض الاعتذار «ربما كنت عاطفياً ولكنني كنت صادقاً».

ترك انفجار غورباتشوف وهيجانه بعض المستمعين بحالة غير مريحة. قال أحد المحررين «هبطت بعض كفات الميزان، بهذا الكبت شق هذا الرجل طريقه إلى قمة القيادة السوفييتية. لقد كان قاسياً وفظاً إلى درجة كبيرة». أدت الجلسة إلى بعض التذمر من مساعدي البيت الأبيض نظراً

لأن حلاوة وضياء غورباتشوف الجماهيري لا يتوافق وينسجم مع خطه القاسي الذي اتخذه في المباحثات الخاصة مع الرئيس.

الجلسة الأخيرة حول مراقبة التسلح ابتدأت صباح الخميس عندما وصل جورج شولتز وبول نيتز إلى السفارة الروسية. هناك قابلا شيفاردنادزه وأخروميف لمراجعة التقدم في المباحثات ونتائج أعمال مجموعات العمل خلال الليلة الفائتة. بعد ذلك غادر كلا الطرفين لفترة وجيزة من أجل إبلاغ قادتهم، وقد كان جلياً أن الموضوع يحتاج إلى عمل ووقت أكثر. نتيجة لذلك فقد ألغي الاجتماع المخطط لريغان وغورباتشوف في الساعة ٣٠ر١٠ صباحاً لإعطاء الفرصة لمجموعة نيتزه—أخروميف لمتابعة جهودها مع مجموعات عملهما. بنفس الوقت قابل غورباتشوف بشكل خاص نائب الرئيس جورج بوش في السفارة الروسية ثم دعاه هو وخمسة ضيوف إلى طاولة الفطور على الكافيار والبليني. كان من أصل الخمسة الحضور ثلاثة من رؤوساء ولايات ايوا وهامبشاير الذين يدعمون حملة المرشح بوب دول. قالت الناطقة بلسان (دول) كاتي بويل Katie Boyle إنها كانت «مندهشة من عدم دعوة بوش لغورباتشوف إلى دي موينز لتنمية أمواله».

لم يذهب نائب الرئيس إلى المدى، ولكنه كان مسؤولاً أمام غورباتشوف لأن يكون الفرع التلقائي للتواصل مع الشعب الأمريكي. أخبر بوش القائد السوفييتي وهما راكبان في ليموزين غورباتشوف في طريقهما إلى

البيت الأبيض: «أنه من المؤسف أن لا يتوفر لديك وقت لتذهب إلى المحازن وتحيي الشعب». بعد برهة صرخ غورباتشوف فجأة في السائق «أوقف السيارة» ووسط دهشة عدة دزينـــات من المشاة العابريـــن لشارع كونيكتيكت وثبت الابتسامة العريضة للقائد السوفييتي خارج السيارة وخطا برشاقة نحو المعترضة الحديدية على الرصيف ووقف كسياسي غربي لامع أمام الجماهير التي احتشدت بغبطة، وتدافعت لمصافحة يده، بينما راح رجال الأمن يبعدون الحشود بعصبية وقسوة. قال غورباتشوف عبر مترجمه إنه أراد من شعبه أن «يقوموا بتفاهم أكثر مع الشعب الأمريكي».

«هذا الرجل عبقري» قالت إحدى النساء باهتياج «لازلت أرتجف» قالت أخرى «لقد كان مثل قدوم المسيح الثاني أو ما شابه». صدف أن كان صاحب المطعم الكبير ديوك زيبرت Duke Zeibert موجوداً على مرآى من غورباتشوف فصرخ من بلكونه داعياً القائد السوفييتي «اصعد وتناول غداءك، لدينا شوربة البورش». سأل بوش الذي بدا منزعجاً في الخارج عندما كان غورباتشوف مع الجمهور، سأل ضيفه لاحقاً لماذا قرر أن يقف، فقال له «إنه فعل ذلك عدة مرات في بلاده»، ثم أردف بوش بعد ذلك «إنه يحب ذلك».

هذه الوصلة كانت المرة الوحيدة التي تصرف بها السكرتير العام خلال كامل فترة القمة خارج الجدول الزمني المحدد للمباحثات الرسمية والعشاءات وجلسات المناقشات من أجل أن يمد يديه للجماهير العامة.

كثير من المراقبين في الواقع كانوا مغرمين بظهوره وفضوله في الاقتراب من الشعب الأمريكي ومعرفة طريقة حياته. عندما اتجه ماداً يده نحو الأمريكان كان يعني أنه لا يدخر وسعاً للتقارب، ودالاً على المسافة القصيرة للتفاهم. بالحكم على المظاهر الشعبية لظهوره خلال القمة بدا يؤكد على أن التواصل هو الطريق ذو الاتجاه الواحد، بينما لم يكن ذلك حقيقياً في المقابلات الخاصة. علق بوش: إن للروس «طريقة غريبة في التواصل» و«تغييراً حيوياً».

يبدو أن تقرير غورباتشوف الشخصي الأفضل كان مع ريغان. إن العلاقة بين الرئيسين تدعمت وأثبتت قدرتها منذ أول لقاء لهما في جنيف عام ١٩٨٦ عندما لم يكونوا يعرفان بعضهما إطلاقاً. وقد اقترح الرئيس فكرة القمة الثالثة عندما كانا يفضلان أن يدعوا بعضهمابعضاً بـ رون Ron وميخائيل Mikhail في جلساتهما الخاصة. ربما لم يكن غورباتشوف مرتاحاً تماماً لهذه الطريقة الأمريكية في رفع الكلفة ولكن صرح بتأكيد قبل مغادرته بقليل «أعتقد أننا أصبحنا نثق ببعضنا أكثر».

قالت نانسي ريغان إلى محرر التايم هوغ سايدي Hugh Sidey «أعتقد أن كلاً منهما الآن قد تفهم إلى حد بعيد أفكار الآخر، يمكنهما أن يتحدثا الآن بصراحة وقد كانا كذلك، كانا يستمتعان بالمقابلة. أنا أعرف أن روني يحب ذلك، والرئيس غورباتشوف يحب ذلك. كلاهما يتفهم أن هناك فجوات كبيرة مثل أفغانستان وحقوق الإنسان، ولكنهما يعرفان أين نقطة

الانعطاف بحيث لا يضغط عندها أحد على الآخر. عندما يصلان إليها، يهدئ كل منهما أعصابه».

بدا البيان الشخصي الحار للعيان في يوم الخميس، عندما وصل الموكب السيار لغورباتشوف إلى بوابة ساوث بورتيكو South Portico للبيت الأبيض من أجل غداء العمل الأخير، أسرع القائد السوفييتي بالحضور نظراً لتأخره، وقد زاد من تأخيره الحشود والأحداث المتدافعة. عندما حيًّا الرئيس ضيفه أشار بظرافة «ظننت أنك عدت لبلادك». ضحك غورباتشوف ثم تمشّى كلا الرجلين مع ابتسامات ودية عبر حديقة البيت الأبيض. استغل الرئيس ريغان المناسبة للضغط مرة ثانية حول موضوع التدخل العسكري السوفييتي في أفغانستان ونيكارغوا. تكلم غورباتشوف بشكل مبهم عن اهتمامه بالسلام في أمريكا الوسطى ولكن لم يعطِ أي إجابات محددة.

عندما كان كلا القائدين يتناولان الغداء مع مساعديهما في قاعة الغداء العائلية كان فريق نيتز ـــ أخروميييف لا يزال مغلقاً في قاعة روزفلت محاولاً إنهاء كافة الأعمال قبل إجراء احتفالات الوداع. كانت أهدافهم: إيجاد صيغة موحدة من أجل تأجيل مشاكل SDI والوصول إلى اتفاق حول (السقف الأعظمي) الذي سيوضع من أجل مختلف أنواع الصواريخ الاستراتيجية .وقاذفات القنابل ضمن إطار التخفيض ٥٠٪ من الرؤوس الحربية لكل طرف. عندما اقترب الغداء من نهايته اعتذر شولتز وسكرتير الدفاع فرانك كارلوتشي Frank Carlucci واللواء كولين بويل Colin Powell،

وذهبوا لمعرفة ماذا أعاق مجموعة مراقبة السلاح. أطال الرئيسان فترة الغداء بانتظار انتهاء عمل أعضاء المباحثات، واندمج غورباتشوف وريغان بحديث عرضي. شرح السوفييت أن النوطات الخضراء الصغيرة التي يعود إليها غورباتشوف مراراً خلال المباحثات كانت ملأى بالأفكار التي استجمعها أثناء غيابه الـ ٥٢ يوماً عن موسكو في الصيف الماضي. خلال هذه الفترة كان هناك ادعاء بأن غورباتشوف يمكن أن يكون مريضاً، وكانت هذه فكرة فاترة على ضوء مشاكله الصحية السابقة. عاد من غيابه الطويل ومعه المخطوط المنتهي تقريباً لكتابه إعادة البناء (البيريسترويكا).

أصبح تمديد فترة الغداء غير مريح للبعض وخاصة حرس الشرف العسكري الذين كانوا متجمعين عند بوابه ساوث لون من أجل مراسيم الوداع. مدير إدارة البيت الأبيض هوارد بيكر **Howard Baker** ذهب إلى مكتب المرشد العام واتصل مع بويل بالهاتف. أجابه بويل إنهم لا يزالون يحتاجون إلى بعض الوقت «أفعل ما يجب أن تفعله». رد بيكر بنزق «ولكنني أستطيع أن أدير دفة الجلسة ما بين الرئيس والسكرتير العام لذلك يفضل أن أنهي هذا الغداء». عاد بيكر فاقترح الانتقال إلى القاعة الحمراء لشرب القهوة. بينما كان بيكر مضطرباً على الهاتف حول المباحثات، كان كلا القائدين يخوضان حديثاً ودياً حول خصائص أن يكون الإنسان سياسياً. أخبر ريغان غورباتشوف أنه راقب طريقة مصافحته على التلفزيون شارحاً أن رجال السياسة الأمريكان يدعون ذلك (تشغيل الجمهور)، ضحك غورباتشوف ورد بما معناه أن القادة السياسيين يتعلمون عادة أكثر

وأكثر خلال تجوالهم في الأقاليم ، أكثر من مكوثهم في العاصمة ، أومأ ريغان بالموافقة على كلامه .

أخيراً وصلت مجموعة مراقبة السلاح والتحقت بجلسة القائدين . غادر غورباتشوف مع حرسه إلى قاعة الخرائط ليشرح له أخروميف النتائج باختصار ، بينما اتجه ريغان إلى المكتبة حيث شرح له شولتز وبويل نص البيان الرسمي . تلا سكرتير الولايات المتحدة معظم الحديث عن التقرير الذي صاغ لغته كلا الفريقين ، ثم نظر ريغان إلى باول نظرة استنطاق : « كل شيء تمام ، سيادة الرئيس» ، قال الجنرال ، وبعد قليل أعطى ريغان موافقته . ثم انضم مجدداً إلى غورباتشوف واصطحبه إلى ساوث لون من أجل مراسم الوداع .

كانت علامات التعب والإرهاق بادية على الرجلين وهما على منصة الشرف بمعطفيهما الداكنين ، ورجلا أمن يحملان مظلتين تقيهما المطر البارد . وبالنظر إلى وجهي الرجلين العابسين بعد فشل قمة ريكيافيك ، فإن بعض المراقبين تساءلوا فيما إذا كانت مباحثاتهما قد انتهت إلى مأزق مشابه هذه المرة أيضاً ، ولكن كلمات ريغان فندت ذاك التساؤل .

كانت القمة (نجاحاً باهراً) وقد صرح أن الرئيسين يمكنهما إيقاف الاجتماعات بعد أن حققا بعض الانجاز . وكان جواب غورباتشوف « إن الزيارة وبشكل عام قد حققت مبتغانا . اليوم ترى الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة قد اقتربا من تحقيق الهدف المشترك وهو تعزيز الأمن القومي ، لكن من أجل تحقيق هذا الهدف فإن هناك عملاً كثيراً بانتظارنا ، وعلينا الآن

وبدون أي تأخير البدء بانجاز هذا العمل». وعندما ترجمت الكلمات الأخيرة للرئيس غورباتشوف من قبل المترجم السوفييتي الخبير فكتور شوخودريف Victor Sukhodrev ابتسم الرئيسان ولأول مرة خلال مراسم الوداع المختصرة تلك، وتصافحا بود.

إن عدم التطرق إلى أي تقدم في مجال الأسلحة الاستراتيجية كان مرده عدم توفر الوقت الكافي لتضمين اتفاق اللحظة الأخيرة في خطاب الوداع والمحضر مسبقاً، ولكن النص النهائي وإيضاحات المساعدين الأمريكيين سرعان ما بيّنت أن الكثير قد تمّ تحقيقه. أما فريق نيتزــأخروميف فتتوفر لديه تعليمات بخصوص المحادثات السوفييتية الأمريكية في جنيف، ويسعى بدوره إلى ترجمة تلك التعليمات إلى لغة اتفاقيات وذلك خلال الأشهر القليلة القادمة، وبالتحديد في الوقت الذي سيقوم به الرئيس ريغان بزيارة موسكو وذلك في النصف الأول من عام ١٩٨٨.

على ضوء ما تمّ الاتفاق عليه في ريكيافيك، فإن الخطة قد دعت إلى تخفيض، مقدراه ٥٠٪ على الرؤوس النووية، حتى تصل إلى ٦٠٠٠ رأس نووي لكل طرف، ومن تلك الصواريخ، العابرة للقارات، وتلك المتمركزة تحت سطح البحر والتي حددت بـ ٤٩٠٠ صاروخ، ولا يمكن نشر أكثر من ١٥٤٠ رأساً نووياً على صواريخ متعددة الرؤوس النووية. وقد اتفق الطرفان أيضاً على رسم خطة تحديد إنتاج ١٦٠٠ مجموعة متضمنة

زوارق صاروخية، وقاذفات، وغواصات... إلخ. أما إجراء المراقبة فقد تأجلت إلى أن يتم إيجاد السبل الكفيلة لتحقيقها، ولو أن بعض الأمريكيين قد رأوا أن التفتيش المبكر على المواقع سوف يؤدي إلى إيجاد تلك السبل. حيث قال شولتز متفائلاً: «إنكم تستطيعون ومن هذا التصريح المشترك رسم الشكل المناسب للتوصل إلى اتفاق».

إن مسألة حرب النجوم وكيفية التوصل إلى اتفاق بهذا الشأن لم تكن أقل أهمية من المواضيع التي سبقتها، فقد كانت الصيغة التي توصل إليها الطرفان بهذا الخصوص مبهجة بعض الشيء، وكانت الغاية تأجيل مناقشة تلك القضية إلى يوم آخر. كان الهدف من مباحثات جنيف هو التوصل إلى اتفاق يلزم الطرفين مراعاة اتفاقية (ABM) والتي تمَّ التوقيع عليها عام ١٩٧٢، بينما يستمر الطرفان بأبحاثهما وتجاربهما مع عدم التخلي عن الاتفاقية في أي وقت من الأوقات، ونستطيع أن ندرك من خلال ذلك أن الرئيسين توصلا إلى وفاق يسمح لهما باتخاذ مواقف متقابلة في (SDI) في الوقت الراهن على أقل تقدير. وقد حصل السوفييت على التزام أمريكي بعدم التنصل والتخلي عن اتفاقية (ABM). ويحق لإدارة ريغان متابعة إجراء التجارب في مجال برنامج حرب النجوم ما دام ذلك لا يتعارض مع الاتفاقية وينتهكها. أي كما شبهها أحد الأعضاء المشاركين بالقمة «اتفقا على ألا يتفقا».

هذا لا يعني أن غورباتشوف قد استسلم إلى مسألة نشر نهائي (SDI)

ولكنه تخلى فقط عن محاولته جعل الرئيس يقبل أي صيغة تحدد، وبشكل صريح، قضية حرب النجوم. إن غورباتشوف يدرك ضغط الميزانية الذي يمارسه الكونغرس على تلك التجارب، ولن يتم اتخاذ أي إجراء حتى التسعينيات. وقد حصل على التزام من الرئيس ريغان بعدم الانسحاب من اتفاقية (ABM). ويبدو أن الرئيس غورباتشوف عازم على انتظار الرئيس القادم وطرح السؤال التالي: «ماذا تعنيه الاتفاقية؟». ولكن بعد نشر رسالة مستشار الأمن القومي مستر باول وقد مضى ثلاثة أسابيع على انقضاء القمة، فإن السوفييت لهم الحق في الانسحاب من أية اتفاقية للأسلحة النووية إذا ما انتهكت الولايات المتحدة اتفاقية (ABM)، وكان واضحاً أن موضوع حرب النجوم لم يوضع جانباً.

إن اليوم الأخير من زيارة غورباتشوف لم ينته بمراسم الوداع المعتادة في البيت الأبيض، حيث كان هناك جولة للرئيسين في الأسواق التجارية. وفي الساعة الرابعة بعد الظهر عاد الرئيس إلى السفارة وترأس اجتماعاً حضره خمسون من كبار رجالات الأعمال ورجال المصارف الأمريكيين، حيث أراد إقناع الحاضرين بضرورة الاستثمار في بلاده، وفي هذا الوقت الذي أصبحت فيه السياسة السوفييتية والأمريكية متقاربة أكثر من أي وقت مضى. وقد أظهر أعظم قائد شيوعي بعض ردود فعلية الإيجابية أمام هؤلاء الرأسماليين الكبار. أما جاك فالنتي Jack Valenti وهو رئيس اتحاد السينمائيين، فقد قال للرئيس السوفييتي «بأنه قد اكتسب قدراً كبيراً من الشهرة حيث أنه يحتل المرتبة الثالثة في أولويات ايوا Iowa، ولكن غورباتشوف ضحك ورد عليه

قائلاً « ولكنني عاطل عن العمل الآن » . فأجاب فالنتي : « نحن في هذا البلد نستجر الإنسان » .

واتجه بعد ذلك السكرتير العام مسرعاً إلى مبنى السفارة السوفييتية الجديد في منطقة مونت ألتو Mount Alto وذلك من أجل عقد مؤتمر صحفي حضره أكثر من ٤٠٠ صحفي أمريكي وأجنبي ، وبعد وصوله متأخراً ١٥ دقيقة جلس وراء طاولة طويلة محاطاً بستة أعضاء من وفده ، من بينهم شيفاردنادزه والكسندر ياكوفلوف عميد الدعاية في الكرملين وأناتولي دوبرينين سكرتير اللجنة المركزية والمسؤول عن السياسة الخارجية ، وبدأ بعد ذلك غورباتشوف بمخاطبة الحضور حيث لخص وخلال سبعين دقيقة محادثاته مع الرئيس ريغان ، وقد أطلق الرئيس السوفييتي على القمة « إنها حدث هام في السياسة العالمية » وأضاف بأن هناك حواراً سياسياً عميقاً بينه وبين الرئيس الأمريكي وأنه « وعلى أعلى المستويات في بلدينا أصبحنا مدركين أننا نبتعد بعيداً عن المواجهة فيما بيننا » .

في تناوله لبعض الأمور التي تطرق إليها الطرفان في القمة بدأ غورباتشوف يلمح ويبدي بعض الومضات الاختبارية مردداً كلماته الأولى مع الرئيس ريغان بخصوص (SDI) وأضاف مازحاً « إذا كان الأمريكيون يملكون هذا القدر الكبير من المال ، فلينفقوه ! فإننا سوف نجد حلولاً لمسائلنا من خلال طرق أخرى » . وفي موضوع حقوق الإنسان فقد كانت كلماته أشد قسوة قائلاً : « إن هناك ٢٢٠ إنساناً فقط لم يسمح لهم

بالهجرة والسبب هو طبيعة عملهم، بينما أظهرت صحيفة (ساعة هلسنكي) العدد على أنه ١١٠٠٠ إنسان». وأضاف «لا يهم ما قد تقولونه ولا يهم مهما صرختم في وجوهنا، إننا لن ندعهم يرحلون قبل تبخر الأسرار التي بحوزتهم». بعد ذلك شنّ السكرتير العام هجوماً عنيفاً على الصحافة مذكراً الحضور بسلوكه أمام رجال الإعلام، ملوحاً بيديه في الهواء، وبروز شفته العليا، فقد اتهم الصحافة بأن الشيء الوحيد الذي تسعى إليه هو إجراء مقابلات، الغاية منها إحراجه بقضية حقوق الإنسان، وكأننا نوافق على مقابلات لحصر السياسيين وإحراجهم، وليس البحث عن الحقيقة، فهل هذا يعتبر حواراً؟ وهل هذه تعتبر مقابلات؟. ليس هذا هو دور الإعلام. ثم صمت قليلاً وضم راحتيه إلى بعضهما وابتسم فجأة، وخاطب الصحفيين تماماً كما يفعل مدير المدرسة مخاطباً تلامذته قائلاً: «فكروا كثيراً بهذا الجزء من حديثي».

إن هذا الإنفعال والمراوغة في الأجوبة وعلى معظم الأسئلة التي تلت ذلك يوضح الحاجز ما بين ما يدعيه إعادة البناء (الغلاسنوست) والمفهوم الغربي لحرية الصحافة. بعد التهجم على الإعلام ـــ تلك الوسائل التي يحتاجها كثيراً لكسب نقل رسالته للعالم ـــ عاد فذكر الخلل والتصدّع في أجواء العلاقات العامة الإنسانية. في تعليقه في المؤتمر الصحفي في واشنطن بوست كتب توم شيلز أن السكرتير العام «مزق الترحاب به بانتقام». هذا الحكم يبدو مبالغاً فيه. ولكن عندما كان موكب غورباتشوف الأليوشن يتخطى الشوارع ليلة الثلاثاء، كانت سماء واشنطن تمطر، وكان

جلياً أن بعض النشاط الذي رافق الزيارة قد هبطت حدته إلى حد ما. بالرغم من أن رايسا زوجة غورباتشوف قد أبدت إعجابها بتوماس جيفرسون ولكن من غير المعقول أنها تستطيع أن توصل القائد السوفييتي إلى مستوى الديمقراطية الجيفرسونية. قال أحد مساعدي البيت الأبيض: «لدى الشعب الأمريكي الآن مفهوماً أفضل في أنهم لا زالوا يتعاملون مع ماركسي ـ لينيني هنا، وأنه لا يزال سوفييتياً». صحيح ولكنه سوفييتي يختلف عما سلفه. «قارن الطريق الذي ارتحلناه منذ ستالين وحتى غورباتشوف، مع الطريق الذي ارتحلته من روزفلت حتى ريغان» قال الكاتب فيدور بورلاتسكي Fyodor Burlatsky، عضو وفد القمة الموسكوفي، «يجب أن توافق على أننا سلكنا الدرب الأطول» وكان صادقاً في كلامه.

يبدو أن زيارة غورباتشوف لواشنطن بشرت بطور جديد من الكفاح ٤٠ سنة ما بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، بالرغم من أن نتائج القمة وزعت الأحقيات، وحققت قدماً أحلام الشعوب وبخاصة مجريات أحداثها. في الدبلوماسية وبخاصة في عصر التلفزة أظهر الإدراك العلني أن التوتر قد انخفض إلى حد بعيد. الذي حدث خلال أسبوع من الشهر الثاني عشر من عام ١٩٨٧ هو تغيير المفاهيم ـ للأفضل ـ لكلا الطرفين. عندما انتهى كل شيء صرح ريغان أن اللقاء قد «جعل السماء ملآى بالآمال الطيبة لكل الشعوب». كان ذلك أكثر من مجرد مبالغة. أحياناً كانت تحدث بعض الأمور غير العادية: عشرات البيانات والتقارير عن

الحرب الباردة الضارية التي تحتل حيزاً كبيراً من المحادثات والاجتماعات. ولا يتنازل أي طرف من الأطراف عن مواقفه الأيدلوجية التي كانت تنابذ القوتين العظيمتين، ولكنهم تعلموا أن يعملوا، حول خلافاتهم، وأن يبنوا أرضاً مشتركة لإنشاء تفاهم أكثر. لذلك لم يأل غورباتشوف جهداً في اغتنام الفرصة العظيمة.

كانت قمة واشنطن حدثاً عظيماً خلال رئاسة غورباتشوف. عاد القائد السوفييتي إلى موسكو وبيده نجاحات دبلوماسية قوية. إن الاتفاق على معاهدة (INF) دليل على أنه عرف كيف يتعامل بمكاسب كبيرة مع النظرة الغربية المضادة للشيوعية، ويستطيع الآن أن يعلن أنه استجر ريغان إلى التوقيع على معاهدة (ABM). والأهم من ذلك استطاع أن يتوصل إلى نصر في العلاقات العامة خلال فترة رئاسة ريغان المزيلة، ومن خلال النظرة النفسية الأمريكية المبدئية مما اكتسب صفة الإنجاز الذي وضع أرضاً صلبة للتعاون الأمريكي ـــ الروسي في المستقبل. بالنسبة للرأي العام السوفييتي لا زالت عالقة في الذاكرة أيام الحرب العالمية الثانية والأربعون سنة التي تلتها بالتحديات ما بين القوى العظمى، مما أجاز اعتبار هذه القمة إنجازاً لا يستهان به.

المهمة التالية التي واجهها غورباتشوف هي تحويل سياسته الجديدة إلى مكاسب في الوطن، حيث لا زال يواجه التحديات المروعة. في الأول من كانون الثاني عام ١٩٨٨ أي بعد ثلاثة أسابيع فقط من القمة صدر قانون جديد للمؤسسات التجارية في الاتحاد السوفييتي. هذا الإجراء وضع ٦٠٪

من الصناعة السوفييتية في حالة (استقلال مالي ذاتي) وأن آلاف المدراء الذين كانوا يتلقون الأوامر من موسكو ببيروقراطية فاشلة قد أجبروا فجأة إلى اتخاذ القرارات تلقائياً. رافق هذا الانقلاب الجذري بعض التمزق والبلبلة بحيث لم يكن واضحاً فيما إذا كان المستهلك الذي عانى الأمرّين لردحة طويلة من الزمن سوف يستفيد من هذه الإجراءات في القريب العاجل أم لا! على اعتبار أن الابتكارات الاقتصادية لا زالت تواجه عوائق كبيرة. أخبر غورباتشوف مجموعة من المحررين السوفييت في كانون الثاني: «إذا أخذنا الخوف وتوقفنا فنحن بدأنا، وسيكون لذلك نتائج هامة جداً، لأننا ببساطة لا نستطيع أن ننهض بشعبنا إلى مستوى هذه المسؤولية العظيمة مرة ثانية».

لقد عززت القمة من سمعة غورباتشوف في الخارج وخاصة في أوروبا الشرقية، حيث قوبل التوقيع على معاهدة الحد من الصواريخ متوسطة المدى بالحماس المشجع، وخلال توقفه في برلين الشرقية حيث التقى بقادة من دول حلف وارسو، استقبل الزعيم السوفييتي بالترحاب من قبل آلاف الألمان المهللين أثناء دخول موكبه إلى المدينة. وبعد المعانقات المعهودة مع غورباتشوف، وصف قادة المعسكر الشرقي المعاهدة بأنها «خطوة ذات أبعاد تاريخية».

في غمرة نصره الدبلوماسي، أطلق غورباتشوف العنان لجهوده المنصبة على حل أزمته الخارجية المؤلمة: أفغانستان، وبالرغم من أن الأمين العام رفض

تحديد تاريخ قطعي للانسحاب خلال مباحثاته مع ريغان، إلا أنه لا بد قد استنتج بأن الحل الوحيد للمعضلة المستنزفة هو انسحاب القوات السوفييتية. وبعد شهر من عودة غورباتشوف من واشنطن قام وزير الخارجية شيفاردنادزه بزيارة إلى كابول ليخبر القائد الأفغاني نجيب الله «نرغب أن يكون عام ١٩٨٨ آخر سنة للوجود السوفييتي في بلدكم». وفي وقت لاحق نشرت البرافدا نبأ مفاده أن القوات قد تبدأ بالعودة إلى الوطن بحلول الأول من أيار. وكان على العالم أن يستنتج التفاصيل إلا أن ما نشر كان صحيحاً: غورباتشوف أراد الخروج، وفي أوقات مختلفة من أسبوع واحد تمّ تجريد مدينة فولغا وإحدى ضواحي موسكو وواحدة من ساحات لينينغراد من اسم القائد الذي أطلق القرار المدمر باجتياح أفغانستان أي ليونيد بريجينيف.

وظهرت بشائر ودلائل أخرى في مجال حقوق الإنسان، فقد سنّت الحكومة في بداية كانون الثاني قانوناً يمنع التعسف النفساني. إذ أن المرضى سيحظون بالحماية ضد الاعتقال القضائي في المستشفيات النفسية، الذي استخدم بشكل واسع في السابق، كتكتيك لإسكات المنشقين، كما منحوا إعادة الاعتبار بشكل شرعي ضد سوء المعاملة. وإذا تعزز هذا القانون، فسوف يشكل خطوة رئيسية من أجل وضع حد لأحد أسوأ أشكال القهر السياسي في الاتحاد السوفييتي. بعد مرور أسبوع ظهرت بوادر فأل مشجعة حيث قابل غورباتشوف فريقاً من حماة السلام العالمي وحقوق الإنسان كان

يضم العالم الفيزيائي أندريه زاخاروف. كان ذلك هو الحوار الأول بين زعيم سوفييتي ومنشق مخضرم.

إلا أن الحد من التسلح شكَّل التحدي الأكبر القائم هنا وهو في الواقع جوهر الإصلاح الغورباتشوفي. إذ أن نقل المال والتحول من الحقل العسكري إلى مجال الاقتصاد الوطني أصبح عنصراً رئيسياً في حملة البيريسترويكا. لقد وقع لتوه مع ريغان اتفاقية تخفيض الصواريخ النووية المتوسطة المدى، التي أدت إلى تدمير ٤٪ من الترسانة النووية للدول العظمى، فانتقلا الآن للحديث بجدية عن تخفيض الرؤوس الحربية الباقية إلى النصف. ومع أن مناقشات حرب النجوم ظلت تحوم فوق المباحثات كسحابة سوداء في يوم نزهة، إلا أنه لوحظت آمال واقعية في إمكانية توقيع معاهدة للأسلحة الاستراتيجية أثناء زيارة ريغان المتوقعة لموسكو في نهاية الربيع أو الصيف كمحاولة لاستثمار سحره على الشعب السوفييتي.

سيعطي التاريخ حكمه على مدى نجاح هذه الجهود عندما يقيم ما حققه كل من القائدين من نجاح أو فشل، ولابد من القول إن غورباتشوف وخلال أقل من ثلاث سنوات في منصب الأمين العام قد ألهب الخيال الغربي الذي قضى عقوداً في انتظار زعيم سوفييتي يتحلى إضافة إلى العقلانية بقليل من الجاذبية والمودة، ولا بد أنه ينفرد بمزاجه الخاص، ونظرته الديكنزية عن المجتمع الأمريكي وبعناده العقائدي. وبالطبع ظل الاتحاد السوفييتي منطقة دمار اقتصادي وكابوس بيروقراطي، وطغمة عسكرية

وحرمان من حقوق الإنسان ومن أكثر الأفكار التي تعيق الاتفاق، وأن فكرة الخوف هي من أن يكون عصر غورباتشوف مجرد أكذوبة مخادعة، وبأن تنتصر قوى الامتيازات والمناصب في النهاية كما فعلت ضد نيكيتا خروتشوف عام ١٩٦٤.

على أي حال ظلت مقومات التفاؤل قائمة في الشهور الأولى من عام ١٩٨٨، إذ أن هذا الرجل القادم من ستافروبول والذي عمل سائقاً على حصّادة وعانى الأمرّين من المجاعة والحرب، وعد بإجراءات مؤملة بعد القهر الستاليني، ومن غير المحتمل أن يجرّ بلده بمحض ارادته ويعيده إلى أيام القمع الحالكة، والتقشف الاقتصادي، والتهجم (الشتائم) الدولي. مع أن ميراث غورباتشوف سيظل دون شك قيد الانجاز باستمرار طوال سنوات، إلا أنه تبين حتى الآن أنه قد منح الاتحاد السوفييتي والحلفاء والأعداء هبة لم يتلقوا مثلها من أي قائد سوفييتي في الماضي، إنه الأمل.

من أقوال السكرتير العام

حول سياسية الانفتاح (الغلاسنوست) في الاتحاد السوفييتي:

يجب علينا ألّا نتظاهر بأن كلّ شيء يسير على مايرام... نحن جميعاً نهتم بالاشتراكية ونسعى لجعلها جذابة قدر المستطاع، ولكن إذا ما بولغ في الأمور، ولفقت أشياء لا أساس لها من الصحة، عندئذ ستأخذ الأمور مجراها نحو الأسوأ.

عن خطاب متلفز في رومانيا ـ أيار ١٩٨٧

إن الانفتاح، والنقد والنقد الذاتي هي بكل بساطة حاجات ماسة لنا... وإذا اعتقد أحدهم أننا نحتاجها فقط لنحول عجز الماضي إلى النقد، فهو لعلى خطأ عظيم.

كما أنه لمن الأهمية بمكان اعتبار الانفتاح والنقد والنقد الذاتي كضرورات لدفعنا إلى

الأمام، ولأجل حل معضلاتنا الصعبة. ومن دون مشاركة الشعب الفعالة فلن تجد تلك المشاكل طريقها إلى الحل. هذا ما نريده من كل ذلك.

عن خطاب في اجتماع اللجنة المركزية ــ كانون الثاني ١٩٨٧

دعونا نطبق المبدأ القائل: كل شيء لا يحظره القانون فهو مباح.

من كتاب البيريسترويكا لغورباتشوف ــ ١٩٨٧

حول مسألة الديمقراطية:

نحتاج إلى الديمقراطية كحاجتنا إلى الهواء. أما إذا لم نضع ذلك في اعتبارنا، وحتى لو كان الاعتبار قائماً ولكن بدون اتخاذ إجراءات فعلية لتوسيع الديمقراطية وتطويرها، وبدون زج الطبقة العاملة في عملية إعادة بناء البلاد، فإن سياستنا ستبوء بالفشل، وسوف تختنق عملية إعادة البناء تلك، أيها الرفاق.

في جلسة كانون الثاني ١٩٨٧

لايوجد في بلادنا حزب معارض، إذن كيف يمكن لنا أن نسيطر على أنفسنا؟ سيكون ذلك فقط عبر النقد والنقد الذاتي. وأهم من هذا كله عبر سياسة الانفتاح فلا ديمقراطية بدون الانفتاح. وفي الوقت ذاته تتحول الديمقراطية إلى فوضى إن تجاوزت حدودها.

في اجتماع مغلق للكتاب السوفييت ــ حزيران ١٩٨٦

إن للطبقة العاملة دوراً في كل شيء، تلك البلاد هي بلادهم، وهذا النظام هو نظامهم، كما أن هذا المجتمع هو مجتمعهم: إنهم هم المسؤولون. إن المنظمة الحزبية وكوادرها جميعها في خدمة هؤلاء الناس، كما أن الحزب بكامله موضوع في خدمتهم — وليس العكس.

من خطاب في مورمانسك — تشرين الأول ١٩٨٧

حول الطلائع الفكرية:

تستمد السياسة غذاءها في كل بلد من رجل الفكر ذلك لأنه يضع دوماً الإنسان في مركز اهتماماته. عدا ذلك فأي تركيز آخر هو لا أخلاقي. لقد قرأت وقرأت مؤلفات لينين، وهو الذي كتب عام ١٩١٦ يقول: «يجب أن توضع الاهتمامات العامة المتعلقة بالإنسانية قبل كل شيء، حتى قبل مسألة البروليتاريا».

في حديث مع الكاتب المسرحي الأمريكي آرثور ميللر — ١٩٨٦

حول مسألة القيادة:

إن الثوري ليس ذلك الشخص الذي يستعمل عبارات ثورية، بل هو ذلك الشخص الذي يعرف كيف يخطط قدماً، وكيف يستحث شعبه وحزبه في نضال طويل ومحموم، مراقباً كل خطوة ناجحة، مسخراً إياها كموطئ قدم لأجل خطوة أخرى أعظم.

في جلسة كانون الثاني ١٩٨٧

نحن لم نصل مرامنا بعد، قد لا يكون جميع ما نتخذه اليوم من قرارات صحيحاً، وقد نخطئ في بعض الأشياء. ولكننا نريد أن نتحرك لا أن نجلس بأيدٍ ملأى نتفرج على عملية إعادة البناء تمر من أمامنا.

في اجتماع الكتاب السوفييتي ــ ١٩٨٦

حول المشاكل الاقتصادية السوفييتية:

اقتصادنا فوضى، نحن في الخلف في جميع المجالات. في عام ١٩٦٩ في ستافروبول كان لدينا مشكلة، حول كيفية التصرف بكل اللحم والحليب. كما تكدست الزبدة حينذاك أيضاً. أما الآن فلا نجد من تلك المواد شيئاً. لقد نسينا تماماً ماهية العمل. وليس هذا فقط، بل نسينا كيف نعمل في أجواء من الديمقراطية.

في نفس الاجتماع السابق

إننا نجد أن بلادنا تعيش تناقضات حادة... لقد التقت صواريخنا مذنب هالي بدقة مذهلة، كما طارت في موعد مع الزُهرة، ومع هذا كله نجد أن التلكؤ الواضح في التطبيق العملي للانجازات العلمية المتعلقة بالحاجات الاقتصادية، والعيوب التي تثار حول الأدوات المنزلية المغشوشة يسير جنباً إلى جنب مع ذلك النصر في الأبحاث والهندسة.

عن خطاب براغ ــ نيسان ١٩٨٧

حول سياسة الفكر الجديد (البيريسترويكا):

عموماً، يتصادف أحياناً أن تكون الحياة عبارة عن منزل جيد بأساسات متينة وبهيكل موثوق به، ولكن في الوقت ذاته يوجد في الحياة الكثير من الأشياء التي لم تعد تسرنا، والتي تداعت خلف ستار الحاجات والمتطلبات المتزايدة. وفي هذه الحالة لا تكفي الاصلاحات الثانوية إذ أن هذا الأمر يتطلب بحثاً جذرياً.

عن نفس الخطاب السابق

علينا أن نتعلم كيف نحدد ونكشف، ونجعل على الحياد خصوم وأعداء (البيريسترويكا)، هؤلاء الذين يعملون ما في وسعهم ليعيقوا تقدمنا ويحبطوه، أو الذين يتشفون منا في الصعوبات والعوائق التي تعترضنا، أو أولئك الذين يجتهدون في سحبنا إلى الوراء. كما يجب ألّا ننجرف في تيار الحماس المفرط وقلة الأناة... بل يجب أن نعلم تماماً أن المرء لا يستطيع أن يتجاوز خطوات عديدة مهمة، في محاولة لتحقيق كل شيء في جولة واحدة.

من خطاب بمناسبة الاجتماع السابع والعشرين ــ شباط ١٩٨٦

على الجميع أن يعملوا بجد أكثر. وأشدد، أيها الرفاق، الجميع... أولئك الذين يستمرون على نهج التقنيات والوسائل البالية يجب أن يقوموا، أما إن لم يكن هذا ممكناً، أو إذا أبدى البعض عناداً وممانعة، ولم نستطع انتزاعهم من مستنقع عقيدة الماضي وفكره، عندها يجب أن ننسلخ عن هؤلاء، وأن ندعهم في ذلك المستنقع، حيث تحيد البلاد عنهم وهي ماضية في طريقها إلى الأمام.

من خطاب إلى عمال خاباروفسك ــ تموز ١٩٨٦

لقد بدأت مرحلة عميقة وجدية ، كما تلوح لنا ملامح نضال عميق وجدي أيضاً . وبين هؤلاء الذين يرغبون بالتحول ، ويحلمون به ، وبين القيادة ، تتوضع طبقة وظيفية لا ترغب بذاك التحول ، ولا تريد التخلي عن بعض الحقوق المتعلقة بالامتيازات ... كثيرون جداً هم الذين يستغلون مراتبهم ، كما أنه لم يستغلَّ شيء آخر قدر ما استغل المنصب الوظيفي .

في اجتماع الكتاب السوفييت ــ عام ١٩٨٦

إنني أؤمن تماماً بما بدأناه ، أؤمن أشد الإيمان . ولو حتم عليَّ أن أوقف عملية البناء تلك ... لما وافقت على ذلك أبداً . أنا أرفض أي سياسة أخرى . إذاً ، بالنسبة لي أنا ، ليس هناك أي طريق آخر .

خلال زيارته لاستونيا ــ ١٩٨٧

ليست إعادة البناء مشواراً على طريق ممهد ، إنها عملية تسلق جبل ، وعلى الأغلب عبر دروب لم تطرق بعد .

في جلسة كانون الثاني ــ ١٩٨٧

ليس هناك أي بديل معقول لعملية إعادة بناء ثورية وديناميكية . سيكون البديل استمرارية الركود ... إن قيمة الرهانات لعالية جداً . لقد أملى علينا الزمن خياراً تاريخياً ، وقد تبنينا ذلك الخيار . لن نتراجع عن خيار (البيريسترويكا) بل سنمضي به قدماً .

من كتابه بيريسترويكا أو (إعادة البناء)

لنفرض أن الخوف قد تملّك بنا، وأننا أوقفنا كل ما بدأنا به، فسيكون لذلك أوخم العواقب، إذ أن هذا يعني أننا وببساطة لم نستطع أن نسمو مرة ثانية بشعبنا إلى مستوى، هكذا مهمة جماهيرية ... التراجع الآن يعني الكارثة، ويجب ألا نسمح به تحت أي ظرف كان.

في حديث إلى مجموعة من رؤساء التحرير السوفييت ـــ كانون الثاني ١٩٨٨

حول أمور العالم الأخرى:

إن سياستنا الخارجية اليوم هي وبشكل مباشر وليدة سياستنا الداخلية إلى حد كبير، بل حتى وأكبر من ذي قبل. نقولها صراحة كي يسمع الجميع: نريد سلاماً دائماً كي نولي اهتمامنا شطر تطور مجتمعنا، ونحو معالجة المهمات المتعلقة بتطور مستوى معيشة الشعب السوفييتي.

في مأدبة عشاء أقيمت على شرف رئيسة وزراء بريطانيا
مارغريت تاتشر ـــ آذار ١٩٨٧

إن الغرب يترقب أية بوادر ضعف تصدر من الاتحاد السوفييتي، إنهم يدّعون أن السوفييت لا جدوى منهم، وأن نظامهم لا طائل تحته، وأنه قد ثبت أن هدف الاشتراكية قد ذهب بكامله أدراج الرياح. ولهذا السبب يفترض أنه يمكن انتزاع أي تنازل منهم تحت ممارسة ضغوط معينة ومناسبة، أن هذا لضلال عظيم.

في نفس المناسبة السابقة

نحن سعداء بما نملك. فلدينا ما يكفينا، مع أنه ليس لدينا ما نقتصده.

في مقابلة مع الصحافة الهندية ـ تشرين الثاني ١٩٨٦

إن العالم اليوم هو عالم تلوح فيه بوادر صراع بين العقل والجنون، بين الأخلاق والتوحش، وبين الحياة والموت. ونحن قد حددنا مكاننا في خضم هذا الصراع بشكل قاطع ونهائي. ولهذا فنحن مع الحد من التسلح، وعلى وجه الخصوص التسلح النووي، ومع خلق نظام أمن عام. تلك هي الطريقة الوحيدة التي يؤمّن بها الجنس البشري بقاءه.

من نفس الحديث السابق

إن رئيسكم ريغان لن يستطيع تحقيق السلام حتى ولو أراد ذلك، لأنه يرزح تحت تأثير عقدة التصنيع والتسليح.

في حديث إلى الصناعي الأمريكي أرماند هامر ـ ١٩٨٦

إن أمم العالم أجمع تتكل على بعضها البعض هذه الأيام، تماماً كما يتعلق متسلقو الجبال بحبل واحد. فهم إما يصلون سوية إلى أعلى القمة، أو يهوون سوية إلى الحضيض.

خطاب براغ ـ نيسان ١٩٨٧

إن الغرب يتحدث عن وجود تفاوت، وعن وجود خلل وعدم توازن. حسناً، يوجد بعض من اللا تماثل في القوى المسلحة في كلا الطرفين بأوروبا، ويعزى ذلك لعدة

عوامل تاريخية وجغرافية ولأشياء أخرى . نحن الآن في صدد إصلاح الخلل الموجود في بعض من تلك العناصر ، ليس من خلال بناء البنية العسكرية للحزب الحاكم، بل من خلال تخفيض القوة العسكرية للحزب الذي ترك السلطة .

من نفس الخطاب السابق

إن مسألة الأمن هي مسألة لا تقبل التجزؤ ... ويجب أن يرتبط أمن كل أمة بأمن كل من يمتّ لمجتمع الأرض كافة بصلة ... على الخصوم أن يصبحوا زملاء ، وأن يبحثوا سوية عن سبل تحقيق الأمن العالمي .

من كتاب البيريسترويكا

حول الدول الاشتراكية الأخرى :

نحن نعتقد بأننا لا نستطيع أن نقدم أفضل الإجابات على أسئلة وضعتها الحياة ذاتها . لا نريد أن ندفع الآخرين دفعاً كي يسيروا على خطانا خبط عشواء ، كل بلد اشتراكي فريد بحد ذاته ، حيث تصيغ الأحزاب سياساتها من صميم المواصفات القومية .

من خطاب براغ ـ نيسان ١٩٨٧

حول حقوق الإنسان :

من غير المعقول أن يكثر المرء الكلام عن حقوق الإنسان ، ويخطط في الوقت ذاته

لزرع الفضاء الخارجي بمجموعات من الأسلحة، ذلك الزرع إن دل على شيء فإنما يدل على بوادر إبادة شاملة للجنس البشري. وما عدا ذلك فبريقه زائف.

من كرّاسة بعنوان (وثائق وضمانات لعالم آمن ــ أيلول ١٩٨٧)

أوافق على المبدأ الذي يقول بأن العالم لا يمكن أن يعتبر آمناً في حين تنتهك حقوق الإنسان. ولكنني سأضيف ما يلي: لا يمكن للعالم أن يعتبر آمناً طالما يفتقر قسم كبير منه لأوليات سبل عيش الإنسان، وطالما أن للملايين كل (الحق) في الجوع، في الحرمان من سقف يظلهم، وفي الحرمان الوظيفي وفي المرض... وأخيراً طالما أن أهم حقوق الإنسان، ألا وهو حق الحياة، يقبع في زوايا مهملة.

من نفس الكرّاس السابق

حول إعادة النظر في التاريخ السوفييتي:

يجب ألا يكون هناك أسماء منسية وصفحات بيضاء في أدراج التاريخ والأدب السوفييتي.

في اجتماع لرؤساء التحرير السوفييت ــ شباط ١٩٨٧

يثار في هذه الآونة الكثير من الكلام حول دور ستالين في تاريخنا، لقد كانت شخصية ذلك الرجل ذات تناقضات حادة. وإخلاصاً منا للحقيقة التاريخية علينا أن ننظر إلى كل من مساهمة ستالين في النضال الاشتراكي، وفي الذود عن مكاسبه، وإلى

الأخطاء السياسية الفادحة والمساوئ التي ارتكبها هو وأولئك المحيطون به، تلك التي كلفت شعبنا ثمناً باهظاً، والتي كان لها أوخم العواقب على الحياة في مجتمعنا.

في خطاب بمناسبة الذكرى السبعين للثورة البولشفية ـ تشرين الثاني ١٩٨٧

إن ذنب ستالين وأتباعه أمام الحزب والشعب لأجل كافة الإجراءات القمعية والتصرفات اللاشرعية التي قام بها هو ذنب عظيم لا يغتفر، إنه درس لجميع الأجيال قاطبة.

نفس المناسبة السابقة

حول عهد بريجينيف:

في غضون عدة سنوات... بقي النشاط العملي للحزب وأجهزة الدولة يراوح خلف متطلبات العصر والحياة ذاتها. كانت المشاكل تنمو بسرعة لا تتناسب والحلول. لقد ضرب الجمود والشلل جميع أشكال وأساليب الإدارة، وغابت عنا ديناميكية العمل، كما شهدنا نمو البيروقراطية ـ لقد أضرّ هذا كله قضيتنا أبلغ ضرر.

في الاجتماع السابع والعشرين ـ شباط ١٩٨٦

حول الاشتراكية والمساواة:

حول هذه النقطة نريد أن نكون واضحين كل الوضوح. ليس للاشتراكية شأن

بعملية المساواة. إذ لا يمكن للاشتراكية أن تؤمّن أحوال المعيشة والاستهلاك تبعاً للمبدأ القائل «كل حسب قدرته، وكل حسب حاجاته»، إن هذا شأن الشيوعية وحدها. أما الاشتراكية فلها مقاييسها المختلفة في توزيع الخدمات الاجتماعية: «كل حسب طاقته، وكل حسب عمله».

من كتاب البيريسترويكا

حول شعبية غورباتشوف:

عندما يتحدث الناس عن شعبية غورباتشوف فهم لا يعنون ظاهرياً شخصاً محدداً، بل يعنون سياسة تمارسها القيادة السوفييتية... وإن كنا جادين في العمل على تطبيق تلك السياسة على الصعد الداخلية والخارجية، سيكتب للسلطة أن تستمر وتقوى.

أما إذا انعكست الآية، فلا يوجد أي أسلوب، أو أي سحر شخصي قادر على إنقاذنا.

في مقابلة مع الصحيفة الشيوعية الإيطالية الـ(يونيتا)ـ أيار ١٩٨٧

التسلسل الزمني للأحداث

١٩١٧: اجتاحت الفصائل البولشفية قصر الشتاء في بيتروغراد (لينين حالياً) في السابع من تشرين الثاني، واعتقلوا أيضاً الحكومة المؤقتة، وخلال أيام أصدر القائد البولشفي فلاديمير لينين مراسيم يطالب فيها الحكومات الأجنبية بالسلام، لاغياً الملكية الخاصة للأراضي وناقلاً السلطة على الصناعة إلى اللجان العمالية.

١٩١٨ ـ ١٩٢٠: التدخل الأجنبي والحرب الأهلية. نفذ لينين خطة (الحرب الشيوعية)، حيث باشرت الحكومة بمصادرة القمح، ومنعت التجارة الخاصة، وأممت قطاعات واسعة في الاقتصاد وعادت وسيطرت القوات البولشفية على شمال القوقاز وذلك حول ستافروبول، بلد أسلاف غورباتشوف.

١٩٢١: في اجتماع الحزب العاشر قدم لينين سياسته الاقتصادية الحديثة، حيث أعاد ملكية بعض القطاعات الاقتصادية إلى الملكية الخاصة وسمح للسوق التحكم بالزراعة، وسمح ببعض التجارة الخاصة.

١٩٢٢ : أعلن عن تأسيس اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية.

١٩٢٤ : توفي لينين عن عمر يناهز ٥٤ سنة ، وانتقال الحزب إلى الحكومة الثلاثية والتي تضم جوزيف ستالين ، سُنَّ أول دستور لاتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية. اعتراف كل من بريطانيا وفرنسا والنمسا والصين وإيطاليا بالحكومة السوفييتية.

١٩٢٧ : هزم ستالين منافسيه في الاجتماع الخامس عشر للحزب واستلم القيادة ، وقال جميع المؤتمرين بالالتزام بزيادة التصنيع بالموافقة على الخطة الخمسية الأولى ، والتي تنادي بزيادة الانتاج بنسبة ١٥٠٪. خلال الفترة الواقعة بين ١٩٢٨ ــ ١٩٣٣ نفي ليون تروتسكي.

١٩٢٩ : إقرار الحل لتطهير عام في الحزب وذلك خلال الاجتماع السادس عشر للحزب وقع ستالين رسمياً على بدء التنظيم الشعبي ، وأعلن أن الحزب انتقل إلى سياسة جديدة هي (إعفاء طبقة الفلاحين الأغنياء).

١٩٣١ : في الثاني من آذار ولد ميخائيل سيرجيفتش غورباتشوف في بلدة بريفولنوي بحلول أيلول استطاع التنظيم الشعبي استقطاب حوالي ٦٠٪ من الفلاحين.

١٩٣٤ : اغتيال خصم ستالين سيرجي كيروف رئيس حزب لينينغراد ، هنا بدأ تطهير الحزب ، والتي وصلت قمتها في ١٩٣٦.

١٩٣٩ : توقيع الميثاق النازي ــ السوفييتي ، تخلى الحزب عن التطهير في صفوف الجماهير.

١٩٤١ : في ٢٢ حزيران بدأت ألمانيا النازية بغزو الاتحاد السوفييتي.

١٩٤٢ : احتلال القوات النازية لمقاطعات كبيرة سوفييتية بما فيها مدينة ستافروبول ، وبدأ حصار لينينغراد ومعركة ستالينغراد.

١٩٤٥ : انتهاء الحرب العالمية الثانية، ووالد غورباتشوف يعود إلى مزرعة خيلبورب التعاونية في بلدة بريفولنوي للانضمام إلى ولده الذي كان يعمل سائق حصادة.

١٩٤٩ : فوز الشيوعيون الصينيون بالحرب الأهلية، منظمة حلف شمال الأطلسي الناتو، كوفئ ميخائيل غورباتشوف وسام الجيش الأحمر في ستافروبول لجهوده الجبارة في المزرعة التعاونية.

١٩٥٠ : في سن التاسعة عشرة سافر غورباتشوف عبر المدن والقرى المنكوبة بسبب الحرب بطريقه ليلتحق بالجامعة المركزية في موسكو وذلك بشهر أيلول.

١٩٥٢ : بلغ ستالين سن ٧٣، انعقاد المؤتمر الحزبي، فمنذ ١٣ سنة والمكتب السياسي يسمى اللجنة التنفيذية الدائمة. في جامعة موسكو بدا غورباتشوف عضواً فعالاً في اتحاد الشبيبة الشيوعي وعضواً في الحزب.

١٩٥٣ : وفاة ستالين في ٦ آذار، وتمّ انتخاب غورباتشوف سكرتيراً أولاً للحزب في أيلول. اعتقال مدير إدارة الشرطة السرية جيفرنتي بيريا وإعدامه في الصيف.

١٩٥٥ : الاتحاد السوفييتي عضواً مؤسساً لحلف وارسو. تخرج غورباتشوف وزوجته رايسا في حزيران وعودتهم إلى ستافروبول، حيث عُيِّن في الكومسومول للمقاطعة.

١٩٥٦ : في المؤتمر العشرين للحزب وبخطبته السرية في شباط افتتحه غورباتشوف عمداً لتصفية أعوان ستالين. ترفيع غورباتشوف إلى سكرتير أول للكومسومول (اتحاد الشبيبة الشيوعي) في مدينة ستافروبول. إحباط ثورة في هنغاريا من قِبل القوات السوفييتية وذلك في الخريف.

١٩٥٧ : سنة ناجحة قطرياً ودولياً للرئيس غورباتشوف. في تموز تغلب على منافسيه ومعارضيه، في الرابع من كانون أول يطلق الاتحاد السوفييتي أول قمر اصطناعي (سبوتنك).

١٩٥٨ : منح الكاتب السوفييتي بوريس باسترناك جائزة نوبل للآداب، ومن ثم أجبر على التخلي عنها، الجائزة على روايته (الدكتور زيفاغو). ترفّع غورباتشوف في اتحاد الشبيبة الشيوعية ووصل إلى مركز السكرتير الأول عام ١٩٦٠.

١٩٦١ : انفصال الصين والاتحاد السوفييتي. بناء حائط بين برلين الشرقية والغربية من قِبل ألمانيا الشرقية. في موسكو ركز غورباتشوف في خطابه في المؤتمر الثاني والعشرين للحزب على تصفية الستالينية، وهو المؤتمر الأول الذي يحضره غورباتشوف. موافقة المجلس على نقل جثمان ستالين من ضريح لينين.

١٩٦٢ : اهتزاز موقف خروتشوف في موسكو نتيجة لأزمة الصواريخ الكوبية. علاقات السياسية الجيدة تساعده على التقدم في فرع الحزب لمنطقة ستافروبول، للسيد خروتشوف.

١٩٦٤ : في تشرين أول جرد خروتشوف من منصبه، وقلد سكرتيراً أول ليونيد بريجينيف. انتخاب المعلم الأول لغورباتشوف فيودور كولاكوف رئيساً لقسم الزراعة في اللجنة المركزية.

١٩٦٦ : تغير اللقب الرسمي لرئاسة الحزب، وعاد كما كان السكرتير العام واللجنة التنفيذية الدائمة إلى المكتب السياسي. أصبح غورباتشوف رئيساً للحزب في مدينة ستافروبول. وفي الربيع سافر خارج الاتحاد السوفييتي، ولأول مرة إلى ألمانيا الشرقية، وفي الصيف سافر إلى فرنسا برحلة ترفيهية.

١٩٦٨ : قوات حلف وارسو تغزو تشيكوسلوفاكيا لإحباط محاولة تحريرية معروفة بـ(ربيع براغ). بعد أن حاز على شهادته من معهد ستافروبول الزراعي وبسنة واحدة انضم غورباتشوف إلى لجنة الحزب كاري في ستافروبول ونائب الرئيس.

١٩٧٠ : توقيع اتفاق الحد من الأسلحة بين الرئيس ريتشارد نيكسون، الذي قدم إلى موسكو، والسكرتير العام ليونيد بريجينيف.

١٩٧٥ : توقيع اتفاق هلنسكي لحقوق الإنسان في أيلول . في كانون الأوّل تسلّم الفيزيائيّ المعارض أندريه زاخاروف جائزة نوبل للسلام .

١٩٧٧ : ينتحل بريجينيف لقباً إضافياً هو الرئيس ، ودستور جديد قد أُخذ العمل به . نجاح عملية حصاد (الايباتوفسكي) . توجه الأنظار إلى غورباتشوف . وكذلك نشر صحيفة البرافدا على صفحتها الأولى لمقابلة مع زعيم الحزب الكاري في ستافروبول .

١٩٧٨ : استلام غورباتشوف منصب سكرتير اللجنة المركزية للزراعة بدلاً عن عضو المكتب السياسي كولاكوف الذي توفي . عودة غورباتشوف وزوجته إلى موسكو بعد ٢٣ سنة في ستافروبول .

١٩٧٩ : غزو القوات السوفييتية لأفغانستان وتأسيس حكومة تدعمها موسكو . يواصل غورباتشوف صعوده السريع بتعيينه عضواً غير مصوت في المكتب السياسي في تشرين الثاني .

١٩٨٠ : في كانون الثاني نفي زاخاروف إلى مدينة غوركي . ترقية غورباتشوف في تشرين الأول إلى عضو فعال في المكتب السياسي .

السيرة الذاتية الخاصة لميخائيل غورباتشوف

١٩٨٢ : وفاة بريجينيف في تشرين الثاني بعد ١٨ عاماً من الحكم ، وانتخاب يوري أندروبوف مدير المخابرات الروسية (KGB) وهو صديق لغورباتشوف ، كسكرتير عام .

١٩٨٣ : المقاتلات السوفييتية تسقط طائرة من خطوط طيران كوريا بعد أن ضلت طريقها إلى داخل الاتحاد السوفييتي ، رقم الرحلة كان ٠٠٧ ، يرأس غورباتشوف فريقاً

لمواجهة الأزمات للتنسيق في المشاكل الدولية المعارضة. زار كندا كسكرتير الحزب المسؤول عن الزراعة.

١٩٨٤ : وفاة أندروبوف في شباط وحلول كونستانتين تشيرنينكو والذي كان محامياً ولمدة طويلة لبريجينيف. أصبح غورباتشوف المسؤول غير الرسمي الثاني في قيادة الحزب مشرفاً على الأيدلوجية والثقافة رئيساً لعدة اجتماعات لمكاتب سياسية. قيام غورباتشوف وزوجته رايسا بزيارة رسمية إلى بريطانيا في كانون الأول.

١٩٨٥ : توفي تشيرنينكو في آذار وخلال ساعات انتخب غورباتشوف سكرتيراً عاماً. بدأ حملة ضد الفساد والكحول. وقام بزيارة متلفزة إلى أماكن عمل. ووضع لمسات شخصية بعض القيادات. في تشرين الثاني التقى غورباتشوف بالرئيس ريغان في قمة جنيف.

١٩٨٦ : في مؤتمر الحزب ٢٧ أقر المؤتمرون برنامج غورباتشوف الاقتصادي، وانتخبوا خلفاء للسكرتير العام. أفظع حادثة نووية في تاريخ المدينة تقع في نيسان في تشرنوبيل. بطء الحكومة السوفييتية بالرد على الضغوط الدولية للحصول على معلومات حول الحادث. خلال العام أصبحت حركتا غورباتشوف المخططة الغلاسنوست والبيريسترويكا مثار الأدب العالمي التحرري والاجتماعي والاقتصادي. يلتقي ريغان وغورباتشوف مجدداً في ريكيافيك في ايسلندا. إطلاق سراح زاخاروف من المنفى في كانون الأول.

١٩٨٧ : في اجتماع اللجنة المركزية للحزب في شباط أعاد غورباتشوف مناداته للإصلاح السياسي والاقتصادي. حوالي ١٤٠ سجيناً أُطلق سراحهم من بينهم المعارض لوسين بيفون والطبيب النفساني أناتولي كورياغن. قيام الألماني الغربي ماتيوس رست باختراق مئات الأميال داخل المجال الجوي الروسي بطائرته ذات المحرك الواحد هابطاً بطائرته في الساحة الحمراء.

استغل غورباتشوف هذه الحادثة ليقوم بتغييرات هامة في الجيش. وقع غورباتشوف

وريغان على اتفاق الحد من الأسلحة النووية في قمة واشنطن، واتفقا على اللقاء في موسكو عام ١٩٨٨، ومن الممكن التوقيع على معاهدة للحد من الأسلحة الاستراتيجية.

لمحة عن المؤلفين

١ ـــ ديفيد ايخمان: كان مراسلاً لجريدة التايم ولمدة ١٦ عاماً، ومن أجل تجميع المعلومات حول جوانب عدة من هذا الكتاب، فلقد سافر عبر الولايات المتحدة وخمس دول أوروبية، فهو الذي كتب الفصول المتعلقة بطفولة غورباتشوف وسنواته الجامعية في جامعة موسكو. هو مختص بالشؤون السوفييتية والشؤون الصينية والشيوعية بشكل عام. فلقد كان رئيساً لتحرير صحيفة في بكين وموسكو والقدس وأوروبا الشرقية. ولد في انكلترا عام ١٩٤٤، درس في اوكسفورد وجامعة واشنطن حيث تلقى شهادة الدكتوراه في تاريخ الصين والاتحاد السوفييتي. ايخمان صاحب كتاب (حفة الباسفيك) (منطقة التحول) (منطقة الفرص) صادر عن (ليتل براون ١٩٨٦) وهو محرر كتاب (أحبوا الصين اليوم) عن (دار تيندل عام ١٩٧٨) في الوقت الحاضر إنه يكتب رواية جديدة.

٢ ـــ جورج تشرش: كبير المحررين في جريدة التايم، وهو الذي كتب الفصل المتعلق بزوجة غورباتشوف رايسا، ولد في نيوجرسي بمدينة يونين عام ١٩٣١، حاصل على

البكالوريوس من كلية مانهاتن، وحضر في قسم خريجي الاتصالات في جامعة سيراتوس. عمل في قسم الطباعة كخادم لنقل المعدات في جريدة (النيويورك تايمز)، ذلك في أول حياته الصحفية. عمل كمراسل لجريدة (ول ستريت) ومن ثم كمحرر للأخبار في مكتب بتتربرغ ومديراً له. كتب أكثر من ٨٠ قصة غلاف منذ أن انضم إلى جريدة التايم عام ١٩٦٩، بما فيهم قصة (رجل العام لعام ١٩٨٧) والتي اعتمد هذا الكتاب عليها.

٣ ــ سالي ــ ب ــ دونلي: باحثة في قسم جريدة التايم ورلد، وباحثة رئيسية في هذا الكتاب. ولدت عام ١٩٦٠ تخرجت من كلية هولنز وحصلت على شهادة الماجستير في السياسة السوفييتية من مدرسة الاقتصاد اللندنية. كما أنها حاصلة على شهادة في اللغة الروسية من معهد لينينغراد المركزي البيراغوجي، تخصصت في الشؤون السوفييتية منذ أن التحقت بجريدة التايم عام ١٩٨٥.

٤ ــ جيمس ــ و ــ جاكسون: منذ ١٩٨٥ استلم رئاسة مكتب التايم في موسكو، وهو الذي قدم التقرير المتعلق بفصول الكتاب المتعلقة بحياة غورباتشوف في الكرملين. قبل ذلك غطى أخبار براغ لصالح جريدة (يونايتد برس انترناشيونال) ومن ثم أمضى خمس سنوات في الاتحاد السوفييتي يعمل لصالح (يوناتيد برس انترناشيونال) ولـ(شيكاغو تريبيون). ولقد كان مدير مكتب لندن لجريدة (التريبيون) نائب رئيس التحرير ــ محرر الصفحة ومحرر صفحة الأخبار الأجنبية. ولد عام ١٩٣٩ في سانتا في شمال المكسيك، تخرج من جامعة نورث وسترن للصحافة وكان زميلاً مع مجموعة (نيمن) في جامعة هارفرد، حيث درس الشؤون السوفييتية. إنه مؤلف رواية (ساحة ديزرزنكي) عن (دار سينت مارتن عام ١٩٨٦).

٥ ــ جون كوهان: مراسل لجريدة التايم، مركزه في بون، وقد كتب الفصل المتعلق بحياة غورباتشوف في ستافروبول حيث سافر الكاتب إلى هناك. كان مساعد محرر في مجلة (ورلد)، حيث كان يكتب قصة الغلاف عن شخصيات روسية مثل يوري أندروبوف

وكونستانتين تشيرنينكو وميخائيل غورباتشوف. ولد الكاتب في (اوبرداربي) بولاية بنسلفانيا عام ١٩٥٢، درس في جامعة فرجينيا والجامعة المركزية في لينينغراد وجامعة كولومبيا، حيث حصل على شهادة ماجستير في اللغات والأدب السلافي، إنه طليق اللسان بالروسية، وزار الاتحاد السوفييتي في عدة مناسبات مشاركاً في برامج التبادل أو في مؤتمرات الشباب وكذلك الأمر كصحافي.

٦ ــ **دونالد موريسون**: إنه المحرر الرئيسي للكتاب، وكتب الفصل عن يوم في حياة غورباتشوف، وهو كبير المحررين في جريدة (تايم ورلد)، لقد كتب خلال ٢٠ عاماً في كل المجالات تقريباً، ومنذ فترة قريبة عين كبير المحررين في جريدة (تايم العالمية)، ولد عام ١٩٤٦ في التون، حاصل على شهادة البكالوريوس من جامعة بنسلفانيا، وكان زميلاً في مجموعة (ثوروث) لمدرسة الاقتصاد اللندنية، حيث حصل على شهادة ماجستير في المقارنة الحكومية وبتأكيد على الشؤون السوفييتية.

٧ ــ **توماس ــ أ ــ سانكتون**: هو مساعد محرر في جريدة التايم (قسم ورلد) وكتب الفصل المتعلق بزيارة غورباتشوف إلى الولايات المتحدة؛ ما زال مساعد محرر مركزه في باريس لمجلة (انترناشيونال)، إنه مؤلف عدة قصص عن مواضيع سوفييتية وأوروبية شرقية، بما فيهم رجل العام ١٩٨١ عن ليش فاليسا القائد العمالي البولندي وثلاثة موضوعات للصفحة الرئيسية عن غورباتشوف. ولد عام ١٩٤٩ في ولاية المسيسبي لمدينة جاكسون، يحمل شهادة البكالوريوس من جامعة هارفرد وعالم من مجموعة (رودوس) في جامعة اوكسفورد، ويحمل شهادة دكتوراه في التاريخ الأوروبي.

٨ ــ **ستروب تالبوت**: كتب تمهيد هذا الكتاب، وهو رئيس مكتب واشنطن منذ عام ١٩٨٤. كان قبل ذلك المراسل الدبلوماسي للمجلة، وغطى أخبار البيت الأبيض ووزارة الداخلية وأوروبا الشرقية. ولد في دايتون بولاية أوهايو عام ١٩٤٦، درس في جامعة (يل)، وكوفئ بمنحة (رودس) إلى جامعة اوكسفورد. ترجم وحرر مجلدين لمذكرات نيكيتا خروتشوف والصادر عن دار (ليتل براون عامي ١٩٧٠ و ١٩٧٤)، له ثلاث

كتب وهي (اندغيم) (نهاية اللعبة) (قصة السرية لسالت ٢) صادر عن دار (هاربر ورو عام ١٩٧٩)، وكذلك كتاب (الروس وريغان) الصادر عن دار (راندم هاوس/فينتاج ـ ١٩٨٤)، و(المناورات القاتلة) و(إدارة ريغان وأزمة السيطرة على الأسلحة النووية) عن دار (كنوبف ـ ١٩٨٤)، ولقد تشارك مع الكاتب مايكل ماندلباوم في كتابة كتاب (ريغان وغورباتشوف) عن دار (راندم هاوس/فينتاج ـ ١٩٨٧)، أو كتاب له يتعلق بسيرة بول فيتز وتاريخ خطر التسلح وستنشره دار (كنوبف في نهاية ١٩٨٨).

ملحـق صـور



كان «ميشا» غورباتشوف، وهو في سن الرابعة، يتمتع بنظرة مركزة تدل على أنه سيصبح سياسياً.

وكان أمام الصبي الكثير من الأحداث التي سوف يراها. وأثناء ترعرعه في مدينة بريفولنوي في الثلاثينيات، لم يستطع تحمل ممارسات الظلم والقمع التي رافقت أوامر ستالين الخاصة بالمزارع الجماعية. كذلك كان تحت وطأة الاحتلال النازي لإقليم ستافروبول خلال الحرب العالمية الثانية ــ وكانت له مجابهة دينية قصيرة. فجدّه وجدته اللذان يحتفظان بإيقونات مخبأة خلف صورتي لينين وستالين، أخذاه معهما في إحدى المرات إلى الكنيسة. ولكنه، كما قال فيما بعد، لم يشعر بحاجة لتكرار الزيارة إلى الكنيسة.



مع جده وجدته في بريفولنوي، سيركا، ١٩٣٥



والده سيرجي اندريفتش غورباتشوف،

أواخر الأربعينيات



والدته ماريا بانتليفنا غورباتشوف،

سيركا ١٩٨٧



ميخائيل في سن التاسعة عشر

عندما كان طالباً في جامعة موسكو، في أوائل الخمسينيات





البيت الذي عاش فيه غورباتشوف مع زوجته رايسا حتى عام ١٩٧٨، عندما كان ممثلاً رسمياً للحزب، ويقع في شارع دزيرجنسكي بمدينة ستافروبول



ميخائيل ورايسا عندم تزوجا عام ١٩٥٤



غورباتشوف وهو يتلقى منديلاً من أحد الطلائعيين خلال زيارة قام بها لألمانيا الشرقية في العام ١٩٦٦



صورة عائلية ربما التقطت في السبعينيات. ويرى فيها من اليسار: ماريا بانتليفنا، الابنة ارينا، ميخائيل، رايسا، زوج الابنة أناتولي



ميخائيل ورايسا يقضيان إجازة بمدينة سيركا في الاتحاد السوفيتي، عام ١٩٨٦



في طابور الطعام في (البرتا) خلال جولة غورباتشوف لمدة عشرة أيام في كندا عام ١٩٨٣



يتذوق الويسكي في معمل تكرير كندي عام ١٩٨٣



في (أتاوه) أول مواجهة لغورباتشوف مع جراد البحر عام ١٩٨٣



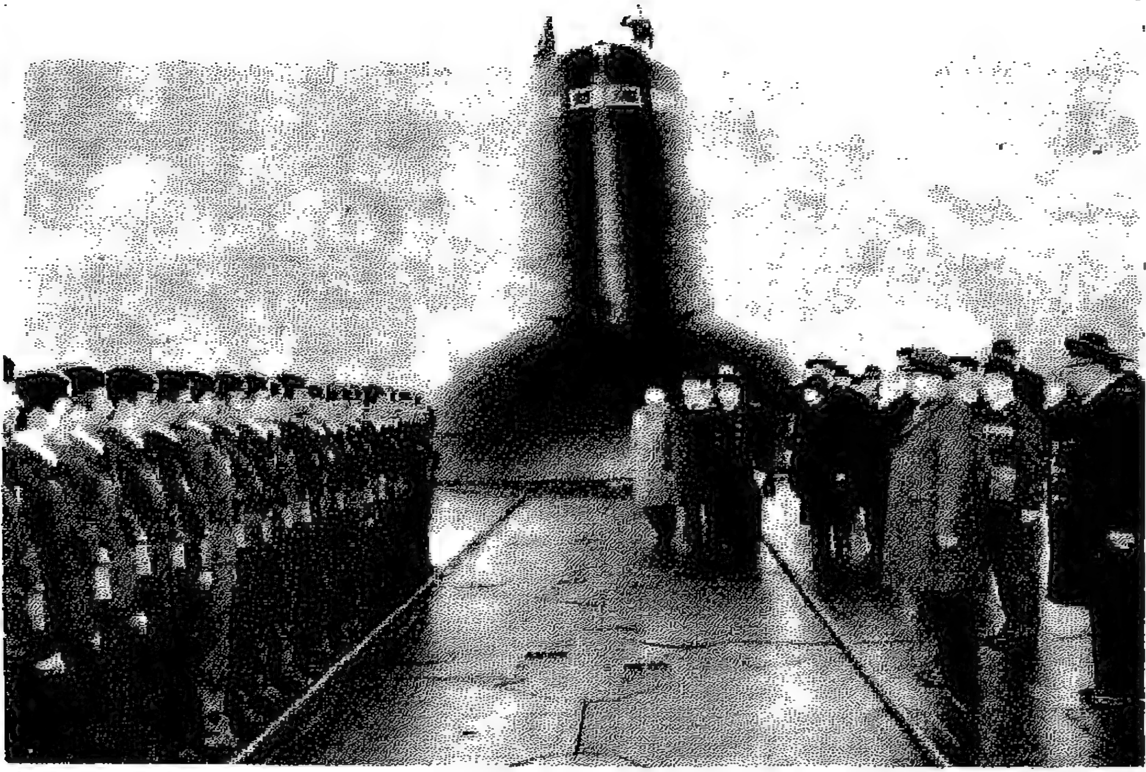
مع حفيدته في موسكو عام ١٩٨٥



(ايرينا) ابنة غورباتشوف وزوجها (أناتولي) في الساحة الحمراء عام ١٩٨٧



غورباتشوف في رقصة مع الحلفاء الرومانيين في ساحة النصر في بوخارست عام ١٩٨٧



استعراض فريق الغواصة النووية خلال جولة في القاعدة البحرية في (سيفيروموروسك)
شمال لينينغراد عام ١٩٨٧



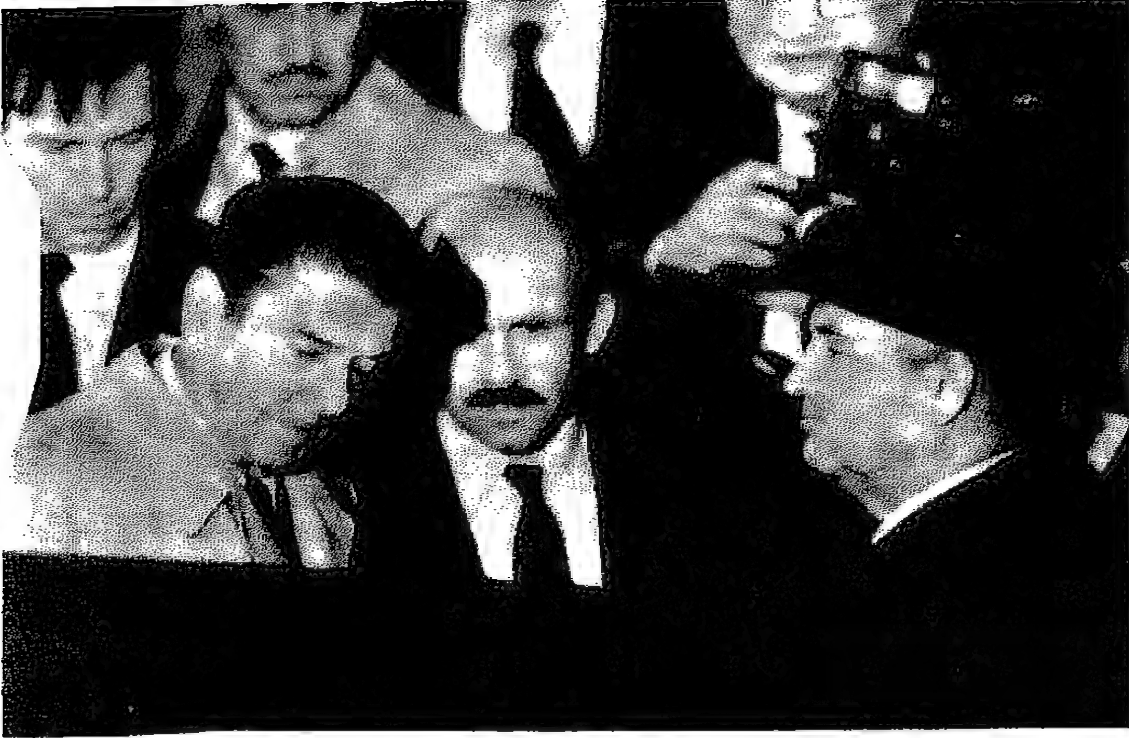
سائق يقود آلية، ويقوم بمراقبة المحصول في وقت واحد في مزرعـة (بورتس) خارج موسكو



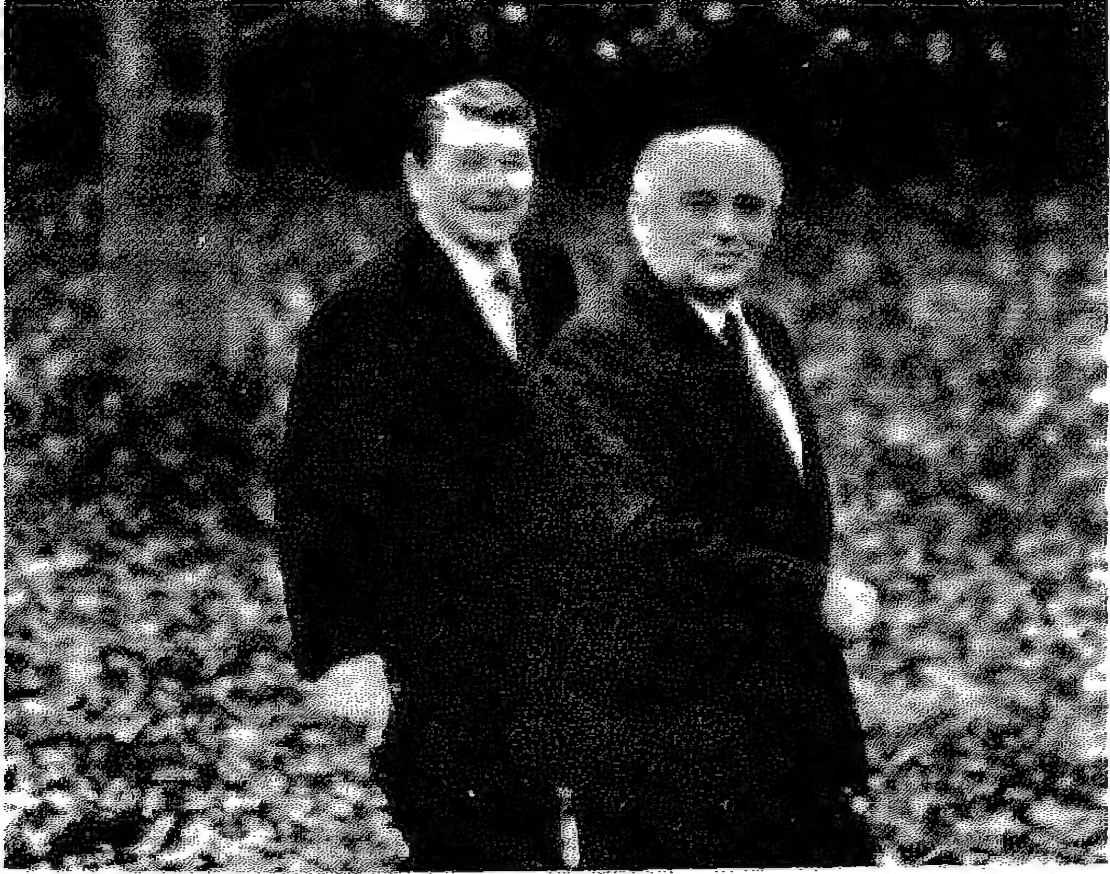
غورباتشوف يحيّي الجماهير مبتهجاً، بأسلوب السياسي الغربي، في بوخارست عام ١٩٨٧



غورباتشوف يزاحم الجماهير خلال توقف مفاجئ في أحد شوارع واشنطن عام ١٩٨٧



ريغان متجهم الوجه، وهو يغادر مودعاً، بعد فشل محادثات (ريكيافيك) في آيسلندة عام ١٩٨٦



رجلا القمة يبتسمان للمصورين خلال اجتماعهما الناجح في واشنطن عام ١٩٨٧



رايسا تصنع الأصدقاء في آيسلندة خلال قمة ريكيافيك عام ١٩٨٦

ميخائيل غورباتشوف : سيرة ذاتية مفصلة = Mikhail S.Gorbachev / أعده محررو مجلة التايم الأمريكية ، قدم له ستروب تالوب ؛ ترجمة دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر . ـــ دمشق : دار طلاس، ١٩٩٠ . ـ ٣٥٦ ص؛ ١٨ سم.

١ ـــ ١ر٩٢٣ : غورباتشوف ، ميخائيل ت ٢ ـــ العنوان الموازي ٤ ـــ تالوب ٥ ـــ دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر

مكتبة الأسد

ع ـــ ١٩٩٠/٩/٨٥٠

رقم الإصدار ـــ ٥٠٦

هـذا الكتـاب

يروي هذا الكتاب بأسلوب شيق، قصة حياة الرجل، الذي يعيد الآن بناء الاتحاد السوفيتي، منذ نعومة أظفاره، وحتى تسلمه أعلى المناصب.

إنه قصة بطـل من أبطـال الاتحاد السوفيتي، الذي برز من بين صفوف الحزب الشيوعي، وأصبح من أشهر الزعماء في عصرنا الحالي.

